على السفود

عَلَى السَّفُّودِ

نَظَرَاتٌ فِي دِيوَانِ العَقَّادِ

تأليفُ

مُصْطَفَى صَادِق الرَّافِعِي

صَحَّحَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ

حسن السّماحي سُوَيْدان

رَاجَعَهُ وَقَدَّمَ لَهُ

الدكتور عزّ الدّين البدوي النجّار



دَارُ البَشَائِر

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - ص.ب ٤٩٢٦ - هاتف ٢٢٦٦٦٦٨/٩ - فاكس ٢٢٦١١٩٦



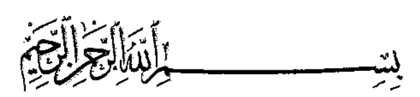
دَارُ المَعلَمة

للنشر والتوزيع

الرياض ص.ب ٢٢٢ - جوال ٠٥٥٥٤٨٨٢١ - تلفاكس ٤٧٢٩٥٣١

الطبعة الثانية
دار البشائر
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

الطبعة الأولى
دار العصور - مصر
١٣٤٨ هـ - ١٩٣٠م



تصدير

بقلم
الدكتور عزّ الدين البدوي النجار

أصـول:

- سأل عبيدُ الله بنُ عبد الله بنِ طاهرٍ البحتريَّ وقد كان حاضراً مجلسَه: «أَمُسْلِمٌ أشعرُ، أم أبو نُواس؟ فقال: بل أبو نُواس، لأنه يتصرف في كل طريق، ويَـبْـرَعُ في كل مذهب، إن شاء جَدَّ، وإن شاء هَزَل؛ ومسلمٌ يَلْزَمُ طريقاً واحداً لا يتعدّاه، ويَتَحقَّقُ بمذهب لا يتخطّاه. فقال له عبيد الله: إن أحمدَ بن يحيى ثعلباً لا يوافقُك على هذا. فقال: أيها الأمير، ليس هذا من عِلْمِ ثعلبٍ وأضرابه ممن يحفظ الشعرَ ولا يقولُه، وإنما **يـعرفُ الشعرَ من دُفِـعَ إلى مَضَـايقـه**»[1].

(١) اقتبسنا هنا غير نص من النصوص الكاشفة عما يَعْتَوِرُ الآثارَ الإنسانيةَ وأصحابَها والمتلقيها، حين تخرج من القوة إلى الفعل، ومن الباطن المتوهَّم له الكمال إلى الظاهر الذي لا يكاد ينفك من نقص، ويتلقاها الأكفاء (وغير الأكفاء) بسرائرهم ومقادير عقولهم: بالعلم والنَّصَفَةِ، أو العلم والهوى، أو غير ذلك؛ إيماءً منا إلى المسالك الإنسانية المألوفة المعروفة في أمثال قضيتنا التي نحاولها في هذه الصحف، مذ كان في الأرض من عمل الإنسان أمر، وكان رَدٌّ عليه.

• ولقي صريعُ الغواني مُسْلِمُ بنُ الوليدِ أبا نُواسٍ الحسنَ بنَ هانىء فقال له: «ما يَسْلَمُ لك بيتٌ عندي من سَقَط. قال: فأيُّ بيتٍ أسْقَطْتُ فيه؟ قال: أنشدني أيَّ بيتٍ شئت. فأنشده:

ذَكَـرَ الصَّبُوحَ بسُحْرةٍ فارتـاحـا   وأَمَلَّـهُ ديـكُ الصبـاحِ صيـاحـا

فقال له: قد ناقضتَ في قولك، كيف يُمِلُّه ديك الصباح صياحاً وإنما يبشره بالصَّبُوح الذي ارتاح له؟ فقال له الحسن: فأنشدني أنت من قولك، فأنشده:

عـاصَى العَـزاءَ فـراح غَيْـرَ مُـفَـنَّـدِ   وأقـام بيـن عـزيمـةٍ وتجلُّـدِ

قال له: قد ناقضت في قولك، إنك قلت: «عاصى العزاء فراح غير مفند»، ثم قلت: «وأقام بين عزيمة وتجلد» فجعلته رائحاً مقيماً في مقام واحد، والرائح غيرُ المقيم.

والبيتان جميعاً متخلصان، **ولكن من طلب عيباً وجده»**.

• **من أَلَّفَ استهدف.**

• ومن ظنَّ ممن يلاقي (الخصومَ)   بأن لن يصابَ فقد ظنّ عجزا

بين يدي التاريخ:

كيف لو شَفَّ الوجودُ عن سِرِّه، فما في الوجود سِرّ؟ وسقطت عن الناسِ المِحْنَةُ، واستقام للإنسانية شأنُها في الأرض، وما تعالجُ من الأمر؛ فما هناك حقيقةٌ تَشُقُّ على أهلها تُطْلَبُ، ولا مَدْخُولٌ من العلم والرأي يُدْفَع؟ ومضى الأمرُ كلُّهُ على سَنَنٍ واحدٍ، صَراحاً بَوَاحاً، ظاهرُهُ كباطنِهِ، فما من حاجةٍ إلى وصفِ فارقٍ يَذْهَبُ به يميناً مرةً أو إلى يسار، تُـقْبِلُ عليه كلُّ نَـفْسٍ، ويَـقَعُ مَوْقـعَ الرضا من كل خاطر؟ وبطلت الخصومةُ، ووقعتِ الأُلْـفَـةُ، ورجع الناسُ في منازعهم جنساً واحداً لا يختلط، وأمة واحدة لا تختلف؟

عارضٌ من الفكر يَـعْرِضُ، يُـغْرِي به مُـعْتَـرَكُ الناسِ الأبـدي، يتراءَى للنفس مَرْآتَـهُ المتقلبةَ الحائرة.

• أما فريقٌ من أهل الحكمةِ فيرَوْنَ فيه - لو كان - فردَوْسَهُم الأرضِيّ، يَفِرّون معه من شقاءٍ إلى نَعْماءَ، وأصلُهُ عندهم عجز في الطبيعة الإنسانيةِ أخرجه النكدُ به مُخْرَجَ الحُلْمِ، فرجعَ فردوساً يُشْتَهى، وقد كان واقعاً مُرّاً يَـتَـضَرَّمُ.

• وأما فريقٌ آخَرُ فيرَوْنَ هذه المحنةَ نَفْسَها سِراً من أسرار الخلق، متكشفاً أبداً عن كلّ إحسانٍ كان أو سيكون، ويرَوْنَ من الحكمةِ ألا تَسْكُنَ الحكمةُ كلَّ قلبٍ، وألا تأخذَ بمذاهبها كلَّ نَفْس، بُـقْيَـا على أصلِ التدافع الذي تَعْمُرُ به الأرض؛ وتثورُ به الإنسانيةُ إلى وجوهِ المرافق والعمل؛ وتسقُطُ به لو سقط جملةٌ كثيرةٌ من منشآتِ الفكر، لم يُخْرِجْها من مكامنها إلا اختلافُ أنفسٍ وعقول.

فبِنَـفْسٍ مرتبكةٍ في الحَيْرَةِ، يُرْمِضُها من الإنسان تَخَلُّفُهُ عن كماله مع قدرته لو أراد عليه، أو خالصةٍ - بتسليمها - لليقين = يَشْهَدُ امرؤ ما يشهدُ من أطوار الحقيقةِ وصُوَرِها وتَقَلّبِها في الأرض.. يأخذُ لنفسه مما يَشْهَدُ أَسًى يَـرْتَمِضُ به، أو يقيناً يرتفع منه إلى يقين.

الخصومات الأدبية في العصر الحديث:

أما نحن فما نعرفُ فيما عرفناه من أحوالِ هذا الأدبِ في عصرِهِ الحديثِ أغربَ غرابةً من حالِ طائفةٍ من الخصوماتِ الأدبيةِ التي نَشِبَتْ بين طائفةٍ من رجاله، ولا من قلّتها وهوانِها في ذاتها بالقياس إلى جلالةِ أقدارِهم في ذواتهم، وعِظَمِ مواهبهم ومعارفهم، وأصالةِ شخصياتهم إلى الحد الذي نَحْسَبُ فيه أنها لن تتكرر في مُسْتأنَفِ الزمان.

ولابد أنهم هم أيضاً - بينهم وبين أنفسهم - التفتوا إلى ما كان بينهم،

واستغربوا منه نحواً مما نستغرب ، فابتسموا له ضرباً من ابتسام . . وذلك بعد أن تقدم بهم العُمُر ، واطمأنوا إلى أقدارهم في الحياة وحظوظِهم منها ، وكشفت لهم الحياةُ من حقائقها مالا تَكْشِفُهُ لأبنائها إلا بعد انقضائها ، وإلا بعد إدبارها عنهم ، وتَـفَلُّتِها من بين أيديهم تَفَلُّتَ الرمالِ أو الماء . . وحينذاك فإن هذه الحكمةَ المُكتَسَبَةَ الهَرِمةَ بدلٌ شاحبٌ باهتٌ مما ضاع بتضييع أهله .

ميـراث الـحـقـيـقـة :

وعلى أنه :

رُبَّ خَفْضٍ تحـت السُّرَى وغَـنَـاءٍ فـي عَنَـاءٍ ونَضْـرَةٍ فـي شُحـوبِ

وربَّ فائدةٍ جليلةٍ في الفكر أو الأدب أو اللغة ، أثارتها مناسبةٌ هَيِّنةٌ عابرة ، فانقضى الهيّنُ العابرُ كما ينبغي له ، وبقي الجليلُ النافعُ ميراثاً في الأرض يُـنْـتَـفَعُ به ، كأنما أخرجته يَدُ القدرةِ جليلاً نافعاً منذ كان .

وفيما كان بين بين الرافعيّ وغيرِ واحدٍ من رجال عصره جملةٌ وافرةٌ من هذا القبيلِ ، تَعْجَبُ لمقدماتها ، ثم يُعجبُك ، بصدق طلبك للفائدة ، ما تَـوَلَّـدَ عن هذه المقدماتِ من آثار .

صـورة الـحـال :

وإغراءُ التاريخِ بنفسه ، تاريخ كلِّ شيء ، أكثرُ شيءٍ حضوراً في قَلْبِ كلِّ دارسٍ مُنْصِفٍ ، من أجل أنه سبيلٌ لاحبٌ بَـيِّـنٌ من سُبُلِهِ إلى الحقيقة ، ولعله ، بعد صدق التوجه ، أولُ سبيل .

وقد كان ينبغي إذن ـ فيما كان بين الرافعي والعقاد طَرَفَيْ قضية هذا الكتاب = أن نرجعَ بالتاريخ إلى مُبْتَدَئه ، ونأتي به على نَسَقِهِ ، ونستوفيَهُ بحذافيره ، في كلّ ما تعلق بالرجلين ، وعَمِلَ عملَهُ في خصومتَها الكبيرة ، إلا أن واقعَ الحال جَذَبَ إلى غيرِ الحالِ الجامعةِ التي كانت تُغْري بنفسها

لأولِ وهلة ، وانساق الكلامُ باتجاه الرافعي خاصة ، لخفاءِ حالِهِ بالقياس إلى عامةِ قُرّاءِ العربية . وهو واقعٌ من واقع أدبِ الرافعي في تاريخ الأدب الحديث ، يُـفْهَمُ مرةً من وَجْه ، ثم يَعَيا به الفهمُ فيما وراءَ ذلك ؛ وإذ كان الكتابُ الذي نُـقَدّمُ له كتابَـهُ ، فهو أولى الرجلين باستغراقِ القولِ فيه .

❊ ❊

الرافعـي عالـم العربيـة وأديبـها :

لم يعرف الرافعيَّ حَقَّ معرفته ، ولم يُنْزِلْهُ في منزلته المُفْرَدةِ التي هي له في تاريخ الآداب = من لم يعرف أن الكمال في الفن هو أحدُ هاجِسَيْهِ العظيمين اللذين اقتسما قلبَهُ واستفرغا مجهودَه ، وأن البيانَ عن أسرار القلبِ الإنساني في أكرم أحواله ، وأنفذها نفاذاً وأعمقها عمقاً = هو هاجِسُهُ العظيمُ الآخر .

وعلى أن هذين ـ في أقصى عملِ القلب ـ شيء واحدٌ أفرغ إفراغاً واحداً ، أثارته من مكامنه الغامضةِ مَلَكَةٌ عبقريةٌ ، تُلابِسُ معها الصورةُ المادةَ ، بل إنها ـ في لبابها ـ هي هي ، لا تنفكّ منها ولا تَـتَـزايل .

• لا جَـرَمَ كان الشعرُ ، الشعرُ المحضُ ، أصلاً في أدب الرافعي كله : أديباً منشئاً ، وناقداً تامَّ الأداةِ مرهفاً ، ومؤرخاً للأدب عظيماً .

وبالشعرية الخالصة ، أو بصورة منها تُطابِقُ صاحبَها شأنَ كلِّ عبقري ، استقلّ الرافعيُّ بنمطه العجيب فيما يكتب ، وبهذه الروح الغامضة التي تَسْري فيه . وهو نَمَطٌ يلتوي على كل مُقَاربةٍ له ، إذ كان مبنياً على أصول في واعية صاحبه ومُخَيلتِهِ ومفردات تكوينِهِ لا تكادُ تجتمع لأحد ؛ كيف ومن ورائها ومعها سِرُّ الفنّ الذي لا يُدْرك ، ولا يعرفُهُ العارفُ إلا بآثاره التي يصنعُها الموهوبون من أصحاب الفنون؟

• ونَمَطُ الرافعيِّ هذا نَمَطٌ مُفْرَدٌ ، لا تجدُ له شبيهاً في أساليب العربية كلها ، يَبِيْنُ به الرافعي من بلغاء معاصريه ومن بلغاء المتقدمين جميعاً؛ مع ما لعله يَسْبِقُ إلى أَنْفُسِ طائفةٍ من قرائه لأول وَهْلَةٍ، حين يَـرُوْعُهم ما يَـرَوْنَ من جزالته وشدّةِ أَسْرِهِ ، أنه يَـتَـقَـيَّلُ فُحولةَ المتقدمين ، ويَحْذُو على حَذْوِهم ، وينسحب على آثارهم.

وهذا وإن كان ليس بعيب في ذاته ، وليس هو موضعَ غَمِيْزةٍ في كلِّ أسلوبِ أدبٍ ما كان مؤدياً معناه ، إلا أنه من الوجه الذي يُطْعَنُ به على الرافعي أحدُ ما يؤاخَذ به ، يذهبون إلى أنه لا أسلوب له ، ويَعُدُّونَهُ مع الغموض آيَةَ الجُمودِ والوَهْنِ في أدبه. وهو رأيٌ من الرأي لا يَثْبُتُ على النظر ، يَكشِفُهُ ما سَلَفَ من القول في خصوصية تكوينه ، المفضي ضرورةً إلى خصوصية أسلوبه ، فضلاً عن الفَرْقِ الظاهرِ البادِهِ بين أسلوبه وكلِ أسلوبِ غَيْرِهِ قديمٍ أو حديث ، المُنْكشفِ من فَوْرِهِ لكلِّ ناقدٍ مُمَيِّز ، عارفٍ بأطواء الكلام، بَصيرٍ بالأساليب.

وعلى أن من المُفارقة التي لا يَعْدَمُ مؤرخُ الأدبِ أمثالَها كلما جاء الكلامُ إلى الرافعيّ وأدبِهِ وتجديده = أن ما يُـعْـتَـدُّ بـه حسنةً وامتيازاً لمثل البارودي ، انعقدت له به إمامةُ الشعر العربي الحديث ، يُذْكَرُ معه كلما ذُكِر ، يَرْجِعُ هو نفسُهُ عيباً ونقيصةً في أدب الرافعي ، أو أنه في أحسن الأحوال أكبرُ حَظِّهِ من الأدب ، بعد أن فاته عندهم جوهرُهُ المقصود !

وهكذا القولُ في الغموض: بَيْنا هو من محاسن الشعرِ حين تُـعَـدُّ محاسنُـه ، ومن المُغْريـات بقراءته عند من يَـتَـوَفَّـرُ على قراءتـه ، ومن وجوه الإمتاع فيه = إذا هو من مساوىء أدبِ الرافعي ، وأحَدُ ما تُـعْقَدُ عليه الخناصِرُ حين يُرادُ الغَضُّ منه والزِّرايةُ عليه!

• وفي أدب الرافعي من الأعجوبة أنه تحول ، باديَ الرأي ، من الشعر إلى النثر ، أعجبَ تحولٍ يُعرف في تاريخ الأدب العربي ، ولا نظير لهذا

فيما وقفنا عليه إلا في أدب تلميذه نفسِه ، وأشبهِ الناسِ أدباً به ، وأقربهم مأخذاً منه ، علاّمةِ التراث العربي وباقعته ، والأديب العَلَمِ المُبْدِع ، محمود محمد شاكر رحمه الله ، مع ما بين الرجلين من الفَرْقِ ، على ما يعرفه العارفون بالرجلين[١].

• أقبل الرافعيُّ على الوجود شاعراً عظيمَ الطموح ، يتوثّبُ على آفاق الشعر توثّـبَـهُ العارمَ، ويأخذ فيها أَخْذَ صانع مقتدر ، متوسلاً لذلك بوسائله الظاهرة والباطنة ، أعني بالموهوب والمكتسب ، وبالقَدْرِ المُتَاحِ لشاب غَضِّ الشباب ، يَعْقِلُ نَـفْسَه ، ويُقْبل على موادّه بهمةِ شبابه وحدّته ونفاذه.

كان في الثانية والعشرين فقط أو الثالثة والعشرين حينِ نشر الجزء الأول من ديوانه ، وكان قريبَ عهدٍ بمزاولة المنظوم مزاولة جادة ، وهو من عجائب سيرته في الأدب كما نرجو أن نُبَـيِّنه فيما بعد ، وقَدَّمَ للديوان

---

(١) الرافعي يَتَـلَوَّمُ على ما يكتبه ، ويصنعه صنعةً بيانية خالصة ، فيها الفكرُ والخيالُ وإحكامُ النسج ، مؤتلفاً مما يصنعُ أسلوبَـهُ الذي استقل به ، بائناً من أساليب العربية كلها على ما أسلفناه. والأستاذ محمود يذهبُ مذهبَ المطبوعين، وهو أشبه بالبحتري والمتنبي ، يَرْصُفُ ويُحْكِمُ ويتأنقُ مرتفعاً إلى الذّروة مرةً، ويتسلط على عبارته آخذاً ألفاظها أخذَ جبارٍ مرةً أخرى، مطبوعاً متدفقاً جَزْلاً على كلّ حال. وله أسلوبٌ من الانتزاع ومن صنعة الفكر يظهر لقارئه من فَوْرِه ، ويظهرُ واضحاً مستبيناً حتى فيما يترجم.

ونَحْوٌ من هذا تجده للرافعي وللعقاد ، وهو من مَزِيَّةِ الكبارِ من أصحاب الأساليب ، وعندنا أن العقاد منهم ، لاسيما بعد أن نضج واستحكم ، وتَخفّف من مطالب الصحافة اليومية ، المُتَحَيِّفَةِ من الأساليب ما يعرفه كلُّ كاتب فيها مُضطر إليها. وبعضُ ما يترجمه العقاد أيضاً يبدو وكأنه هو كاتبه لا مترجمُه.

وقد شهدت الأستاذ محمود شاكر مرةً يتعجب من أسلوب الرافعي أبلغَ تعجبٍ رأيته منه قط. ولعلي أعود إلى هذا فيما بعد.

بمقدمة في الشعر ليس أغرب من مادتها ونَمَطها بالقياس إلى عُمْر صاحبها إلا سياقها التاريخي الذي جاءت فيه ، استخرجتْ عَجَبَ الإمام اللغوي إبراهيم اليازجي وإعجابَهُ ، فكتب فيها كلمةً بليغةً دالة ، جديرةً بكاتبها وبِمَنْ كُتِبَتْ فيه .

كان يظن الديوانَ لأديبٍ مُتَمَرْسٍ شيخ ، وأن مقدمَتَه اقتباسٌ من دواوين الأدب القديمة ، فمضى يبحث عن ذلك في مظانّه ، ارتياباً منه بقدرة كاتب تلك المقدمة على مثل مادتها ونَمَطها ، فإذا هي لفتًى في الثالثة والعشرين ، وإذا هو قد كتبها ـ بمرأى من صديق له[1] ـ في ساعات معدودة لم يبارح فيها مجلسه ! فكتب يقول :

« . . . وقد صَدَّره الناظمُ بمقدمة طويلة في تعريف الشعر ، ذهب فيها مذهباً عزيزاً في البلاغة ، وتَبَسَّطَ ما شاء في وصف الشعرِ وتقسيمه وبيانِ مَزِيَّتِهِ ، في كلام تَضَمَّنَ من فنون المجازِ وضروبِ الخيالِ ما إذا تدبرته وجدتَـهُ هو الشعرَ بعينه . . . »[2] .

فكذلك كانت المقدمةُ ، دَلَّتْ على منهج شاعرٍ ومادتِهِ وأسلوبه ، في زمن بعينه ، إلا أنها كانت إرهاصاً أيضاً بالكاتب الكبير المتفرد الذي سيكونُـهُ من بعد ، بمنهج الروح نفسِهِ ، ولكن بأسلوب وطريقةٍ آخرين .

---

(١) هو الأديب جورجي إبراهيم ، صديق شباب الرافعي ورجولته في طنطا ، وسنعود إلى ذكره بعدُ.

(٢) كان هذا في أواخر أيام الشيخ ، نُشِرَ ديوانُ الرافعي سنة (١٩٠٣) ونُشرت الكلمةُ في صيف تلك السنة ، وتوفي اليازجي سنة (١٩٠٦). وكان الرافعي رحمه الله كثير الاعتداد بكلمة اليازجي هذه.
ويَجْري مع خبر اليازجي ما كان من شبلي شميّل أحدِ كبارِ شخصيات عصره ، فإنه قرأ مقدمة ديوان الرافعي (النظرات) حتى إذا فرغ منها قال: لابد أن تكون هذه المقدمة مترجمة!

• ومضى الرافعيُّ على غُلَوَائِهِ في الشعر ، في السنوات القليلة التي تَـلَت ، وأخرج بقيةَ ديوانه الأول ، وصدراً من ديوانه الثاني (النظرات) .

وكان يرى نفسَهُ حينذاك فوق شوقي منزلةً في الشعر ، على حداثة سنه بالقياس إليه ، ومع الأمدِ البعيدِ بين فقر حياته الظاهر ، وغِنَى حياة شوقي ، بالذي يرى في نفسه من اقتداره على اللغة ، وبما لا نشك أنه كان يراه رؤيةً مُبْهمةً أو مستبينة ، أن له عالماً من الشعر ليس لشوقي مِثْلُه : نَحْوٌ من الإحساس بالوجود ، وغوصٌ وتغلغلٌ ونفاذ ، وشيءٌ آخَـرُ لم يكن مع شوقي حياتَهُ كلَّها قطّ[1] .

• ونَحْسَبُ أن أفقاً عظيماً غامضاً من آفاق الفن ، في الوقت نفسه ، كان يُسَاوِرُ قلبَ الرافعي ويتلامحُ لعينيه ، يَقِلُّ بإزائه كثيرُ المنظومِ الذي وُفِّقَ إليه .

---

(١) من عجائب الرافعي ، وهو من شواهد حَيْدَتِـهِ الباطنة ، واستعلائه على نفسه حين يكتب للتاريخ ، مقالُهُ النفيس الذي كتبه عن شوقي بُعَيْدَ وفاته (١٩٣٢) وأنزله فيه منزلته التي لم تزدها مباحث النقد الحديث إلا وَثاقةً وتمكيناً ، وبها رجع شوقي شاعرَ العربية في عصرها الحديث.
ففي هذا المقال نسي الرافعي أنه أَحَلَّ نفسَه في مرتبة فوق شوقي ذاتَ مرة ، حتى كأن ذلك لم يكن منه قط ، بل نسي أنه هو نفسُه كان شاعر الملك قبل سنتين فقط من وفاة شوقي؛ مات هذا كله في نفسه ، وبقيت الحقيقة الخالصة الغالبة ، يَسْتأسِرُ لها أكابرُ الرجال ، يَعْلُونَ بها على عوارض أزمانهم ، ويؤدونها محضةً خالصةً للتاريخ.
ونحسب ـ تماماً على هذا المعنى ـ أن الرافعي ، في قرارة نفسه ، كان مطمئناً ، في منشآته ، إلى قَدْره في الأدب وقَدَره ، على النحو الذي بَـيّناه.
وقد استخرج هذا المقال في عصره دهشة الشعراء أولاً ، أمثال علي محمود طه الشاعر الكبير المجدد ، وكأنما رَفَعَ به الرافعيُّ الحجابَ عن أفق من التناول والنظر ، أقبل به على شوقي وشعر شوقي ، كان قراء العربية بمعزل عنه ، وكان غيباً مُحَجّباً حتى جاء الرافعي فكشفه.

وكما تتكشفُ الحُجُبُ في حياة الكبارِ في التاريخ الإنساني عن أقدارهم المُغَيَّبةِ شيئاً بعد شيء ، هكذا بدأ الرجل يتجه إلى أسلوب من البيان المنثور يُطابق عالمَهُ الباطن، تضيقُ عنه أوزانُ الشعر المعروفةُ وقوافيه : فيه الجلالُ، واتساعُ المَدَى ، واشتباك معانٍ وألوان ، يترادفُ عليها خيالٌ مُصَوِّرٌ ، وفكرٌ متغلغلٌ نَـفَّاذ ، وضربٌ من الوزن الخفيّ يَشِيْعُ في أعطافِ الكلام .

حتى إذا شَرَعَ أواسطَ سنةِ (١٩٠٩) في (تاريخ آداب العرب) كان نمطُهُ في الأدب والفن قد استقر له ، وخَلَصَتْ له الصورةُ التي سيُعْرَفُ بها بعدُ ، والتي ستهذبها الأيام ، متدرجاً بها في أطوار البيان ، لتحيطَ ـ بثراءٍ واقتدارٍ تامَّيْنِ ـ بدقائق المحسوس والمجرد ، وتعالجَ ـ بشدة الأَسْرِ نفسِها ـ ما لابَس الحياةَ ، وتغلغل إليه الفكرُ ، وهَوَّمَ فيه الخيال .

• وبقيت شعبةٌ من قلبه، يأوي إليها القصيدُ العربي الموزون، كان لا يزال يراجعُها في الحين بعـد الحين ، أليست الموسيقى ، وهي في الشعر الصحيح التام عنصرُهُ الفارق ، فَضْلَـةً من المعنى لم تُعبّر عنها الكلمات؟

• واستَنَّ الرافعيُّ في طريقه بعد ذلك ، ومضى على نهجه وأسلوبه ، وتقلّب في معقولات الأدب وأحوالِـهِ ومعانيه طوراً بعد طور ، وكأن عليه وَحْدَهُ عِبءَ أن يَـنْـقُلَ العربيةَ وآدابَها مرةً واحدة ، من حيث انتهت بها عصور فَـتَائها وقوتها وغِناها قبل قرونٍ كثيرةٍ خَلَتْ ، إلى زمن الناس الأخير ، فَيُلْبِسَها لَبُوسَها الأصيلَ والمتجددَ في آن ، تُقبلُ به على العصر بوجهها وبحداثته ، تأخذُ منه وتردُّ إليه ، مزيجاً كريماً محضاً ، نَقِيَّ العنصر ، أنيقَ المظهر والمخبر ، عظيمَ ثراءِ الظاهرِ والباطن .

فكذلك كان يصنع ، مع ما كان فيه من بأساء حياته الخاصة وشَظَفِها وخشونتها ، غَيْرَ ملتفتٍ إلى ما ارتكست فيه هذه العربيةُ قروناً كثيرة بين ذلك ، غَرَبَتْ فيه عن أهلها الأسبابُ التي بها تنهض الآدابُ والفنونُ أو

تسقط[١] ، مرتفعاً بقانون موهبته العظيمة فوق قوانين العصور .

• واستوى الرافعيُّ هكذا على ذروة سامقة من أدب العربية الكامل ، بجِدِّهِ وأسبابِهِ ومواهبِهِ كلِّها ، وَجَلَتْ مُنْشآتُـهُ عن رجلٍ عَجَبٍ: كأنما أَمَّر لغةَ العرب وآدابَهُم على قلبه ، وما نُـقِلَ إلى لسانهم في عصره وقبل عصره ، يأخذُ من ذلك لِـفَـنِّـهِ مرة ، وللناقد الذي هو في بُرْدَيْ كل أديبٍ كبيرٍ مرةً أخرى ، ولمؤرخ الأدب الشامل مرةً ثالثة .

• إلا أن ذلك لم يَطُلْ ، ولم يَـنْـفَسِحْ له في مُدَّتِه ما يُـتَمِّمُ به بعضَ ما شَرَعَ فيه ، وتغلغلَ فيه إلى أغوار بعيدةٍ من اجتلاء أسرار البيانِ العربي[٢] . ووافاه أجلُهُ المكتوبُ وهو أتمُّ ما يكونُ حكمةً ، ورقةَ قلب ،

---

(١) طموح الرافعي الأدبي العظيم هذا هو مَظِـنَّـةُ أن يُوغل في طلب المعاني أحياناً حتى يُغْمِض ، ولكنْ غموضه الذي هو من حسناته ، لا ذلك الذي يُـزْري به عليه شانئه ، أو يَـعْيا بعربيته ، أو يَـقْصُرُ بأسبابه عن تحصيل معناه . وحَسْبُه من المَزِيَّـةِ أن يَـرُوْضَ العربيةَ ـ التي هي بنتُ الصحراء عند بعضهم ـ على العبَارة عن غاية من أبعد غاياتِ الفكر والخيال .
ويبدو ذِكْـرُ (الغموض) كلما ذكر الرافعـي أشبـهَ شيءٍ بـ(فعـلٍ منعكـسٍ شَرْطيّ) عند من يذكره! كأنه (الجفاف) الذي يذكر حين يذكر أسلوب العقاد . وهو عجيبٌ من أحكامهم ، وأعجب منه تعليله بمنطقيته! يرون أنه جاف لأنه منطقي . . ! فيه جفاف المنطق وصرامته . . ! من أجل أن المنطق جاف صارم . . ! ألا يمكن في صِفَتِه ـ مكانَ ذلك ـ أن يكون جامعاً محيطاً لأن صاحبه عالم، ودقيقاً محرراً لأن صاحبه عاقل ، وقريباً سهلاً ، لأنه متمرسٌ حاذق! هذا وكأن أساليب غيره ممن يستعملون المنطق ، ويديرون ما يكتبون على أحكامه ومقتضياته ، رياضٌ نَضِرَةٌ وجناتٌ غنّاء .

(٢) أفردنا ما كان من عمله في هذا الباب خاصة إبرازاً لجلالته وخطره؛ وإلا فإن فيما ترك من سائر آثاره ، فضلاً عما تبدد منها ، لشواهدَ عظيمة المغزى والدلالة على ما انتهى إليه في أدبه .

وإحاطةَ علم ، وسُمُوّ بيان. فقضى وهو في السابعة والخمسين ، وكأنما هو فيما قُدِّرَ له أن يَصنعَهُ في تاريخِ العربيةِ فكرةٌ عاليةٌ وبرهانُها ، فليس إلا أن يتقررَ ذلك حتى يغيب، إذ كانت الحكمةُ في تلك الفكرةِ وذلك البرهانِ ، لا في مَجْدِ الشَّبَحِ الزائلِ نَـفْسِه ، ولا في مبلغ ما يتركه في الفانية من آثار.

● فهذه كلمة غايةٌ في الإجمال في شخصية الرافعي العقلية والفنية ، وفي مَـنَازعه فيما أقبل عليه في حياته الأدبية ، ومبلغ ما آل إليه فيما نراه ، تدل عليه دِلاَلَـتَها العامة ، إذ كان هذا الكتاب الذي نقدم له خاصةً أقلَّ من أن يَدُلَّ عليه دِلالةً جامعة ، لغير ما سببٍ على ما ستراه.

وفي أدبه بعدُ وآفاقِ فكره ودقائق فنه ما يحتمل دراساتٍ كثيرةً جادةً مستوعبة: تُـعَيِّـنُ الجهة ، وتزيح الشبهة ، وترجع بالتفصيل بعد الجملة ، وتكشِفُ الخفيَّ الذي حجبه الظاهر ، وتُدني البعيدَ الذي قَصَّرَ دونَ غايتِهِ كلالُ الخاطر.

العـقاد: ملامـحُ شخصيـة:

وقد كان السياقُ يقضي بكلمة أخرى في العقاد ، لولا أنه أَعْرَفُ الرجلين فـي عصره وبعد عصره ، وأوسعُهما دائرةَ قراء ، ولولا أنه قد كُتِب في حياته وفكره وأدبه ما يشبهُ أن يكون مكتبةً كاملة ، أُفْرِدَتْ فيها له كتبٌ مُطوّلة ، أسهم فيها كبار أصدقائه وأصحابه ، وخاصةُ تلاميذِهِ ومُحِبّيه ، وعامةُ الدارسين من المثقفين وأصحاب الأطروحات[1].

وقد تنفس العُمُرُ بالعقاد دهراً بعد الرافعي[2] ، وخَرَجَ من كثير مما كان يَشْغَلُهُ في معترك الحياة العامة ومطالبها ونَـكَدها أحياناً ، وفَـرَغَ لجملةٍ من

(١) بعض ما خُدم به تراث العقاد جليل القدر عظيم الفائدة ، أرجو أن أعود إلى بعضه في غير هذا المقام.

(٢) توفي الرافعي سنة (١٩٣٧) وتوفي العقاد سنة (١٩٦٤).

مباحث الفكر والأدب العربيين ، اقترب فيها أشواطاً كثيرة مما كان الرافعي أَخْلَصَ له نَـفْسَهُ ، إلا أنه صنع ذلك بأسلوبه ، وبانتحاءاتِ فكره ، وطريقته التي يقبل بها على الأشياء. وهذا إلى ما أسهم فيه من مطالب الفكر والأدب والثقافة في عالم العصر المتجدد.

وتميزت له بذلك كلِّه شخصيتُـهُ الفكريةُ التي عرفته بها الأجيالُ التالية ، فما يكادُ يُعرفُ من كثيرٍ من قديمه إلا ملامحُهُ العامة. وكان في ذلك خيرٌ وبركةٌ عليه وعلى عالم الفكر والأدب ، إذ كان عبثاً لا طائل وراءه أن تَـرُدَّ إلى الحياةِ ما فَـرَغَـتْ منه الحياة ، وما ساغ في زمن بأسبابِـهِ ودواعيه لا يسوغُ في زمن مختلفٍ أخر.

وبعضُ الشخصيات التي تكون مع الأزمنة إبّان انتقالِها وتغيّرِها تمضي مع هذه الأزمنة في جوانبَ تَقِلُّ أو تَـكْـثُرُ من مطالبها الحيوية ، وتتقدمُ بتقدمها ، فإذا ما انقضت تلك المطالبُ ، وتحوّلَ الزمانُ بانقضائها وتحققِها تحولَهُ المقصود ، تحولت شخصياتُـهُ التي من هذا الطراز تحولاً آخَرَ ، تلقاءَ غاياتٍ ومطالبَ أُخَر ، بحسب أحوالِ العصرِ الجديدةِ الناشئةِ ، وبحسب النوازعِ العميقةِ لتلك الشخصيات.

ولا يصادمُ مثلُ هذا التحولِ في شخصية كبيرة كشخصية العقاد ثوابتَ هذه الشخصيةِ وأصولَها العامة. ونَحْسَبُ أن الأصلَ الواحدَ من أصوله النفسية ربما لابس أكثرَ من صورةٍ في حياته العامةِ والعقلية ، وطالعَ الناسَ بأكثرَ من وجه ، دونَ أن يتغير في جوهره تغيراً يُحْسَبُ عليه. وهذا مطلبٌ جليلٌ دقيقُ المسلكِ في حياته العقلية والنفسية والعامة ، نرجو أن يستقل ببيانه وتفصيلِهِ موضعٌ آخر.

شـيء من أحـوال الـعصر ، وما فـي بعـض مصـادره من الآفـة:

وبعد ، فما بنا هنا أن ننتصرَ لواحدٍ من الرجلين دونَ الآخر ، ولا أن

نعتذر عنه ، آثارهما نفسُها تصنعُ ذلك . وقد رَجَعَ الرجلان كلاهما تراثاً من تراث الفكر و الأدب العربيين، يَعْتَـدّ به المعاصرُ، ويَشُدّ به يَـدَه ، ويَحْرِصُ عليه . وعلى أن من عجز الرأي أن يَدْفَعُ امرؤٌ باللفظ المجردِ ليس معه من البَيّنة غَيْرُه، في نُصْرَةِ مذهبٍ يَذْهبُه اليوم ، ينقضُهُ عليه صريحُ الرأيِ في غد .

وقد أسقط الزمنُ كثيراً من تعنّتِ المُحْدَثيـنَ ، ومن انـتصارهم لأنفسهم أو انتصارِ أشياعهم لهم ، في مذاهبهم التي ذهبوها ، بما يكون وما لا يكون .

بل نُسِيَتْ مذاهبُهم نفسُها ، ونُسِيَ ما قيل فيها من حَقِّ القولِ وباطلهِ ، ونُسِيَتْ أسماءُ كثرة ممن أسهم فيها ، وقد كانت ملءَ سَمْعِ الزمان ، فما يعرفُها إلا دارسٌ مُتَـتَبّع ، آخِذٌ نَـفْسَهُ بتحصيل مادة ما كان وتحصيلِ أسبابِه في مَظَانّه؛ على ما في الظَّفَر ببعض ذلك من المشقةِ والعُسْرِ الشديدين ، ولا سيما في مجلاتِ تلك الأيام فضلاً عن صحفها ، وفي المشهور من ذلك فضلاً عن المغمور؛ وفضلاً عما دَرَسَ من الكتب فلا تكاد تُصِيبُـهُ في مكتبة خاصة ولا عامة .

ونَحْسَبُ أن بعضَ مادةِ ما كان قد عَدِمَ البَتَّـةَ بموتِ أصحابِه ، ممن أسهم بنفسه فيه ، أو كان شاهدَ عِيَانٍ له ، عارفاً ببعض خبره وبعضِ بواعثه مما لم تشتمل عليه صحيفةٌ أو مجلةٌ أو كتاب[1] .

(١) ذهب بعضُ خبرِ الرافعي مع ذهاب أهله فلا سبيل إليه: مع جورجي إبراهيم صديقِ شبابِه ، فضلاً عن غيره من عامة أصحابه ومعارفه ، ومع العريان مما لم يثبته في (حياته) ، ومع الأستاذ محمود محمد شاكر ، مما منع منه أو من أكثره.
وكان العُريان شديدَ القُـرْبِ من الأستاذ محمود ، وكأن يَـألَـفُه حين كان في منزله بشارع السبق بمصر الجديدة ، فأي تاريخ من تاريخ الأدب الحديث ، ومنه تاريخ الرافعي نفسه ، كان يتردد بين الرجلين.

بل إن في هؤلاء من كان يَـكْتَتِمُ ما في نفسه فلا يبوح به ولا يظهره: توقياً واحتجازاً ، أو إماتةً لما يُمِيتُ الخاطرَ من باطلِ القولِ ومُنْـكَرِه ، أو غَيْـرَ ذلك .

وقد أدركتُ الأستاذَ محمود محمد شاكر رحمه الله منذ نَحْوٍ من ثلاثين عاماً وهو يأبى إباءً شديداً من أن يتكلمَ في الرافعي ، مع كونـهِ أعلمَ الناسِ به ، وأجدرَهم لذلك أن يتكلمَ فيه ، ومع عِرفانِ الدارسينَ أنه هو مَعْدِن ذلك ومَظِنَّـتُـه؛ فكان يأبى من ذلك أشدَّ إباء ، إلاّ أن يُغْلَبَ على بعضه بصدقِ طَلَبِ من يطلبه منه وإلحافِـهِ فيه ، أو أن يجيءَ من تِلْقاء نفسه عَفْواً في بعض كلامه ، وفي الفَلْتَةِ والنُّدْرَةِ ما كان ذلك .

أصحـاب الرافـعي والـعقـاد:

وههنا بعدُ موضعٌ للقول في ناحيةٍ من تاريخِ ما كان بين الرافعي وأصحابه من جهة ، والعقادِ وأصحابِه من جهة أخرى[1] ، مما أعانت عليه مشاهدةٌ أو سماع ، وشهد له صريحُ نصٍّ أو مأثورُ خَبَر ؛ نرجو أن يقف به القارئ المعاصر على أن ما كان بين القومِ لم يكن ليلاً طامساً لا تُشْرِقُ له شمس ، ولا حرباً بين النور والدَّيْجور ، لا حياةَ لأحدهما إلا بنسخِ الآخر ، لكنها كانت خصومةً فيها من كلِّ شيء ، وكان فيها من قوةِ الأنْفُسِ وضَعفِها ، وحَقِّها وباطِلها ، قبل كل شيء .

وهي دائرةٌ إنسانيةٌ إذن ، تتداخلُ فيها الظلالُ والألوان ، أصحُّ ما فيها من الفِكْر أنه هو طِبَاقُ الواقع . هكذا يعلمُهُ أصحابُه ، وهكذا نرجو أن نؤديَه إلى الخالفين .

فمن صوابٍ خالصٍ لا يَـلْتَبِس ، يأخـذُه آخِـذٌ أو يَـدَعُـهُ ، آخـذاً بحـظّ

(١) ونَحْـوٌ من هذا يقال فيما كان من القـرب القريب بين طـه حسين وبعض كبار أصحاب الرافعي ، نمسك الكلام فيه إلى موضعه إن شاء الله .

نَـفْسِهِ حين يُقْبِلُ عليه ، ظالماً لها حين يُعْرِضُ عنه ، لا ينفعُ في مُدَافعته حِجَاجٌ باللفظ ، ولا تمويهٌ من تمويهاتِ الفِكْرِ.

أو نَـزْغَـةٌ من نَـزَغاتِ الفِكْرِ والرأي ، يَـتَـزَيَّنُ فيها الهوى بكلّ زينة ، وتُمِدُّها النفسُ الطموحُ بكل حيلة.

أو حالٍ من أحوال العصر يَغْشَى أفئدةَ الناسِ بسلطانه ، وَيَلْبِسُ عليهم مذاهبَهُمْ ومسالكَ أنظارِهِمْ ، فعسى ألا يتبينَ الرجلُ حقيقةَ ما يكونُ فيه حتى يفارقَه ، وعسى ألا ينفعَهُ قبل ذلك ذكاءٌ ولا رأيٌ ولا تسديدُ نظر.

فإذا ما انقضى ذلك كلُّه ، ونَسَخَتِ الأيامَ الأيامُ ، واستكانت الفَوْرةُ ، وراجع الناسُ حقائقَهم التي فُطِروا عليها وتمرسوا بها ، وتراجع إليهم من حَيْدَتهم ما ألوت به الحَمِيَّةُ والعصبيةُ ، فهنالك تستردُّ الصورةُ الإنسانيةُ رُواءها النبيل ، وتتراجعُ إليها ألوانُها ومعارفُها الكريمةُ الوسيمةُ ، ويعلو الرجلُ بالأصيل الذي في نفسه فوقَ الزائلِ العارضِ.

محمود محمد شاكر والعقاد[1]:

فأولُ ما أذكرُ من ذلك أن الأستاذَ محمود محمد شاكر ـ ومنزلتُـهُ من الرافعي ومنزلةُ الرافعي منه ما قد عَرَفْتَ ـ كان معجباً بالعقاد إعجابَ مِثْلِهِ بمِثْلِهِ. وقد عَجِبَ أمامي مرةً ممن يريدُ أن يتكلمَ في الرجلين كلامَ مُوَافقٍ أو مُخَالف وليس معـه من الآلـة ما يفي بذلك ، وأنـه رب متعـرضٍ للرافعـي

(١) كان يمكن أن نذكر أولاً صلة ما بين الرافعي والمازني ، حميمِ العقاد وتوأمه الثقافي والروحي حقبةً من الدهر ، والمقدّم لديوانه الذي نقده الرافعي في هذا الكتاب. وهي صلةٌ بليغةُ الدلالة بالِغَةُ الغرابة ، لا سيما إذا وقفتَ على بعض أجزائها وتفاصيلها؛ وعلى أنها غرابة لا تستغرب من الوجه الذي نحاوله في هذا المقام ، ونلتفت فيه إلى ما في الحياة الإنسانية من تداخل المعاني والظلال. ونحن نرجو أن نذكر هذه الصلة في موضع آخر بأظهر مما يمكن أن تُذكر به هنا وأتم.

والعقاد ، واضعٍ نفسَهُ موضع الحَكَمِ بينهما : «ليس من الرجلين في شيء».

وكان عند العقاد من التقدير للأستاذ محمود ما ينبغي له في مِثْلِ ثُقُوبِ عِلْمِهِ وجلالةِ محلِّه. وأحسَبُ أن أول ذلك قد كان بكتاب الأستاذ محمود عن (المتنبي) الذي أخرجه (المقتطف) في عدده الخاص في ألفية المتنبي سنة (١٩٣٦) ، وانتزع من إعجاب عامةِ قراءِ العربيةِ ما قَلَّ أن وقع مِثْلُه لكتاب.

ثم كتب العقـادُ في (الرسالـة) بـعد وفـاة الرافعي سنة (١٩٣٧) ، وكتب فيها محمود شاكر في الـردّ على من رَدَّ على الرافعي بعد وفاته ، وبقي يكتب فيهـا فـي عامـة مطالبه بعد ذلك ، فتقررت منزلتُـهُ في الأدب ، وعَـرَفَ رسوخَـهُ في العلم أثباتُ أهلِ العلم ، ومنهم العقادُ رحمه الله؛ فكـان كثيرَ التسليمِ لـه ، مـع ما يعـرفُـهُ من مودّتِـهِ البـاطنـةِ لــه وإعجابِـهِ بـه.

وقد بلغَهُ مرةً أن للأستاذِ محمود نَـقَداتٍ ومؤاخذاتٍ على كتابه (ابن الرومي) بَلَّغه ذلك بعضُ شبابِ تلاميذه ، فقال له بدارجته ما مُؤَدّاه : «يَـفْعَلُ بالكتاب ما يشاء».

وأَحْسَـبُ أن خبرَ هـذا عند الصديـقِ الأديبِ العـالمِ الثَّبْـتِ الأسـتاذِ عبد الحميد بسيونـي حفظه الله ، بل أحسبُ أنـه هو صاحبُـه ، وهـو ناقـلُ ما نقل بين الرجلين[1].

(١) ويذكر مع هذا ، وهو من بابَتِـهِ ، ما حكاه الدكتور محمود محمد الطناحي عن الأستاذ عبد الحميد نفسه ، من أن العقاد كان يقول: إن مفتاح شخصية الكاتب أو الأديب هو روح الفكاهة عنده ، فلما سئل عن حظ الأستاذ محمود شاكر منها ، قال: (OVER) أي أن حظه منها عالٍ زائد. فهذا يؤيد أن ذكر الأستاذ محمود في مجلس العقاد معروف مأنوس. وخبر العقاد الأول ، إن لم أكن واهماً في نقله ، عظيم الدلالة على صفاء نفسه البالغ ، وعلى اهتزازها لكل معنى كريم.

وينبغي أن تكون هذه المودةُ وهذا التقديرُ مُتَعارَفَيْنِ بينَ أصحابِ العقاد ، في حياته وبعد وفاته ، وقد شهدتُ أنا آثارَه فيما بعد .

بيت محمود محمد شاكر مثابة لأصدقاء العقاد وتلاميذه ، وندوته ندوتهم بعد رحيل أستاذهم الكبير[1] :

فممن رأيتُه من زوار الأستاذ محمود في مجالسه الحافلة في أوائل السبعينات الكاتبُ الكبيرُ والمؤرخُ والناقدُ الأستاذ علي أدهم رحمه الله ، وهو من كبار أصدقاء العقاد وأصحابه .

ومنهم الشاعرُ والكاتبُ والأديبُ عبد الرحمن صدقي ، وهو أحدُ من تولى إدارةَ دارِ الأوبرا بالقاهرة ، ورثاها بكلمة غريبة غداةَ احتراقِها سنةَ (١٩٧٣)؛ شهدتُهُ عند الأستاذ محمود غَيْرَ مَرّةٍ ، وشهدتُ قربَهُ منه ، وانبساطَهُ في مجلسه ، بحيويته الشخصيةِ العجيبةِ، وضحكاتِهِ المُجَلجلة (التي تخفي حزنه الكبير) . وهو أيضاً من كبار أصدقاء العقاد وأصحابه .

وكلاهما رحمهما الله من أعلام الفكر والأدب في العصر الحديث .

ومن هذه الطبقةِ غَيْرَ أني لم أره ، أو أنه لم تتفق لي رؤيتُه ، الدكتور زكي نجيب محمود ، ومنزلتُهُ في الأدب والفن منزلتُه ، فوقَ قَدْرِهِ المعروفِ في الفكر والفلسفة ، غير أن له في (القوس العذراء) قصيدةِ

(١) مع ندوتهم الجامعة التي استأنفها الأستاذ عامر العقاد بعد وفاة عمه ، ثم استأنفها بعد وفاته تلاميذ الأستاذ العقاد. وقد شهدت قبل نَحْوٍ من ثلاثِ سنوات ، في حياة الأستاذ محمود شاكر ، أمسيةً شعريةً في ندوة من هذه الندوات ، كان رئيسها الأستاذ شوقي هيكل.
وقد وقفت قريباً على أن لمحبي الرافعي ندوةً في طنطا ، بلد الرافعي الذي شهد مَغْدَاه ومَرَاحَه ، غير أني لم أقف من خبرها على كبير شيء :

نأتِ الديارُ بأهلها ... وبعلم من سكن الديارا

الأستاذ محمود المعروفةِ كلمةٌ غايةٌ في الجمال ، تُعَدُّ هي ذاتُها أثراً من روائعِ آثارِ الأدبِ والفن. ولعلها أولُ تنويهٍ مستقلٍّ ذي شأن بالقصيدة ، بعد تنويه الأستاذ عادل الغضبان بها في مجلة (الكتاب) نَفْسِها حيثُ نُشِرَت القصيدةُ أولَ مرة[1] .

ثم كان من زوار الأستاذ بُعَيْدَ ذلك الأستاذ عامر العقاد رحمه الله ، ابنُ أخي الأستاذ العقاد ، رأيتُه عنده مراتٍ كثيرةً لا تحصى[2] .

ومنهم الدكتور عبد الفتاح الديدي ، الناقدُ المعروفُ ودارسُ الفلسفة ، وهو من كبار من كتبوا عن العقاد من أصحابه كتباً على حيالها .

ومن أصحاب الأستاذ محمود الآخذين عنه ، وقد كانوا قبل ذلك من شباب أصحاب العقاد غيرُ واحد ، منهم الأستاذ عبد الحميد بسيوني ، وقد رأيتَ خبره آنفاً، صَحِبَ الأستاذ وقرأ معه صدراً صالحاً من العلم[3] .

(١) ثم أفرد لها الدكتور إحسان عباس فيما بعد دراسة جامعة مستقلة .

(٢) وكان قبل زيارته له ، أو معها ، يذكره في كتبه ذكراً فيه مودة.

(٣) قرأ معه (تفسير الطبري) حين كان ينشر أجزاءه تباعاً في (دار المعارف) وقرأه معه ابنُ أخيه الأستاذُ الجليل عبد الرحمن شاكر الكاتبُ المعروف ، وشهد ما شهد من مجالس الأستاذ الأدبية ، وكانت في عنفوانها أيامَ ذاك ، مع رهط من أكابر شيوخ الفكر والعلم اليوم.
ومن آخر ما رأيت الأستاذ عبد الحميد في منزل الأستاذ محمود مقامٌ اتفقت فيه واقعةٌ من الغرابة بمكان.
كانت للأستاذ محمود مائدة منصوبة في غداء كل جمعة ، يحضرها من حضر من أصدقائه وذوي قرابته ، ومن عسى أن يكون طارئاً عليه من ضيفٍ وافدٍ إلى مصر أو مقيم. فقرع الباب مرة أثناء الغداء ، وكان الدكتور الطناحي حاضراً يوم ذاك ، فهتف بغتةً بلا مقدمات ، ولا علم سابق كان يعلمه: عبد الحميد!! وإذا عبد الحميد والله بالباب ، وكان قادماً لتوه من الكويت بعد غيبة طويلة عن القاهرة. =

ومنهم الشاعر الباحث الأستاذ الحساني حسن عبد الله ، صحب الأستاذ سنوات كثيرة ، وقرأ معه وباحَثَهُ وسمِعَ منه .

ثم تفرقت بهم السبلُ بعد ذلك في آفاق الحياة ومطالبها وغريب أحوالها .

وممن رأيت من شباب أصحاب العقاد وتلاميذه ، المقبلين على الأستاذ محمود والآخذين عنه[1] الأستاذان الصديقان الباحثان أحمد حمدي إمام[2] ومنصور مهران كمال الدين ، والأستاذُ الشاعر شوقي هيكل ، حفظهم الله

= وكانت جلسة حافلة بعد ذلك ، كان الأستاذ محمود أكثر من فيها توقداً وحضورَ ذهن، وكان في السادسة والثمانين، قبل وفاته رحمه الله بسنتين. ثم رأيته في المستشفى الذي توفي فيه الأستاذ في مرضه الأخير ، قدم من الكويت عائداً له ، محبةً خالصةً وبراً. نُـقَيِّد بهذا طرفاً من التاريخ ، متضمناً ما شاء الله من الشمائل الإنسانية الحسان.

(١) نريد بالأخذ مطلق السماع من الشيخ دون القراءة المتعينة عليه. ولا يمتنع أن يكون مع السماع قراءة معلومة في كتاب بعينه أو أكثر. وبهذا المفهوم يَسُوغُ مِثْلُ قولِ القائل: تلاميذ العقاد ، فلا يراد منه أكثر من أن تلميذه حضر مجالسه وتخرج بها وبكتبه ، دون أن يكون ضرورةً قد قرأ شيئاً عليه.

(٢) بل كان الأستاذان الحساني حسن عبد الله وأحمد حمدي إمام في اللجنة التي أشرفت على إعداد الكتاب التذكاري المهدى إلى محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين (١٩٠٩ ـ ١٩٧٩) والصادر سنة (١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م) باسم (دراسات عربية وإسلامية). وكان معهما في لجنة الإعداد ، إلى إسهامه في مادة الكتاب العلمية ، الصديق خبير التراث العربي والمؤرخ الدكتور أيمن فؤاد سيد. وكانت للأستاذ شوقي هيكل نفسه ، وهو من أعضاء اتحاد الكتاب بمصر ، مشاركة في الكتاب بقصيدة أحاطت بخلال الأستاذ ومآثره ، جعل عنوانها: (في عرين الحب والعلم والجلال) دراسات: (٦٣١ ـ ٦٣٣).

ونفع بهم. وعلى أنهم من قدماء من رأيت من أصحاب الأستاذ ، وهم آخِرُ من أذكر في هذا المقام.

هـذا الكـتـاب:

طارت للكتاب شهرةٌ واسعةٌ في دوائر الأدب والنقد منذ نشر قبل سبعين عاماً ، بشهرة طرفيه: الرافعي والعقاد ، ثم قلّت نُسَخُه بعد ذلك في أيدي طلابه والعارفيه.

وعَلِقَ به صيتُ كتابٍ (سيء السُّمعة) ، وقد كان تخافت بهذا أناسٌ وعالَنَ به آخرون ، ثم رجع سحابةً غامضةً تُطيفُ به على الأيام.

وائتلف عليه ، بلا اتفاق ، خصومُهُ وأشياعُهُ ، وتناصرت عليه مُضْمراتُ الأنفس وظروفُ الزمان[1].

وفعلت المجاملةُ فِعلَها: مجاملةُ العقاد وقرائه في حياته ، ومجاملةُ أصدقائه بعد مماته ، فما يتحدث عن الكتاب أصدقاؤه ولا أثباتُ نقاده إلا على استحياء؛ رأوا فيه جوهرةً كريمة لابسها من مُرِّ القول ما لا يشاكلها ولا يشاكلُ صاحب الكتاب[2].

---

(١) كان العقاد حين كُتبت المقالات كاتب (الوفد) الأول ، وكان الوفد هو الأمة ، أو هو سوادها وجمهورها؛ فكان الطعن عليه ، حتى في خاصٍّ من أمره كمَلَكاتِهِ وقُدُراته في الأدب والفن ، خروجاً على الأمة ، ومروقاً من الوطنية. وقد قرأت المقالات مع ذلك على نطاق واسع ، وراجت (العصور) بسببها رواجاً كثيراً ، يَسَّرَ أن تُخرج تلك المقالات في أعقاب ذلك مجموعة في كتاب. ثم خرج العقاد على الوفد بعد ذلك.. ! وكانت للرافعي معه جولة أخرى.

(٢) ذهب هذا المذهب غيرُ واحدٍ من كبار أصحاب الرافعي ، وذهب إليه مِمَّنْ تأخر زمانُـهُ عنه الناقدُ الكبيرُ والشاعرُ الأستاذ كمال النجمي رحمه الله ، وكان كثيرَ الاعجابِ بالرافعي ، مع إعجابه بالعقاد ، وكان =

ومكّنَ لهذا قِلّةُ نُسَخِهِ في الأجيال التي تلت ، فما تُتَصَوَّر حقيقتُهُ إلا من وراء ظلال.

• والأمرُ بعدُ أهونُ من ذاك ، والقولُ فيه أيسر وأظهرُ ، وليس إلا أن يضعَ المرءُ نَفْسَهُ موضعاً من نفسِهِ ومن حقائق مطالبه ، ثم هو مُخَلًّى له من بعدُ في أيِّ سبيليه أخذ.

والأسبابُ التي بها يقبل القارىء على الكتاب ، منصفاً في إقباله ، وبلا حرجٍ في ذلك كثيرٍ ولا قليل = تَتَنزلُ عندنا منزلةَ البدائهِ والمُسَلّمات ، وعند كل قارىء جادٍّ يقرأ ليعلم ، فَتَخْلُصُ له بجدّه وبما عَلِمَهُ شُعبةٌ من الحق لا من الهوى ، فبالحق الذي خَلَصَ له يَحكُم ، وبه يجتبي إليه صالحَ القولِ ، ويَطْرَحُ مرذولَهُ وفاسده.

= كريم الخلق ، رَضِيَّ النَّفْسِ ، رقيقَ الحاشية ، فكان من رأيه رحمه الله أن يُجَرِّدَ ما في الكتاب من النقد، دون ما لابسه من سائر أغراضه ومعانيه.
ونحن نرى هذا من جهة ، ونخالف عنه من جهة أخرى:
نراه ونصدقه من أجل أنّا نرى أنه هو الأصل في كتابة الكاتب حين يكتب ، بل هو الأصل في سلوك الإنسان كله ، في حال الكره وفي حال الرضا ، وأن الأشبهَ به والأكرمَ له أن يُنْصِفَ من نفسه كما يُحِبّ أن ينصفَه الناسُ من أنفسهم؛ نعم؛ وكرامةٌ للرافعي في الوقت نفسه أن تتأخر رتبةُ بعضِ ما يكتبه عن بعض.
ونُخالِفُ عنه من قِبَلِ أنه وثيقة من الوثائق الأدبية في العصر الذي كُتب فيه؛ ومن قِبَل أنه بجملته وثيقةٌ لا غنى عنها في درس الرافعي نفسه إنساناً وأديباً ، وتَبَيُّنِ ظلالِ شخصيته في أحوالها كلِّها. وهذا فوق أنّا لا نبالي ، ونرجو ألا يبالي القارىء ، لا في هذا الكتاب ولا في غيره ، بكل ما يَغْمِطُ حقاً أو يَرْتكسُ في هَوًى ، خالصاً الصوابُ على كل حالٍ لأهله ، حيث استقلّ بهم فريق ، أو احتازتهم إليها نِحْلَة ، أو تناءت بهم دار.

وهذا عامٌّ لا شُبهةَ فيه بالقياس إلى كل قارىء في كل زمان ، أَوَلَيس الأصلُ في إنسانية الإنسان أن يكون في أمره كلِّه كذلك؟

قدماء قراء الكتاب ومحدثوهم واستقواء الملكة الناقدة بكرور الأيام:

إلا أن ههنا أشياءَ هي أَدْخَلُ في حال هذا الكتاب خاصة ، وفي حال قدماء قرائه ومُحْدَثيه ، لا تزدادُ على الأيام إلا ظهوراً وانكشافاً ، يَخْلُصُ بها جوهرهُ ، وينتفي عنه ويسقط من تلقاء نفسه كلُّ ما أخرجته الحفيظةُ ، أو أَنْشَبَ فيه الوهمُ؛ يطرحهما جميعاً قارئه العارفُ الجاد ، الطالبُ للصواب وَحْدَه ، غَيْرُ المتتبعِ للعَثَرات.

• فمن ذلك أن القارىءَ المعاصر بَنَجْوَةٍ مما كان يُطيفُ بقارىء الكتاب القديم ، ويَستبدُّ بجانب من طاقة فكره ونفسه ، كان جديراً أن يرتفق به في حُكْمِهِ على ما يحكُمُ عليه ، وفي قدرته على أن ينتفع به؛ أَحَلَّهُ هذا المحلَّ مُشَايعةٌ في موضعٍ مكينٍ من قلبه لرجل أو مذهب ، لا يَعْرِفُ حقيقتَها ولا مبلغَ سلطانِها إلا عارفٌ بتلك الأيام.

ومن حالِ المحبِّ أنه (يتماهى) مع من يحب ، أي يتوحدُ بالعاطفة معه ، فإذا ما عَرَضَ له عارضٌ فيه شَبهةُ ضَيْمٍ لمن يحب انتصر له ، وما به إلا أن ينتصر لنفسه. وهذا من مَداخل الغلطِ الخفيةِ إلى النفس ، وهو من غرائب النوع الإنساني ، ومن وجوهِ ضعفِهِ المفطورةِ فيه. ولو كان أصلُهُ الذي يَصْدُرُ عنه الصوابَ نَفْسَهُ ، لا أشباحَهُ الحاملةَ له من الناس ، ما شُبِّهَ له فيه ، ولانتصرَ له حيث كان ، وأضافه إلى من نَطَق به ووُفِّقَ إليه.

ولعلي أرجعُ إلى حديث الأستاذين محمود شاكر والعقاد رحمهما الله ، فأحدثك حديثَ نسخةِ الأستاذ محمود من كتاب أستاذه وصديقه الرافعي ، وما كان له فيها من التصويب والرأي ، وأني أحسبُ أن هذا قد نُمِي إلى

العقاد ، نَمَاه إليه صديقٌ لهما جميعاً ، فكان من أسبابه العميقةِ لانعطافه إليه[1].

خصلةٌ أخرى من خِصالِ النفسِ الإنسانية ، مشهودةُ الآثار في كل زمان ، تأتلفُ فيها الفطرة القويمةُ وما فيها من معنى الشكر ، وغريزة الدفاع عن الذات ، تَهَشُّ معهما إلى من ينافح عنها ، ويُظهر من حقها.

• ومن فَرْقِ ما بين قارئيه القديم والمُحْدَثِ أن هذا القارِئَ الحديث أكثرُ علماً من سَلَفه ، وأبصرُ بمواقع الصواب ، لاتساع المَدَى أمامه بكثرة المبذول من مذاهب الشعراء والنقاد ، وكلامِ أهل العلم والفن في كلّ علمٍ وفن.

وباتساع العلم ، مع صدقِ التَّوَجّه ومع جَوْدة النظر ، يَتَرَشّح طالبُ

(1) كان العقاد مرهف النفس إلى حد بعيد ، خلافَ ما يبدو لأول وهلة من شدته الظاهرة وصرامته. ولو لم نعرف هذا بالنص من أصحابه لعرفناه بالنص وبالتأويل من آثاره. قال من أبيات محكمة تامة الدلالة على خلائقه ، جعل عنوانها: نحن وزماننا ، إلى المفكرين:

إذا استصعبت نفسي وضاقت فِجاجُها
ولاحت لمرأى العين كالجبل الوَعْرِ
فلا تنكروا منها جفاءً ووحشةً
ولا ترجموها بالقبيح من الكِبْرِ
فتلك ظلالُ الناسِ فيها ودونها
طبائعُ كالماءِ النَّمِيْرِ إذا يجري
ولولا صفاء الماء ما عَلِقَتْ به
مَشابِهُ من أوعار شطآنه الغُبْرِ

(ديوانه: ٢٥٨ ، طبعة المقتطف والمقطم: ١٣٤٦ هـ ـ ١٩٢٨ م)

لا جرم كان صادق التأثر والاستجابة لكل معنى فيه مودةٌ وإنصافٌ له ، أَوَليس هذا ـ مرة أخرى ـ هو الأصل في الخلائق الإنسانية ، والأشبه بإنسانية الإنسان؟

الحق فيما يُزَاوِلُـهُ لِدَرْكِ الحقّ ، فإذا ما أدركه قضى به ، وحكم حكمَهُ المبرأَ من الهوى ، فَزَكَتْ به أنفسٌ ، وذَكَتْ فُهوم.

قيمـة الكتـاب ووجـوه الانـتـفـاع بـه:

• والكتابُ بعد كل هذا ، بأطرافه ومقدماته وما اشتمل عليه ، فصلٌ من فصول الأدب الحديث ، لا بد للدارس والمؤرخ منه.

• وهو فصلٌ بارزٌ من فصول أدب الرافعي ، وشاهدٌ دالٌّ بليغ الدِّلالةِ على رسوخ تكوينه العلمي في كل ماله صلةٌ بالأدب وموادّه وأدواته ، فضلاً عما سوى ذلك من أنحاء الفكر ووجوهِ النظرِ والعرفان.

• ثم هو في فن من النقد نموذجٌ من أعظم نماذجه قديماً وحديثاً ، بمعزلٍ عن لغته التي كُتب بها ، والظروف والأسبابِ التي لابست وضعه وتأليفه. ارتفع فيه الرافعيُّ ، وفي نظائرَ له أُخَر ، إلى أفقٍ كاد ينفردُ فيه بين معاصريه ، ولم يَكَدْ يضارعُهُ فيه أحد ، إلا ما كان من تلميذه وصديقِهِ العلامةِ محمود شاكر رحمه الله ، في غير عملٍ من أعمالهِ المنشورةِ وغيرِ المنشورة ، وفيما أخرج من نص أو نَفَذَ إلى فكر.

• ونَعْرِضُ ههنا ، تماماً على ما قدمناه ، لأشياءَ تتصل بالكتاب من غيرِ وجه ، نرجو أن يستضيء بها شيئاً بين يدي قارئه المعاصر. نقتضبُ القولَ فيها اقتضاباً؛ إذ كان تفصيلها الجامعُ واستيفاؤها على وجوهها أكثرَ جداً من أن يتسعَ له ويحتملَهُ تقديمٌ مجملٌ كهذا التقديم. فوق ما في استدعاء تفاصيلها الآن ما فيه من التعنت وإثارة الحفائظ[1] ، وهو

(1) هذا صحيح في هذا المقام خاصة ، فإذا ما رجع الدارس إلى التأريخ الشامل للقضية لزمه من الإحاطة بالتفاصيل واستيفاء الأصول ما لا يكون التاريخ تاريخاً إلا به. وتستأخر الحفيظةُ حينذاك ارتهاناً لمنهج الفكر وتَكَرُّم النفسِ في آن.

ما تحاميناه بجهدنا في هذه السطور، ورجونا أن يتحاماه كلُّ من يقف عليه(١).

ومادةُ مِثْلِ هذا التفصيلِ الجامعِ موفورةٌ مشتبكةٌ مترامية، بعضُها مُعْرِضٌ قريب يعرفُه كلُّ أحد، وبعضُها ناءٍ قَصِيٌّ. وهو معروفٌ بالنص عليه مرة، وبالنظر والاستنباط مرةً أخرى، وبالتأليف والتقريب وضمِّ شيء إلى شيء مرةً ثالثة.

وهو مُفَرَّقٌ في مُدَوَّنات العصر على اختلاف فنونها وأنواعها، وفي مأثوراته الشفوية، وجِدُّ قليلةٍ هي الآن. وهذا فوق أن بعضَها قد هَلَكَ البتةَ برحيل أصحابهِ كما أسلفناه، فما إليه من سبيل.

ثم هذا الذي نذكره: بعضُهُ معروفٌ متداول، وبعضُه يقفُ عليه عامةُ قرائه لأول مرة فيما نحسب.

وجـوه الـقول فـي الـكـتـاب:

• فنقولُ في تاريخ الكتاب وسياقه، وعنوانه، ونسبته، ومادته، ولغته، باقتضابٍ في هذا كلِّه كما تقدم.

(١) لا نريد بهذا خُلَصَاءَ العقادِ وأثباتَ أصحابه، ومن إن لم يَقُلْ بعلم وَسِعَهُ الصمتُ، فَحَفِظَ الحُرْمَتين ورَعَى الذِّمَامين: حُرْمةَ صاحبه وذمامَه، وحُرْمَةَ العِلْمِ وذمامَه. وثَمَّ وَجْهٌ آخَرُ نراه قريباً سهلاً على من أَخَذَ نَفْسَهُ به، وفحواه، في العلائق الإنسانية، التحقق بالنَّصَفَةِ وصدق المخالطة، فأنت تؤدي إلى صديقك حقَّهُ إذا صَدَقْتَهُ، وتُنَحّي عنه العيبَ، وتَكْشِفُ الأذى.
ومن أعجب ما وقفنا عليه وأكرمه، لا في قلة الجزع من تنبيه المنبه على الغلط والدال على الصواب حَسْبُ، بل في طلب ذلك من أهله وشكرهم عليه ونسبته إليهم حين يدفعونه إليه = ما كان من الأستاذ العلامة محمود محمد شاكر رحمه الله، صنعه في غيرِ كتابٍ من كتبه، ورأيناه منه عياناً مراتٍ كثيرةً لا تحصى.

خبـر الـكـتـاب:

ينعقد بالكتاب وما اتصل به فصلٌ هو أشهرُ فصولِ النزاعِ الطويل الذي شَجَرَ، بأسبابه المختلفة، بين الرافعي والعقاد: كفاحاً مرة، وغمزاً وتعريضاً مرة أخرى؛(١) وبقي نحواً من عشرين عاماً، فلم ينته إلا بوفاة الرافعي عام (١٩٣٧). بل إنه رجع عَلَماً على هذا النزاع، فلا يكاد يُذكرُ أحياناً من فصوله غيرُه، إذ كان آيةَ تحاملِ الرافعي عند قوم، يغتمزون به عليه، وآيةَ إحسانهِ واقتداره عند آخرين.

• والكتابُ في الأصل كلماتٌ مرسلةٌ لا فصولٌ مرسومةٌ من كتاب. بل هي لا تبلغ أن تكونَ مقالاتٍ من الطراز الذي كان يُجَوِّدُه الرافعي، ويَحْشُدُ له من المادة ومن وجوه الرأي ومن صنعة البيان ما يكاد كلُّ مقالٍ يكون به كتاباً على حياله؛ إذا أنت فَصَّلْتَ مُجْمَلَه، وفَرَّعتَ على أصوله، وبَيَّنته بالشواهد والأمثلة، رجع كتاباً مستجمعاً لعناصره، مستوفياً بالكلية لاسم الكتاب.

وكانت هذه الكلماتُ تنشرُ تباعاً في مجلة (العصور) سنة (١٩٢٩). ثم نشرها صاحب (العصور) حين رأى إقبال القراء عليها، مجموعةً في كتاب، صدر عن دار العصور نفسِها سنة (١٩٣٠).

إسمـاعيـل مـظهـر:

وإسماعيل مظهر، صاحب (العصور)، رجل كبيرُ القَدْرِ عظيمُ المَحَلّ في النهضة العربية الحديثة، أنفق حياتَه عاملاً في خدمة هذه النهضة.

(١) وكان المازني طرفاً خفياً فيها، صديقاً للرافعي أو مخالطاً له تارة، ومناوئاً على استحياء تارة أخرى. كان عصراً عجيباً فيه من أحوال العلائق الإنسانية كل شيء. أنفق زكي مبارك مساءه ذات مرة مع الرافعي، وكتب غَدْواً يهاجمه.. على طريقته!

• كان من دعاة الفكرِ العلمي الخالص ، ترجم إلى العربية (أصل الأنواع) لداروين ، وغيره. وخدم اللغةَ بما ترجم إلى العربية ترجمةً علمية دقيقة ، ثم بمعجمه الجليل ثنائي اللغة . وقد كان بما صنع من أجلاء من ضمهم مجمعُ القاهرة إليه .

وهو وإن كان يخالف الرافعيَّ في مذاهب الفكر إلا أنه كان يوافقه في صدق التوجه ، وفي التوفر العلمي الخالص على غاياته ومطالبه. وكان الأستاذ محمود محمد شاكر كثير الاعجاب به ، وبما كان من كفاحه ومصابرته في حياته العلمية؛ سمعتُ هذا بنفسي منه. وقد كان من أمره معه أن اشترى منه امتياز مجلته بعد أن توقفت ، فأصدرها سنة (١٩٣٨) شيئاً يسيراً ، ثم توقفت؛ وطفِئَ بتوقفها معنىً في نفسه . . وتولدت حسرة.

• ولم تكن هذه الكلماتُ أولَ ما نشر في (العصور) حاملاً هذا الاسم (على السفود) ولا كان العقادُ أولَ من كُتِبَتْ فيه ، تقدمتها بضعُ مقالاتٍ أنشأها الرافعي في نقد شيء من شعر عبد الله عفيفي ، وكان محرراً للعربية في الديوان الملكي ، وإماماً للملك فؤاد. وكانت للرافعي أسبابُـهُ في كتابة ما كتب نقداً لشعره ، فكتب مقالاتِـهِ تلك ، ونشرها أغفالاً هكذا بلا توقيع ، ثم توقف.

• من أعجب ما كان من أمر الرافعي فيما كتبه في شعر العقاد وبعضِ كلامه في فلسفة الجمال = أنه لم يكن في نيته أن يكتبَـهُ أصلاً ، ولا حدثته نفسُهُ به ، في الظرف الذي كتبه فيه على الأقل ، مع تَغَيُّظِهِ على العقاد ، واجتماعِ الأسبابِ الحاملةِ له على أن يكتب في نقده وفي التشعيث منه .

وكان حين نَـفَضَ يده من مقالات السفود الأولى في عبد الله عفيفي خاليَ البال من أنه يوشكُ أن يرجعَ إلى مثلها في غريم له كبير.

• أعْجَبَ صاحبَ (العصور) مذهبُ الرفعي فيما كتب ، ولعله أعجبه من وراء ذلك رواجُ مجلته به ، فسأله أن يمضي في مقالاته بالعنوان نفسه فيمن

شاء من الشعراء ، فحينئذ حدثت الرافعيَّ نفسُهُ حديثَها المُعْتَزِم ، وجذبته أسبابُهُ كلُّها إلى رأي فأمضاه ، وجلس إلى مكتب في العصور ، فكتب الكلمةَ الأولى في (السفود) الجديد ، رَجْعَ صَدًى غائراً بعيداً ، لأشياءَ كان قد بدأها العقاد قبل خمسةَ عَشَرَ من الأعوام(١) .

ومثلما كانت مقالاته الأولى في عبد الله عفيفي بلا توقيع ، هكذا كانت أيضاً كلماتُه المُستأنفة ، إلا أن مادتَها وطوابعَ أسلوبِ صاحبها التي لا تتخلف دَلتا عليه ، وعرف الناسُ ، أعني العارفين بالأدب منهم ، أن ذلك «الإمام من أئمة الأدب العربي» الذي كانت الكلمات تضاف إليه لم يكن إلا الرافعيَّ نفسَه. وسار ذلك واستفاض ، وتواتر القول به ، حتى صار كالنص في نسبة المقالات ـ مفترقة ومجتمعة ـ إليه(٢).

فهذا ما كان من خبر الكتاب في الجملة ، وهذه أَوَّلِيَّـتُـهُ وسياقُ نشره على المعروف المشهور. وقد بقيت أشياءُ نستأنف بها القولَ من حيث انتهينا إليه في أمر نِسْبَتِـهِ آنفاً ، فنقول في هذه النسبةِ وفي مكان أسلوبِ الكتابِ منها ، وفي أسلوبه ذاتِـهِ من جهة دِلالته على حال صاحبه حين اصطنعه ، ثم في مادة الكتاب النقدية ، وهي العنصرُ الأجَلُّ فيه.

ما عسى أن يكون لصاحب العصور من مادة في الكتاب:

• لم يكن ليداخلَنا ريبٌ في صحة نسبة الكتاب إلى الرافعي ، ولم يكن ذلك ليداخلَ كُلَّ قارىءٍ له ، عارفٍ ـ من كَثَبٍ ـ بملامح أسلوبه الظاهرة

---

(١) جرينا هنا مع ظاهر المنقول من خبر الرافعي في أولية ما كتب من السفود كيف كان ، وإلا فإن في تأمل سياق الأشياء موضعاً للتوقف: هل كان خاطراً خالصاً للرافعي خطر له فأمضاه ، أم أنه كان اقتراحاً من صاحب العصور وافق هواه؟

(٢) ثم جاء جاء النص الصريح بما أذاع تلاميذه وخاصة أصحابه من أمره بعد وفاته ، وخَلَص الكتاب لصاحبه ، منسوباً نسبة صريحة إليه.

والباطنة؛ على الرغم من «تنكير أسلوبه» الذي ذكره ذاتَ مرة. وما تنكيره إياه إلا إهمالُ صنعتهِ البيانيةِ فيه، التي عُرِفَتْ به وعُرِف بها، وإهمالُ نَسَقِهِ العقليّ العجيبِ المُلابسِ لتلك الصنعة حين يَجِدُّ في مطالبه الكبار، وإرسالُ القول من وراء ذلك عفواً، بلا تكلفٍ له ولا صنعةٍ فيه، وسياقَتُهُ سياقةَ حديثٍ مرسلٍ دعتْ دواعٍ إلى تقييده وتدوينه، كما ذكر هو نفسُه أيضاً في غير مقام[1].

فلم يكن ليداخلنا ريبٌ إذن في نسبة الكتاب إليه، على الرغم من «تنكير» (معارفه!)، إلا أنها نسبةٌ على التغليب، وهي نسبة عامةٌ لا مُستغرِقةٌ فيما نذهبُ إليه. ونحن نذكر هنا جانباً من ذلك نكاد لا نرتاب فيه، أو يقومَ الدليلُ بالنص على خلافه.

• يعلمُ علماً يقيناً كلُّ من عَرَفَ سيرةَ الرافعي في حياته وأدبه، وعَرَفَ شمائلَه العقليةَ والفنية، أنه كثيرُ الإطلاع على الجيد المترجَمِ إلى العربية، كثيرُ التدبرِ له والانتفاع به. وهو جانبٌ يجهله أو يتجاهله من لا علمَ له، أو لا أربَ له في إظهاره، يَطْمِس على مغزى التجديد في فكر الرافعي وأدبه، ويُرِي أنه أثرٌ من آثار الماضين انحدر غلطاً إلى العصر.

في الكتاب نُقُولٌ من كلامِ الأوربيين في غير ناحية من نواحي الأدب والفلسفة، تَسْهُلُ إضافتُها إلى أن الرافعي وقف عليها فيما وقف عليه مترجماً في مظانّه، إلا أن شيئاً يَحِيْكُ في الصدر، بل يَرْجُحُ رجحاناً مُبْهماً، أن صاحبَها هو اسماعيل مظهر نفسُه صاحبُ (العصور)، رَفَدَ بها الرافعي، تَوْفيةً لمادته، وتعزيزاً لأغراضه التي أدار عليها مقالاته،

(١) قال مرة: «وقد كتبنا مقالات السفود كما نتحدث» كما جاء في مقدمته هنا، وقال مرة أخرى: «كتبتها كما أتكلم» وهذا لا شك فيه عند من يعرف نهجه فيما يكتب، وسنعود إليه بعدُ.

واستظهاراً بها في جانب من أكبر ما يَعْتَدُّ به العقاد في تكوينه الثقافي، أو يَعْتَدّ به له مؤيدوه آنذاك، هو جانبُ الاطلاع على مذاهب الأوربيين ومذاهب الغرب عامة في مسائل الفكر والأدب وسائر آثار الحضارة والاجتماع، يَنْفُذُ بها إليه من الوجه الذي يستقوي عند عامة القراء به.

فنحن نرى أن بعض ما جاء في الكتاب من ذلك إنما هو من عِلْمِ اسماعيل مظهر، إذ كان هو مَعْدِنَهُ ومَظِنَّتَهُ، إلى أن يقومَ الدليلُ على أنه مما تُرجم قبل كتابة هذه المقالات أو على إبّانها، وكان بحيث يقف الرافعي عليه.

• وعلى أن هذا ـ على فرض صحته[1] ـ ليس بقادحٍ في أن جُملةَ الصورة وعمودَ المذهب للرافعي وحده، وسترى في خواتيم الكتاب مناقشةَ الرافعي للعقاد فيما فهمه من فكر شوبنهور، مُعَوّلاً في مناقشته على ما ترجمه العقاد نفسُه من فكر الفيلسوف، وهذا فضلاً عن الجانب اللغوي والأدبي، وهو أكبر جوانب الكتاب وأجلُّها، وهو الأصلُ فيه، إذ كان قد وضعه لنقد ديوان العقاد قبل كل شيء، فتم له ذلك من الوجه الذي أراده، وبأدواته التي لا يكاد يدانيه فيها أحد على ما ستراه.

حال الرافعي حين كتب (على السفود):

• وأسلوبُ الكتاب الذي كتب به أثرٌ من آثار مزاج الرافعي الذي يَصْدُرُ عنه الرافعيُّ حين يكتب، مصدقاً ظاهرُهُ باطنَهُ، ومؤتلفاً فيه فكرُهُ واعتقادُهُ ولحظتُهُ التي هو فيها جميعاً؛ وهو شاهدٌ من شواهد صدقِهِ عامةً في الحياة وفي الأدب، كما يعرفُهُ العارفُ بآثاره وبمناسباتها، وموافقةِ مذاهبِهِ فيها كلّها لمذاهبه في الأدب والفن.

(١) وهو من النزارة، على فرض صحته، بحيث تغمره مادة الرافعي، فلا يكاد يُشْعَرُ به. وإنما توقفنا عنده استبراء لحق التاريخ في كل ما يقبل أهل العلم عليه؛ وهكذا رجونا أن نصنع في مقامنا هذا كله.

وصدقُهُ هذا الذي نذكره هنا غَيْرُ غُلُوّه حين يغلو ، وقلما وقع له ذلك . ومن هذا القليلِ ما كان منه في هذا الكتاب . وعلى أنه حتى فيما يغلو فيه ، يذكر أصلاً من الفكر أو جانباً من الواقع يبني عليه مذهبه ، ثم يمضي به إلى آخر أشواطه ، مُغْفِلاً ما سواه مما يَصْدُقُ به الحكمُ صدقاً مطابقاً لواقعه . يذهب في هذا مذهبَ القولِ المشهور: «رضيت فقلت أحسنَ ما علمت ، وسَخِطْتُ فقلتُ أسوأَ ما علمت».

وهذه خَصْلَةٌ على كل حال لا ينفرد بها الرافعيُّ وحده ، للعقاد مِثْلُها ، ونخشى أن نقول: وأشدُّ منها، بل إنه فيما يتعلق بالرافعي هو الذي اجترحها أولاً وسَبَقَ إليها ، في (الديوان) وفي غير (الديوان) كما سنذكره لك[1] .

• كتب الرافعي في خاتمة مقدمته للسفود: «**وقد كتبنا مقالات السفود كما نتحدثُ عادة ، لهواً بالعقاد وأمثاله ، إذ كانوا أهونَ علينا وعلى الحقيقة من أن نتعب فيهم تعباً أو أن نصنعَ فيهم بياناً**».

وهذا لو قاله غيرُ الرافعي لم يكن محتاجاً في فهمه إلى غير ما يُـؤَدّيه ظاهرُ ألفاظِه، إلا أنه بالقياس إلى الرافعيّ جِدُّ مُحْتاجٍ إلى المراجعة والتأويل.

أمزجة أصحاب الفنون وخصائص أساليبهم:

تصنع كلُّ شخصية كبيرة في الأدب والفن قانونَها الباطنَ الخاصَّ بها ، ثم تَسْتأسِرُ له[2] . قانوناً غالباً فيما نرى لا يكاد يتخلف .

(١) أردنا ما كان يكتبه أحد الرجلين في صاحبه على طريقة التسفيه والاستخفاف. أما أولية ما كتب بإطلاق فلتحقيقه موضع آخر.

(٢) من فروع هذا الأصل ما هو معروف في عالم الفنون من أن صاحب الفن ربما قلد أحياناً نفسه. وهذا مبني على أن مستوى فنياً بعينه مختَزَنٌ في واعيته الباطنة ، وأنه لم يستطع في لحظته تلك أن يتجاوزه ، فلم يَبْقَ في يده إلا أن يقلده. وعلى أن هذا بعينه ، من وجه آخر ، شاهد على تراجع الطاقة المبدعة عند الفنان.

تصنعُه بغريزتها الفنيةِ المفطورةِ التي ستكونُ ، بخاصّ تجلياتها ، ملمحَها العميقَ الفارقَ فيما بعد؛ تمتاز به من كلّ شخصيةٍ أخرى أصيلةٍ في الفن أو غير أصيلة .

وبهذه الغريزةِ تعملُ الشخصيةُ عملَها الواعي وغيرَ الواعي ، وإليها تجذبُ من مفرداتِ الوجودِ وأشيائه كلَّ ما يشاكلُها ويكونُ منها بسبب ، الوجودِ كلِّه ، الظاهرِ والباطنِ ، المنظورِ وغيرِ المنظور ، لا نضيف الحياةَ إليه وصفاً فارقاً له ، إذ كان في كلّ وجودٍ بالقياس إلى صاحب الفن نوعُ حياة، يخالطُهُ وينجذبُ إليه بضربٍ من المخالطةِ خفيٍّ شاعر ، وبمزاجٍ وأسلوب؛ ويكون له، بِوِرْدِهِ وبما صَدَرَ به، مزاجٌ في الفنّ الناجزِ وأسلوب.

ومن الصورة الظاهرةِ المصنوعةِ صنعةً بعينها تُدْرَكُ وتُمَيّز ، والروحِ الباطنِ الخفيّ الذي يُشِيعُ في الصورةِ سِرَّها وامتيازَها وخصوصيتَها = يأتلفُ العملُ الفنيُّ الكامل ، الدالُّ على صاحبِهِ دِلالةً كاملة.

فإذا ما استوت لصاحب الفنّ صورةُ فنِّه ، أو صورةٌ منه فيها معنى التمام فذلك أفقٌ لم يَعُدْ في طوقه أن يتخلفَ عنه ، تنازعُهُ نفسُهُ ، أعني فَنَّـهُ ، إلى أفقٍ فوقَه؛ إلا أنه وقد بلغه صار أدنى مراتبِه ، وأولاه بها وأولاها به ، فما في طوقِهِ أن يتخلفَ عنه .

اعتداد الرافعي بما تهيأ له في أدبه ، وحرصه عليه:

والرافعي ـ أديباً عبقرياً في الطبقة الأولى من أدباء العالم العظام ـ كان شديدَ الوعي بما تهيأ له في أدبه بالقياس إلى آدابِ العربيةِ ، وإلى المصطفى من آداب العالم[1] لا يرتابُ فيه ولا يتردد .

(١) لا نشك طرفة عين: لا في قدرة الرافعي ولا في قدرة كل أديب مفكر على أن يستدل بما عرف من آثار الفكر والأدب في كل عصر ومصر على ما لم يعرف ، وأن يُعيّن طبقةَ ذلك تعييناً مقارباً ، يقيس إليه ما تهيأ له ، ويعرف=

لا جَرَمَ كان شديدَ الغيرةِ على ما تهيأ له ، شديدَ المحاماة عليه أن يداخلَهُ ما يَتَـحَيَّفُ منه ويَنْزِلُ به عن مرتبته ، ولاَ جَرَمَ كان أعظمَ شيءٍ طموحاً إلى أن يتجاوزَه ويرتفعَ فوقَه ، بَلْهَ أن يساويَهُ وألا يتخلفَ عنه .

وقد كان لهذا أثـرُهُ البليغُ في قلة ما نَشَرَ بالقياس إلى كثرةِ ما كَتَب ، منشوراً في حينه[1] منتزعاً إعجابَ معاصريه ، أو مطوياً غير منشور؛ ومنسوباً نسبةً صريحةً إليه ، أو مُغْفَلاً فيه اسمُهُ ، أو منسوباً إلى غيره ، من محترفٍ أو صديقٍ أو قريب .

ولو أن متأولاً ذهب يتأوّل ما كان من أمره في إهمال كثيرٍ مما كَتَب وقلةِ التفاتِهِ إليه ، مما يتعلقُ بأَقَلَّ منه أدباءُ وكتّاب ، ونظر فيه من جهة هوى النفس الذي هو بين جَنْبَيْ كُلِّ أحد ، ومن جهة ما فيه من المرفق للجماعة = لم يكن عنده إلا اعتداداً تاماً من الرافعي بكمال الفن ، وأنه هو الأجدر بأن يبقى يَدَ الدهر ، وألا ينقضي عند الجماعة الانتفاع به ، إذا ما انقضت وشائجه وأسبابه الفانية ، ومادته الآخذة من الزائل العابر ، المنتهية بعد يسير إليه .

وقد وقع له مرة «أن بعضَ أبناءِ عمومتِهِ استملاه كتباً ورسائلَ في معانٍ مختلفة ، حتى اجتمع له من ذلك جملةٌ صالحة ، فأراد طبعها ، فنهاه الرافعيُّ [نهياً] ، وأعلمَهُ أنه يَبْـرَأُ منها إذا هو نَشَرها»[2] .

= به قَـدْرَ نفسـه . وهذا بأسبـاب ووسـائله عند أهـله أقرب مأخـذاً وأيسر تحصيلاً مما يبدو لأول وهلة .

(١) نشر في حينه في المجلات التي كان الرافعي يكتب لها ، ثم لم يدخل في مختار مقالاته المعروف بـ(وحي القلم) الذي نشره الرافعي نفسه ثم سعيد العريان رحمهما الله . وبعضُ جَيِّدِ مالم ينشر رُوعيت في عدم نشره خواطرُ أناسٍ كانوا لا يزالون حين نُشِر في عداد الأحياء .

(٢) هذا من كلام الرافعي نفسه ، لم نزد فيه إلا لفظة واحدة ، ولم نغير منه إلا ضمائره .

فهذا نصٌّ فيما نحن بسبيله ، مع علمنا بمزاجه الفني الباذخ ، واعتدادنا به نصاً في مذاهبه حين لا يكون معنا فيها نص .

• وهو شيءٌ غايةٌ في الغرابة بعدُ ، أن يكون مذهبُ الرافعي الذي يَعْتَدُّ به ويَذْهَب إليه هذا الباذخَ الذي نَذْكرُه ، ثم يخالفُ عنه إلى غيره ، وحتى يَضْطره ذلك إلى أن يعتذرَ منه ضرباً من المعذرة ولو من وراء حجاب؛[1] فهو عجيبٌ من فِعْلِهِ باديَ الرأي ، إلا أن يكونَ له باطنٌ من الأمر يُفسِّرُ ظاهِرَه ، وما غيرُ ذلك بمفهومٍ ولا معقول .

أسباب الرافعي البعيدة الحاملة له ـ فيما نرى ـ على أن ينهج نهجاً بعينه في مقالات السفود:

قالوا في الأمثال: «شَرٌّ أَهَرَّ ذا ناب»[2] وقالوا: «شَرٌّ ما أجاءَ إلى مُخَّةِ عُرْقُوب»[3]. ولا يَسْتَخِفُّ حليماً عن حِلْمِهِ ، ويُزْعِجُه عن ركانتِهِ ، إلا أن يَجيئَـهُ مالا مَدْفَعَ له ، وإلا أن يَصُولَ على شيءٍ بمثله ، وقد كان غيرُ ما دُفِعَ إليه أشبَـهَ به وبخلائقه ، إلا أن ما تتامَّتْ مقدماتُهُ لا محالةَ كائنٌ ، وبِقَدَرٍ ما يكون .

• أَحْفَظَ الرافعيَّ على العقاد غَيْـرُ ما سَبَبٍ ، واستدعى موجدتَهُ عليه غيرُ ما داعٍ ، وتزايد ورَبَا حتى غَمَرَ شيئاً كان في نفسِهِ له يُشبهُ الودّ ، ثم جاء منه

---

(١) اعتذر في خاتمة مقدمة السفود عن أسلوبه فيه ، مع أن الكتاب قد طبع غير منسوب إليه !

(٢) أَهَرَّ ذا ناب: حمله على الهرير. وأصله صوت للكلب دون النباح ، وقد يستعمل لغيره. يُضْرَبُ في شديد من الأمر يَجِيء.

(٣) العرقوبُ من العظام لا مُخَّ فيه ، فلا خير فيه لمن يتناوله. فإذا اضطُرَّ إليه مضطر فقد اضطره إليه شديدٌ من الأمر. ومعناه ووجه استعماله كالذي قبله. ولفظ المثل: شر ما أجاءك . . .

منكرٌ أصاره إلى مالا يُسْكَتُ عليه ، وانْتُظِرَتْ فيه سائحةٌ تَسْنَحُ تُمْكِنُ من الانتصافِ منه .

● وجملةُ ما كان ـ على تطاول تاريخه ـ معروفٌ متداولٌ عند طلابه ودارسيه ، إلا أنا نقتصرُ منه في هذا المقام على ما كان من غَرَضِ الكتاب هنا بسببٍ وثيق ، ونجمل ذلك إجمالاً يَجمعُهُ ويجلوه في آن ، يَنْـفُـذُ فيه قارئه فيما نرجو إلى مذهب الفكرِ الذي ذهبه الرافعيّ في هذه المقالات ـ التي هي أصلُ كتابه ـ وأدار عليه جمهورَ كلامه ؛ ويَـرَى به عِياناً أن ما يبدو في جُملتِهِ تحاملاً من الرافعي على العقاد لم يكن في جوهره إلا ما ركبه به العقادُ نفسُهُ مبتدئاً ، جائراً عليه ـ عند نفسه ـ غَيْرَ مُنْصف . فردّه عليه هنا ، واستخرجَهُ له أضعافاً مضاعفةً من ديوان شعره ومن بعض كلامه المنثور . ذهب فيه مَذْهبَ (النقض) لا (النقد) إذ كانت مفرداتُ الحالِ خاصةً وعامةً قد صارت إليه ، وإذ كان يَردّ على شيءٍ بمثله ، وإذ كان (النقضُ) لا (النقد) طريقاً مسلوكاً ، سَبَقَ العقادُ ـ بما كتبه في (هَدْم) شوقي في (الديوان) ـ إلى أن يَضْرِبَ فيه المثلَ المشهور .

تَعَقَّبَ العقادُ الرافعيَّ في غيرِ موضعٍ مما كتب ، وذكره في غير مناسبة ، إلا أنه فيما في جمهور ما تعقّبَهُ وذكرهُ لم يكن له كلَّ الصديق ، ولم يكن فيما كتبه الناقدَ المنصفَ الرفيق .

سلبه فيما يكتبُ الفكرَ وحَرَمَهُ القدرةَ عليه ، وكَسَرَ قياسَهُ في يده وتَهَزّأ به ، وانثنى فأثنى شيئاً من ثناءٍ على أسلوبه ، كأنما هو فنٌّ من السُّخْرِ وأسلوبٌ من النكاية : أنّ رَصْفَ اللفظِ خالياً من الفكر هو أكبرُ آلته ، وزاد فنسبه إلى السرقةِ الأدبية ، وإذا هو عنده لصٌّ سارقٌ ، وارتفع فحلاّه حلية ظاهرة دميمة[1] ، تَمّمَ بها على وصفه الباطن .

(١) حِلْـيَـةُ الرافعي ـ أي وصفه الظاهر ـ التي حَلاَّهُ بها العقاد تجدها في نصه الذي اقتبسناه من (الديوان) في خواتيم هذه الصحف .

أَقَلُّ من هذا عند غيرِ الرافعيّ يُحْفِظُ ، حتى لو كان حقاً من القول ، أو شيئاً قريباً منه ، وصورةً من اللفظ تُشَاكِلُ الواقعَ أو تشبهه .

الأسلوبُ جوهـرُ الأدب عنـد الرافعي ، من قِبَـلِ أنـه صورة هذا الجوهر ، وظاهره الـدال عليه دلالـة المطابقـة ، ورسالـةُ هذا الأدب الفكرية والفنية :

عند الرافعي لا يكون الأدبُ أدباً حتى يكونَ معه فكر ، الفكرُ الذي هو فكرٌ وشعرٌ معاً ، منبعثٌ انبعاثَهُ العبقريَّ فكراً وألفاظاً وعبارات ، وإذا هو أدب فني كامل الصنعة والتكوين . وما التجديدُ عنده إلا في هذا الضربِ من الفكرِ الفنّي الكاملِ ، لا فيما يبدو للوهم القاصرِ لأول وهلة من ظواهرِ اللفظ ومفردات الأسلوب . اللفظُ في ذاته ، عند من يُحْرِزُه ، قريبٌ ممكن ، ومفرداتُ الأساليب حاضرةٌ عتيدة ، وإنما الشأنُ في الأسلوب ، الذي هو في الأدب الكامل صورتُه الناجزةُ الكاملة ، أعني الصورةَ وروحَ الصورة ، الظاهرَ والباطنَ في آن .

وهو عنده هذه الصورةُ البيانيةُ منقولاً فيها اللفظُ من حال إلى حال ، نافذاً بها الفكر نفاذَهُ الشاعر ، مستوفياً في نفاذه وتغلغله صنعةَ الفن ، مسوقاً هذا كلُّهُ سياقَهُ الحيَّ ؛ من جوهر الحياة الإنسانيةِ يأخذ ، وإليها يؤدّي ويَـنْـقُل ؛ مرتفعاً سامياً بها ، بجلائه مواضعَ الرِّفْعَةِ والتكرّم منها .

صورةٌ محكمةٌ متساوقة واحدة ، بعضُها من بعض ، ولا ينفكُّ منها شيءٌ من شيء . يخالفُ صاحبَها من شاء أو يوافقُه ، لكنه لا يَقْدِرُ من مخالفته منصفاً على أكثرَ من أنه هو مخالفٌ لا أن صاحبَها غيرُ قادر ، وأنه إنما يخالِفُ عما يخالف عنه من أجل أنه (يستحلي) غيره ، لا من أنه في ذاتِه موحشٌ شائـهٌ !

وهذا ـ حين يكون ـ أسلوبٌ من الفِكْر ومذهبٌ من الحُكْم يذهبُـهُ متلقٍ خالٍ بنفسه (يستحلي) ما يشاءُ لنفسه وينكر ، لا نَـكِرَةَ فيه عليه = لا مذهبُ

ناقدٍ حكَمٍ فيصلٍ ، يحكمُ بالحَيْدَةِ الخالصةِ لنفسه ولغيره ، ويُجَرِّدُ الحكمَ في حاضرٍ تحت يده وهو ينظرُ من ورائه إلى التاريخ.

فجاء العقادُ رحمه الله فأبطلَ هذا كلَّه ، ونَقَضَهُ على صاحبه حين استلَّ منه روحَهُ الخالقَ الذي انبنى عليه ، أعني حين أنكر على الرافعي أن يكون صاحبَ فِكر ، وأن يكون لرأيه فيما يزاوله سدادٌ واستواء.

وما بعد هذا عند الرافعي بقيةٌ ، وهل اللفظ بعد انتزاع روحِهِ الفني منه إلا عظامٌ في أجلادٍ يابسةٍ تَتَقَعْقَعُ؟

لو غيرُ ذاتِ سِوَار . . . لو أن ناعي هذا عليه صاحبُ أدبٍ يَتَنَدَّى أدبُهُ غضارةً ونضارة ، أو صاحبُ فكرٍ عاكفٌ على خالصةِ فكرِهِ يستخرجُ دائباً أسرارَه . .

وأَسَرَّها الرافعيُّ في نفسه يتربص[1] ، ورأيُهُ في أدبِ العقاد وأدبِ العصر رأيُه ، ومذهبُهُ فيما تصطنعه طائفةٌ من رجالاته يُرِيْغُونَ به الشهرةَ السهلةَ وذيوعَ الصيتِ مذهبُه ، حتى كانت سنةُ تسعٍ وعشرين ، وكانت (العصور).

● فبضربة واحدة استدنى إليه قديمَ العقاد معه وحديثَه ، وجمع ما قاله فيه فَرَدَّه بأسره عليه ، وجَرَّدَهُ ـ مرةً واحدة ـ من الفكر والشعر ، ومن الفلسفة والأدب ، ومن الأسلوب وما وراء الأسلوب ، ورَدَّه مترجماً ينقلُ ، فيحسنُ في ذلك أو يسيء ، لا مفكراً أصيلاً يُؤَثِّلُ ويَشِيدُ ، وحَقَّقَ عليه الأَخْذَ ، ونَعَى عليه الاقتباسَ وما فوقَ الاقتباس.

(١) بعض ما كتبه العقاد في الرافعي رَدّه الرافعي عليه ، إلا أن بعضه لم ينشر ، وما نشر لم ينشر بتمامه ، تصرف فيه ناشره بالحذف. وكان ذلك في (البلاغ) التي كان العقاد محررها الأدبي.

فهذا كلُّه كان ، وبإيماضِ الإشارةِ أو بغير إشارةٍ أصلاً يُعْرَفُ ، وبلا حاجةٍ إلى فَضْلِ تصورٍ أو خيال.

بعض أساليب الأدباء في مصاولاتهم في صدر هذا القرن:

وقد بقيت واحدة ، لا بإشارة تعرف ولا إيماء ، ولا يَنْفَعُ فيها إلا نصٌّ كاشفٌ صريح ، تَرُدُّ لأهل العَصْرِ شيئاً من خلائق ذلك العصر ، ليس للإنصاف ـ فيما شَجَر بين القوم ـ بغير تصورِها من سبيل.

فيما بينَ أواخرِ القَرْنِ التاسعَ عَشَر والعشراتِ الأولى من القرن العشرين ، استحالت طائفةٌ من خلائقِ الهجاء والهجائين وأساليبهم الغابرة استحالَتَها المعاصرة ، ونبَغَتْ منها صورٌ مركبةٌ مُحْدَثة فيها الوافدُ والأصيل ، واستعارها النثرُ فتصرف فيها ، وقد كانت خالصةً للشعر أو تكاد[1]. أعانت عليها ظروفُ العصرِ كلها ، ووافقت هَوًى في أَنْفُسِ طائفةٍ فافْتُتِنَتْ فيها كُلَّ افتنان.

فما كنت تَعْدَمُ حينذاك منِ كان يكلم خصمَهُ ـ بكلام مكتوب ـ وهو مُشِيحٌ بوجهه عنه مرة ، أو يَلْبَسُ له قفازاتِ النبلاء والأشراف على الطريقة الأوربية مرةً أخرى ، أو يدفع في صدره بإصبعه بازدراء مرةً ثالثة ، أو أنه (بالملاوعة) ـ جامعاً هذا كلَّه ـ (يُلَاوِعُ) خصمَهُ على طريقة أهلِ البلد في مصر الحبيبةِ مرةً رابعة.

يقول أحدُهم لصاحبه: «يا هذا ، عندي ما يَشْغَلُني عن ضغينة نفسك الصغيرة ، فاذهب إلى عالم الأشباح الذي ألقيت بك فيك منذ سنوات»[2]

(١) أردنا الهجائيات التي هي من قبيل النقائض ، يقول القائل ويَرُدُّ عليه خصمه؛ وهذا كان جمهوره في الشعر ، وكانت منه في العصور الإسلامية أشياء منثورة.

(٢) هذا من كلام العقاد نفسه في الرافعي. كادت الصور الأدبية عندهم تكون=

يقول له هذا وليس له في تلك اللحظة شغلٌ غيره ، ولكنه صورةٌ من صور الردّ ، يَلْبَسُ لها صاحبُها صورةَ التَّـنَـزُّهِ والاستعلاء.

وقد كان الرافعيُّ يعرفُ هذا معرفةَ أهلِ العصر به ، ويعرف مافيه من دقيقِ الصنعةِ حين يحتاجُ المقامُ إليه ؛ إلا أنه يعرفُ معه أن لكلِّ فنٍّ من فنونِ الإنسانيةِ فيما تزاولُهُ من شؤونها فناً آخَرَ يقابلُه ويكافئه ، وينتصفُ بأسلوبه منه .

فكان بَـيِّـناً جداً عنده أن ليس لاستعلاءِ العقادِ الذي يصطنعُهُ إلا فنٌّ نازلٌ من القولِ يلقاه به ، مع استجماع ذلك الفنِّ لكلِ أسبابِ القوةِ من داخله ، فيكون موجعاً ومُهيناً في آن .

وزَيَّنَ هذا عنده وأغراه به ما كان يراه من هيبة جمهور من يناوئون العقاد من التعرّض له ، فكان أبلغَ في أسلوب النِّكايةِ عنده أن يلقاه مع تلك الهيبةِ بهذه الصورةِ من الاستهانة .

ثم بلغ ذلك من رأيه غايتَهُ حين رَدَّه إلى علمِهِ المُسْتَيْقِنِ أنّ كلَّ جليلٍ نبيلٍ أَبَديٌّ خالد ، على حين أنه يريدُ عارضاً يَدُل دِلالَتَهُ ويؤدّي رسالتَه ويُوْجِعُ فيما بينَ ذلك ، لا أدباً من أدب الخلود كذلك الذي احتشد له في معركته مع طه حسين ، وأنشأ فيه من الفصول ما انتزع بعضُهُ إعجابَ طه حسين نفسِهِ ، الأديبِ الذواقةِ العبقري . . .

= عوالم محققة ، رحمهم الله . وقد كان الرافعي كتب مرة شيئاً في الصحافة والأدب ، فظن الدكتور زكي مبارك رحمه الله أنه يعرض به ، فكتب يقول: «ما رأيك إذا وقف لك أحد الصحفيين في معركة فاصلة . . . وألقى بك في هاوية التاريخ . .». فأجابه الرافعي: «إن وزارة الداخلية اطلعت على مقاله فأمرت جميع المحال التي تبيع لعب الأطفال ألا يبيعوا «معركة فاصلة» ولا «هاوية تاريخ» . . .

فهذا كان جُمَّاعَ التدبير عنده[1] ، ولكن كيف وهو لا يَفْصِلُ من قلمه ـ منشوراً مُعْلَناً ـ إلا كلُّ جليلٍ نبيل ، وكيف وهو لا يُذِيعُ على الناس من يومه شيئاً إلا وهو لا يستطيعُ في يومه ذلك أجودَ منه؟

مُعْضِلٌ من الأمر ولا ريبَ بالقياس إلى صاحبه ، لا مُتَـنَـفَّس له فيه ، يُـفْسِدُ عليه باستغلاقه تدبيراً من التدبير ، يُصيبُ به في نفسه مراميَ وغاياتٍ ، لولا أن ما يجيءُ في تصاريف القدر لا يحتاج معه الإنسانُ إلى تَصَرُّفٍ ولا تدبير .

كانت مقالاتُ (السفود) مُغْفَلَةُ النسبةِ تلك هي فُسْحَةَ الرأي الذي نَـفَذَ منه الرافعيُّ إلى غرضه ، وهي فضاؤه العريضُ الذي سيجولُ فيه جولاتِهِ الجادةَ العابثةَ في آن ، ويقولُ فيه بعلمه ورأيه ونفاذه ، دون أن يحتشدَ لفنِّهِ احتشادَهُ المعروف .

وحالُهُ هذه التي أقبل بها على نقد (ديوان العقاد) وادعاً مستريحاً مرةً ، وجاداً كلَّ الجدِّ مرةً أخرى ، هي هي جملةُ القولِ في صِفَةِ ما تَمَّ له في نقده ، ممتزجاً فيه الجدُّ الخالصُ بالتهكم والسخرية والعبث إلى حدّ استعمالِ العاميةِ في مواضعَ ، غرضاً مقصوداً كما ذكرناه ، إمعاناً من صاحبه في النَّيْل من منقوده بغير صورةٍ وسبيل .

من كلام العقاد في الرافعي :

● ونحن نذكرُ هنا قبل أن نمضي بالقول إلى غايته طرفاً مما كان يجري به قلمُ العقادِ خاصةً دون سائر معاصريه في ذلك العهد من عهود التاريخ العربي الحديث ، في الرافعيّ وفي غيره ، مما زعمنا أنه ربما كان أشدَّ مما

---

(١) كل ما فصلنا فيه القول في مذهب الرافعي الذي ذهب في مقالاته (السفود) نقوله حدساً وتقديراً ، نستظهر فيه بما نعرف من حال الرافعي ومن سيرته في حياته وأدبه .

قاله الرافعي فيه. نذكرُهُ تبرئةً للقولِ فيما دُفِعْنا إليه من تفسير الكتاب وتفسير ما كان من مادته وأسلوبه في سياقه التاريخي الذي كتب فيه، وإنما نذكرُ قليلاً جداً من كثير، وعلى كُرْهٍ منا نفعل ذلك.

• كتب العقاد في الفصل الذي أفرده للرافعي في الجزء الثاني من (الديوان)[1] وأفرد المازنِّي مِثلَهُ لعبد الرحمن شكري:

«مصطفى أفندي الرافعي رجل ضيقُ الفكر، مُدَرَّعُ الوجه، يركبه رأسهُ مراكبَ يتريث دونها الحصفاء أحياناً، وكثيراً ما يخطئون السدادَ بتريثهم وطولِ أناتهم. وطالما نفعه التطوح، وأبلغه كلَّ أربه أو جله، إذ يدعي الدعاوى العريضة على الأمة، وعلى من لا يستطيع تكذيبه؛ فتجوز دعواه وينفق[2] إلحافه عند من ليس يَكْرُثُهم أن يخدعوا به.

بيد أن الاعتساف إذا كان رائده الخرق في الرأي وشيكٌ أن يوقع صاحبَهُ في الزلل إحدى المرار، فيضيع عليه ما لو علم أنه مضيعه لفَدَاه[3] بكل ما في دماغه من هَوَس وما في لسانه من كذب. وكذلك فعل ضيقُ الفكر وركوبُ الرأس بمصطفى الرافعي فَحَقٌّ علينا أن نُفْهِمَهُ خَطَرَ مركبه، وأن قدميه أسلسُ مقاداً من رأسه، لعله يُبْدِلُ المطيةَ ويُصْلِحُ الشكيمة».

وقال في حَقّه في مقام آخر:

«مصطفى صادق الرافعي رجلٌ عامي من فَرْعِهِ إلى قدمه، أومن قدمه إلى فَرْعِهِ. يظن كما يظن كلُّ عاميٍّ أن المناقشةَ هي أن تغلب، وأن علامة الغلب أن يظل يتكلمَ ويتكلم».

• فهذان نموذجان قريبان، يشهدانِ بألفاظِهما على (جَوّ) المعارك

(١) ص: ١٧٠، ط ٣، دار الشعب، بلا تاريخ.
(٢) في المطبوع: وينق، تطبيع.
(٣) في المطبوع: لفدام، تطبيع.

الأدبية والفكرية التي كانت تثورُ حينئذاك، وحسبُك بوصف الرافعي بالعامية شاهداً على المكابرة ومغالطة النفس، وعلى إرساله القول للغَضّ والإهانة لا للنقد والتمحيص.

وضَعْ (عاميةَ الرافعي) هذه إن شئتَ بإزاء كلمتي محمد عبده وسعد زغلول فيه[1]، وهما من هما في جلال القدر عند العقاد خاصة قبل غيره من المفكرين والكتاب.

ثم ضعها إن أحببتَ بإزاء كلمةِ فيلكس فارس حين تَمّتْ له ترجمةُ كتاب نيتشه: (هكذا تكلم زرادشت) بعد وفاة الرافعي، فكتب يقول: إنه كان يتمنى أن يكون الرافعيُّ حياً ليسمعَ رأي حكمةِ الشرق في فلسفة الغرب، أو كلاماً هذا معناه[2].

بل ضَعْها بإزاء كلمةٍ للعقاد نفسه قالها في الرافعي قبل كلمتيه المتقدمتين فيه: «إنه ليتفقُ لهذا الكاتبِ من أساليب البيان مالا يَتّفِقُ مثله لكاتبٍ من كتاب العربية في صدر أيامها».

• أيةُ مفارقةٍ هذه، وأية قدرة على مغالطة النفس، وأيُّ عصر غريب كانوا يتقلبون فيه، لا نخص كاتباً ولا نستثني آخر. وإن أحَقَّ الناسِ بوصفٍ أن يضافَ إليه من كان ذلك عنده عملاً يُعْمَلُ قبلَ أن يرجعَ وصفاً يؤثر.

(١) كلمتا محمد عبده وسعد زغلول هاتان من أصول ما ألقى العداوة بين الرافعي والعقاد؛ رماه العقاد بافتعال الكلمتين وتزويرهما على الرجلين. والحال أن كلمة محمد عبده موجودة بخطه، وكلمة سعد زغلول أثبتها له سكرتيره محمد إبراهيم الجزيري، وزاد أن كتاب سعد إلى الرافعي الذي تضمن عبارته المشهورة تلك «هو الذي كتبه بخطه، لم يَكِلْ إلى أحد من سكرتيريه كتابته». وهذا فوق أن العبارة نشرت واشتهرت في حياة سعد.
(٢) أكتب هذا من الذاكرة، وقد بَعُدَ العهد به جداً، وليس الكتاب تحت يدي فأثبت نص عبارة الرجل.

ولغةُ العقاد تلك في الرافعي خاصة[1] هي التي حملت توفيق الحكيم وهو من عرفتَ كَيْساً وحكمةً وحِرْصاً على اللَّيِّـنِ من القول = حملته على أن يقولَ للعقاد في بعض ما كان بينه وبينه:

«إنك للمرة الأولى تخاطبني بهذه اللهجة التي كنت تخاطب بها الرافعي رحمه الله. أبهذه السرعة تضعُ الناس في صفّ أعدائك؟».

ومن كلام العقاد في شوقي وفي الأمة:

• على أن غايةَ الغايات فيما كان يرسلُه العقادُ رحمه الله أحياناً من القول، باندفاعاتِ نفسِهِ لا بتمحيص رأيه، ما قاله في حقّ الأمةِ بأسرها لا في حقّ رجلٍ فردٍ من أبنائها. وذلك أنه حين احتُفِلَ بشوقي أميراً للشعراء، ووفدتِ الوفودُ العربيةُ مبايعةً له، وكان رئيس شرف الاحتفال سعد زغلول، وذلك في السنة التي توفي فيها (١٩٢٧) = فحين كانت الأمةُ العربيةُ كلُّها لا مِصْرُ وَحْدَها تحتفل بشوقي أميراً للشعراء، كتبَ العقادُ في افتتاحية (البلاغ) ٱلتي كان محررَها الأدبي: «إن الأمة التي تحتفلُ بشوقي لا تعرِفُ معنى الكرامة»[2].

(١) من لغة العقاد في غير الرافعي نموذجان في الدكتور محمد حسين هيكل وخليل ثابت، وكانا رئيسي تحرير (السياسة) و(المقطم) تجدهما في صدر هذا الكتاب (ص: ٦٤).
وقد اتفقت للعقاد مع هيكل واقعة في مجمع القاهرة، بعد ذلك بزمان، لها ظاهر يضحك وباطن يوجع: صدم العقاد هيكل، وكان العقاد من الطول على ما تعلم، وكان هيكل من القصر بضد ذلك. قال هيكل بالمصرية الدارجة: (حاسب) فقال العقاد: كيف (أحاسب) وأنا لا أراك؟!

(٢) جمحَ بالعقاد هنا قلمُه واحدةً من جَمَحاته المعروفة، ونزع به إلى غايةٍ من القول لا يرضاها هو في قرارة نفسه، قبل ألا يرضاها عدوّ أو صديق. =

= ولو أقرّت ذائقة العقاد الروحية والمنطقية مثلَ ما تفلّتت إليه مقالتُـهُ هذه لم يَـكَدْ يَسْلَمُ له من أبنيته الفكريةِ والمنطقيةِ من عامة آثاره كبيرُ شيء، كيف وأصلُها في نفسه متقوّضٌ هائر؟

وذلك أن تأويل عبارته يفضي بمتأوّلها كيف توجّه إلى طريق مسدود:

فلو أنه ذهب في تأويل عبارة العقاد مذهب إحسان الظنّ بصحة مقصده، والثقة بجودة رأيه، وما يكون معهما ضرورةً من التصديق بادي الرأي لمقالته، لم تكن الحال عنده إلا أن عظيماً من الأمر حمل العقاد على عظيم من القول، ويكون شوقي عنده قد ركب الجُلّى، وقارف العظمى، وجاء بالصّاخّة أو الطّامة، وخان الوطن، أو جدّف في ذات الإله. فيكون شيءٌ كهذا -أو فوقه، إن كان فوقه شيءٌ- مستحقاً عند العقاد أن يوبّخ الأمة من أجله.

فإن رجع يفتش ويصحح، ويبحث عن العثرة والجريرة، ويطلب للكلام واقعاً من الواقع يتأيد به، أخرجته المراجعة إلى أشد مما كان فيه، وبقيت مقالة العقاد في يده بلا سند من الواقع تَسُوْغ به، ولم يَـبْـقَ معه إلا أن يُقرَّ بالعجز، وينظر حائراً سادراً في اللاشيء، ويوبخ نفسَه ما دام العقاد قد وبّخه. وذلك أنه ينظر فلا يجد إلا أن شوقياً قال الشعر على غير ما يستحسن العقاد من الشعر، فغنّى أفراحَ الأمة وأتراحَها، أي أنه مدح ورثا، وقال الشعر في المناسبات، وصنع ما صنعته -وما لا تزال تصنعه- أمم من الناس، منذ كانت الدنيا وإلى أن تنقضي؛ وأنه لم يلبس حالاً غير حاله، فيترجم شعوراً مستعاراً غير عربي بألفاظ عربية؛ وأنه جدّد متسقاً مع نفسه بأقصى ما تطيقه موهبة رجل واحد في عصر واحد. وحين تعثّر لم يزد على أن ضم عَثَرَاته إلى ديوان العثرات المأثور في آداب العالم وفنونه:

مَـن ذا الـذي مـا سـاء قـط ومـن لـه الحسنـى فقـط؟

فهو الإفراط على النفس وعلى الحقيقة يركبان بصاحبهما كل صعب.

• فهذا لا يُـذْكَرُ معه شيءٌ مما كان بين القوم ، وما كانوا يَتَهادَوْنَـهُ بينهم من قوارصِ القول[1] ، وينبغي أن يكون مع المرء من (الاعتقاد بالعقاد) أمثالُ الجبال، بل مالا يكون مِثْلُهُ في وهمِ مُتَوَهِّم = من أجل أن يُجِيْزَ قولَهُ ، ويَرَى أنه حين قاله كأنه لم يُقلْهُ!! وهذا أيضاً غايةٌ من الغايات في ارتكاس الشخصية الانسانية التي أنفق العقاد عُمُرَهُ يدافعُ عنها وعن كرامتها.

• وأهونُ من هذا وأقربُ وأكرم ، وأشبَهُ بالأحوال الإنسانية في قوتها وضعفها وسموها وانحدارها ، أن يُطْوَى ذلك البساط بما فيه ، فلا يبقى إلا نافعٌ من القول ، يتجددُ على الأيام بقَدْرِ ما فيه من الخير ، وعلى أن ذلك

= ومن تمام التاريخ في هذا الموضع أن تنظر فيما كان من رأي العقاد والمازني رحمهما الله في شوقي وفي (الديوان) بعد أن تراخت بينهم وبينه الأيام.

أما العقاد فعلى عادته في ثوابته وفي كبريات آرائه: قريبٌ بعضُ كلامه فيها من بعض. وإنما يؤدي في حالٍ بعبارة ما لا يصادم في جوهره ما كان قد أداه في حالٍ غيرِها بعبارة أخرى، يظهر هنا شيئاً، ويظهر هناك شيئاً غيره، بلا كبير اختلاف بينهما في الجوهر واللباب، سوى أن عبارته المتأخرة (هنا) أرفق بمن قيلت فيه من أختها المتقدمة.

وأما المازني فعلى سجيته أيضاً في سهولة النفس وبعد الغور: صادق شوقياً في حياته (!) وحكى عنه رأيه في انتفاع الشاعر بنقد من ينقده، ولا سيما في اللغة (النحو والصرف) (!) وأنه هو نفسه انتفع بهذا النقد في مطالع حياته الشعرية.

ثم رجع إلى الكلام في شوقي وفيما كان من بواعث القول فيه عند كتابة (الديوان) في غير مناسبة. ومن آخر ما حُكي عنه من ذلك ما حكاه الأستاذ ثروت أباظة منذ نحوٍ من عام.

(1) وعلى أن من غرائبهم مع هذا أن أحدهم ربما أرسل في صاحبه من مُرِّ القول ما شاء في الغداة ، وناقَـلَـهُ مستطرفَ الأحاديث في العَشِيِّ!

كائنٌ في الأكثرِ الأعَمّ ، وهل يرجع إلى ذلك العصرِ يُحْصي أحوالَهُ إلا دارسٌ مؤرخٌ نزيه؟

جوامع من القول في صفة الرافعي لما كتبه في السفود:

• ونرجعُ بعدُ إلى عبارة الرافعي التي خرجنا في بيانها إلى هذا الفصل الطويل.

في العبارة من مفردات المعاني خمسة أشياء: **أن صاحبها كتبها كما يتحدث ، وأنه صنع ذلك لهواً بالعقاد وبأمثاله ، وأن ذلك لهوانه عليه وعلى الحقيقة ، وأنه لم يتعب فيه ولم يصنع فيه صنعةً بيانية.**

• أما **الحديث** فهذا كأنه توقيع الرافعي على أنه هو كاتب المقالات ، وإلا فمن غَيْرُهُ ، أو مِثْلُهُ ، يتحدثُ حديثاً مرسلاً ، لا تبلغ مَرتَبَتَـهُ كتابةُ كثرةٍ كثيرةٍ من محترفي الكتابة في عصره ، تُوْمِضُ في تضاعيفه وَمَضَاتُ البيان ، ويُبِيْنُ به عن دقائقَ من دقائقِ معاني الفكر والشعر لا يَعْيَا بها ولا يتخلف ، يُشَدِّدُ بها على غريمٍ له (جبارِ ذهن) يَتَـرَبَّصُ به من قرائه ، فضلاً عن غيرهم من سائر القراء ، عشرات ألوف أو مئون؟

ولو لم يكن هذا الحديثُ من القوة والتماسك بمكان ، إلا فيما خالف فيه إلى لغة العامة تهزءاً واستخفافاً = هل كان صاحبُهُ - الذين عرفناه - يَرْضَى أن يُـنْشَرَ مجموعاً في كتاب؟

• وأما **اللهوُ** فقد عرفتَ حقيقته ووجهَهُ ومذهبَ الرافعي فيه ، وأنه كلُّ الجادِّ في إدارته على هذا النحو وبهذا الأسلوب ، وفي تضمينه في الوقت نفسه ، من مادة العلم والفكر والرأي ما يَسُوْغُ معه دفعُهُ إلى القارىء؛ وإلا فما الحاجةُ إليه إن كان لا بعلمٍ يُقْبِلُ على قارئه ولا بفنٍ يَتَخَيَّلُ؟

ثم أليس التقديمُ له بمقدمةٍ جادةٍ محكمةٍ - حين رجع كتاباً بعد أن كان مقالات - آيةَ الجدِّ في أمره ، من أوله إلى آخره؟

• وأما **الهوانُ** فنحن نصدّقه حقاً تصديقاً (في الجملة) ونردّه في الوقت نفسه ، إلى تلك (الملاوعة) التي ذكرناها آنفاً عند (التفتيش والتفصيل) .

آيةُ الصدقِ فيه ، أو في جانبٍ منه ، اتساقُ كاتبه مع نفسه ، وإلا كانت هي الهينةَ عليه لا نفس خصمه؛ من أجل أنه لا يجوزُ له أن يستخرجَ من نصوص هذا الخصمِ ما استخرجه ، مُسَفّهاً له من أجله ، ثم يكونُ عنده بمنزلةِ التجلةِ والإكبار[1] . ولكنه يضع منه مرةً بحقٍّ وينزلُ به ، ثم لا يزالُ به (بالملاوعة والنكد) نازلاً مستهيناً . وهكذا كان شأنُ العقاد معه ، وهكذا كان شأنهم في الجملة أو أكثرُه .

شـيء من حيـاة الرافعـي وما فيـه من عجيب الدلالـة على سموّ أدبـه :

وأما ما ذَكَرَ من **التعب وقلة الاحتفال بصنعة البيان** هنا فهذا أصحُّ شيء

(١) يردد أصحاب العقاد وتلاميذه كلمة قال الزيات ـ في الرسالة ـ إن الرافعي قالها في العقاد ، يرونهاكلمة الفصل فيما كان بين الرجلين ، وَجَّهَ فيها الرافعي الحُكْمَ على نفسه ، وأَوْجَهَ صاحبَهُ . وهي ـ لو صَحَّتْ ـ تنقض ما قاله فيه عروةً عروة ، وتهدِمُهُ عليه ، ويكون ما قاله فيه مستخرجاً إياه من نصوصه ، على كثرته واستطالته = صحيحاً في ذاته وغَيْرَ صحيح! وهي قضيةٌ لو لقيتَ بها رِسطاليسَ صاحبَ (المنطق) لأَعْضَلَتْ به ، ولأحوجته إلى أن يَكُرَّ النظرَ في أصول منطقه .
أما نحن فما ندري هذا الذي كان بين الرافعي والزيات كيف كان؛ ولكنا ندفعه دفعاً لا شبهة فيه ، لا لاستحالته على الرافعي فقط ، بل لاستحالته في ذاته كما تراه .
وعلى أنا لا ندفع أن يكون له أصلٌ من كلام الرافعي ، يقوله للزيات ولغيره ، فيه تقدير من التقدير للعقاد على نَحْوٍ بعينه ، بل نرى أنه هو الأصل ، بل نحن لا نعقل على الرافعي غَيرَه ، حتى قبل أن يُقبل العقاد على عالم من الفكر غَيْرِ الذي كان فيه أيامَ خصومته مع الرافعي .

في الباب ، إلا أنا نفصّلُهُ شيئاً من تفصيل ، نُوْجِدُ به القارىءَ المعاصرَ طرفاً من خبر الرافعي في حياته؛ يَعْذُرُهُ من أجله في بعض الأمر إن اتسعت نفسُهُ للمعذرة ، أو لعله يُكْبِرُهُ إن انبعثت نفسُهُ لمعاني الإكبار .

يعلمُ دارسُ الرافعي أنه لم يكن محترفاً للكتابة فارغاً لها ، وأنه كان موظفاً في محكمة بطنطا؛ فكان بياضُ نهارِهِ الذاهبِ في العمل ينقلبُ في نفسه غماً أَرْمَدَ ، أسفاً على ما ضاع من وقته المحتاجِ أشدَّ الحاجةِ إليه ؛ فكان تَـفَرُّغُـهُ (حلماً يداعب أجفانه) كما يقال ، وأُمنيةً عزيزةً تهفو إليها نفسُه إلى أن مات .

وكان مذهبُه الأدبي والأخلاقي المبنيُّ على طلب الكمال في العلم والفن = يقتضيه جهداً عصبياً وذهنياً خارقاً ، لا يحتمله بدنُـهُ ولا يُعِيْنُ وقـتُـهُ عليه ، إلى ما كان من اغتمامه بالوَقْرِ الذي كان في أذنيه ، المتزايِدِ حتى يبلغَ به حَدَّ الصَّمَمِ وهو في الثلاثين[1] . فكان كثيرَ الاعتلال والتعب ، يشكو ذلك لخُلَصائِهِ شكوى تقرير الواقع لا شكوى النِّيَـاحَةِ عليه .

وكان **التعبُ** (مُفْرَدَةً) شائعةً في كلامه الذي من هذا القبيل . وكان اعتلالُه أو تعبه يَكْثُرانِ عليه حتى يمنعانِهِ أحياناً من كثيرٍ مما تطمحُ نفسه إلى عمله ، ولا يجد من وقته ولا من نشاطه معيناً عليه . بل لقد كَثُرَا عليه وتَحَيّفا منه . . . حتى وافاه أجلُهُ ، وقضى وهو في السابعة والخمسين .

لا جَرَمَ كان آيةَ الآياتِ على ضخامة موهبته؛ وعلى رسوخ تكوينه الذي تهيأ له في شبابه الأول ، بل على ناحية الإلهام الذي هو من ملامح كلّ عبقريةٍ كبيرة ، بل هو مَلْمَحُها الأسمى = لا جَرَمَ كان آيةَ الآياتِ على هذا

(١) سماه العقاد في بعض ما كتبه فيه : المهذار الأصم . أما الصممُ فقد عرفته ، وأما الهَذْرُ . .

كلِّه بدائعُهُ التي كان يستخلصها من غَمْرَةِ حياته المُتْعَبَةِ المُتْعِبَةِ ، وأعصابهِ المرهقة ، وبَدَنه الكليل.

وليس إلا الدهشةُ والعَجَبُ التامان يملآن صدر من يقف ـ منصفاً ـ على كمال فنّه واضطراب حياته؛ وعلى السمو الروحي في هذا الفن[1] والنَّكَدِ النَّكِدِ في تلك الحياة؛ وعلى النِّعْمَةِ والثراءِ العظيمين هنا والفَقْرِ المُقْفِرِ المُجْدِب هناك.

عبقريةٌ كبيرةٌ ولا ريب ، على ذاتِها وعلى مادتِها المُلْهَمةِ تُعَوِّلُ أولاً ، ثم على ذاتها ، . . ثم على سائر الأشياء.

واتكاء الرافعي على نفسه من أكبر ملامح أصالته الفكرية والفنية . وبكونه منشئاً مبدعاً تميّز عند الأثبات من أدباء عصره ونقاده.

• فقد عرفتَ الآن مغزى **التعبِ** حين يذكر التعب ، ووقفتَ على بُعْدِ غَوْرِهِ في نفسِهِ وفي حياته ، وأنه ليس لفظاً من اللفظ يرسله فمٌ أو يجري به قلم ، وعرفتَ معه ومن قبله معنى **الصنعة والبيان** في قلبه وعلى خاطره؛ فإذا ما أقبلَ بتعبٍ يَتْعبُهُ وبيانٍ يجلوه على أمرٍ من أمره ، أو مال مُعْرِضاً عنه ، أليس بحياته نفسِها يُقْبِلُ أو يَميل . . ؟

• وقد بلغَ الكلامُ على عبارةِ الرافعي غايته ، وما بقي إلا أن نذكر مالم يَذْكُرْهُ ، وذلك هو النصُّ على أن مقدمتَه التي قَدَّمَ بها للمقالات بعد جمعها في كتاب ، كانت (نصاً فنياً) قاطعَ الدلالة عليه عند العارفين بالأساليب ، عَرَّفَ به ، ونَصَّ كلامَهُ كلَّهُ إليه ، على الرغم من أنه عمل على أن (يُنَكِّرَ) في المقالاتِ نفسِها (معارِفَه).

* *

(١) بهذا السمو الروحي انعقدت الأواصر بينه وبين بعض أصدقائه المسيحيين ، ومنهم فيلكس فارس.

جملة القول في السفود:

رجع (السفود) بعد تناسخ الأيامِ من دونه كتاباً للتاريخ وحده يحكمُ له أو عليه . وما كان كذلك لم يكن لغير الفن الخالص أو العلم الخالص حظٌّ يَخْلُدُ به أو يَبِيْد.

أما الفنُّ فقد مَرَّ للقارىء الكريم كافٍ من القول فيه ، وفي سياقه وبواعثه في هذا الكتاب ، بسلب أو بإيجاب؛ وسيعرفُ بنفسه ما يعرِفُ من ذلك أو يُنْكِر.

وأما العلمُ ، عِلْمُ الأدب والفكر ، فهو الجانبُ الباقي منه ، المستحق من أجله أن يعاد نشره.

• وللكتاب بعدُ غرضٌ ، وقد توسل له صاحبُه بأسلوب ، وحَشَدَ له من المادة.

أما غرضُهُ فالكلام على (ديوان العقاد) في المقام الأول ، ثم على شيء من كلامه في فلسفة الجمال . نفى فيه الرافعيُّ الشاعرية عن العقاد حين نفى عنه الخيالَ الشعريّ ، وذوقَ الشعر ، والقدرةَ على العبارة الصحيحة الشاعرة عنه.

وأما أسلوبُه فهو ذاك الذي فرغنا منه لتونا.

• وأما مادته ، **أعني ما اشتمل عليه من الفكر والعلم** ، فهي غرضُنا الذي نرجو أن نبلغ مبلغاً في بيانه.

جوهرُ الشعر الأَجَلُّ عند العقاد ، وردُّ الحكم فيه إلى قارئه المنتفع به:

فأما خيالُ العقاد وذوقُه ، وما كان وراءهما من نفسٍ شاعرة أو شعور ، فنحن نترك الحكمَ فيه كلِّه لقارىء شعرِ العقاد أساساً؛ اعتقاداً منا نعتقدُه ، نتسعُ فيه باتساع الحياةِ الإنسانيةِ ، ونُفْسِحُ فيه لما لا يُحَدُّ من اختلافِ المشاربِ والأذواق.

• جوهرُ الشعر عند العقاد نَـفْسٌ تتصلُ بِـنَـفْسٍ ، وشعورٌ يؤدي إلى شعور ، فمن تأدى إليه ذلك من شعره فالشعر عنده صحيحٌ شاعرٌ لا محالة ، وقد حَقَّقَ دورَهُ وأدّى رسالته ، ولا عليه بعد ذلك من تَعَقُّبِ متعقبٍ ، أو زراية زارٍ عائب .

نعتقدُ هذا على الحقيقةِ ونصححه ولا نُماري فيه ، ونرى أنه لولا اختلافُ المشارب والأذواق لم تَـقُمْ لأكثرِ ما يصنعُ الصانعونَ ويُبْدِعُ المبدعون قائمة ، ولبَطَل أكثرُ ذلك ، ولم تَـبْقَ إلا صورةٌ واحدةٌ أو صورٌ قليلةٌ تُحْمَلُ عليها الأنْفُسُ ، فليس في غيرها زادٌ ولا متاع .

فـن الشعر عنـد الرافعـي ومعيـاره فيـه الـذي يُـعايـرُ بـه :

• غير أن الرافعيَّ يرى هذا أيضاً ولا يقول غيره ، إلا أنه يزيد عليه أن مع جوهرِ الشعورِ جوهراً آخر لا يتم جلاؤه وانكشافُهُ إلا به ، ولا تكونُ المتعةُ بالفن إلا معه .

بل هو فيصلُ الفنِّ ومعياره ، إذ كانت موادُّهُ في الأنفس الإنسانية واحدةً أو تكاد . وإنما الفَرْقُ والمَزِيَّةُ في البيانِ عن هذه المواد بياناً يكشِفُ ويُمْتِعُ في آن ، ويكونُ له من كشفِهِ وإمتاعِهِ وشيءٍ آخَرَ معه لا يُحَدُّ = روعَةٌ تُخالطُ الأنْفُسَ ، وتزيدُ فيها زيادتَها التي لا تقعُ في حساب المعنى وحْدَه ولا الألفاظِ وحْدَها ، ولكن فيهما مجتمعين ، وفي ذلك الآخرِ الغامضِ غَيْرِ المحدود .

فتلك هي الصنعةُ الفنيةُ الكاملة ، وذلك هو البيانُ الكاملُ ، لا يتحقق صاحب الفن به حتى يستوفي حظه من أسبابه وأدواته . وهو غنيٌّ عن البيان أن من تَـيَمَّمَ الكمالَ في الفن فالصحةُ من شَرْطِهِ لا محالة ، صحةُ أداتِهِ التي بها يتحقق ، على قانونِ ذلك المعروفِ عند أهله ؛ وهو هنا قانونُ العربيةِ الجامعُ في الألفاظ ومعانيها ومجازِها ووجوهِ تَصَرُّفِها ؛ ومن أوضاعِها المركبةِ

التي تَـنْـتَظِمُ فيها هذه الألفاظُ ، وأنحائِها ووجوهِ دِلالاتها ؛ وما اتصلَ بذلك من أعاريض الشعر وقوافيه ـ إذا كان المقامُ مقامَ شعر ـ وما يجوز فيه وما يمتنع ، وبالتصرفِ في هذا كلِّه تصرفاً صحيحاً واحداً ملتئماً غَيْـرَ متناكر .

مطـاعـن الـرافـعـي عـلـى ديـوان الـعـقـاد :

• فمن هـذا الوجه نَـفَـذَ الرافعـيُّ إلـى شعر العقاد ، وعليه أدار جمهورَ نقده .

• اعتَـدَّ عليه فيما قاله من شعره بِبِنْيَـةِ الشعرِ الظاهرةِ مؤديـةً عن بنيتِـهِ الباطنة ما يتأدى بها ، ورتَّبَ على ألفاظ ديوانِـهِ وأساليبه ما يترتبُ عليها من وجوه الدلالة ، وذهبَ يستخرجُ معانيها على حسب ذلك ، ويقابلُ بينها وبين نظائرِها في ديوان الشعر العربي ، كاشفاً بالمقابلة ما لابد من انكشافه ، وما لا يظهر لقارىء لا رواية له ولا تفتيش .

وانتهى من ذلك إلى نتيجتِهِ الظاهرة : أنه لا يكفي في الشعر أن يُؤدِيَ أداءً كيف كان عن خَلَجات الوجدان ، وأنه لابد له من ظاهرٍ مُحكَمٍ مُسْتَوفٍ لعناصر الصحة والجمال ، ليؤديَ أداءَهُ المرجُوَّ عن ذخائر الضمائر والأفهام .

• وأخذ عليه في تضاعيف ذلك أشياءَ نَسَبَهُ فيها إلى الغلط ، ونعى عليه أشياءَ يَكْرُمُ الشعرُ عنها ، التقط بعضها من شعره ، ودار به في المقالات دورةً مستشنعة ، صَيَّرَهُ بها شُهْرةً ، وجلعها علماً عليه .

• وقد كان هذا من فعل الرافعي أحَدَ ما آخذه نقادُه عليه ، وبقولهم نقولُ ، تنزيهاً لمقامات الكلام كلِّها إلا عن حُرٍّ كريمٍ من اللفظ ، في خصم كانت أو صديق .

إلا أنا نَردّها إلى موضعها من شعر صاحبها أولاً ، ونَعْجَبُ له قبل عجبنا ممن شَنَّعَ بها عليه : نعجب له يرفعُها من مناسبتها التي قيلت فيها ، وكان

لها من تلك المناسبةِ ظاهرٌ من شفيع ، ليثبتها في ديوان شعرِهِ لقارىء ديوانه ، قارئ اليوم وقارئ الغد ، ذخيرةً تحفظ ، ومعنىً إنسانياً يَخْلُدُ ولا يَبِيْد.

وما كان من هذا القبيلِ ، في الشعر وفي غير الشعر ، آخِرُ ما يمكن أن يُعَدَّ في الفن ، ويكون له ما يُضافُ إلى الفن من دورٍ مرسوم ، في ترقية الأنفس ، وتربية الذوق والشعور.

والعجبُ ممن يتكلمُ في الرجلين على قانون النَّصَفَةِ والتجرد لا يضعُ ما كان بينهما وضعاً تاريخياً واحداً ، ويزنُهُ بميزانٍ واحد ، ويحقّقُ أَوَّلِيَّتَهُ وأسبابَهُ ، ويَفْرِقُ ما بين ظواهرِهِ وخوافيه ، ويَعْتَدُّ بما أدى منه إلى حقٍّ خالصٍ في كل أدبِ فكرٍ أو نَفْسٍ أو قول ، دون ما يساق للشَّغْبِ ، وإثارة الخواطر ، وصرفِ الأشياء عن مقاصدها الأولى ، ولبابها النافع الصريح.

● وقد كان ينبغي أن تكون قضيةُ السفود منتهيةً عند قارىء العربية منذ أمد بعيد ، بتخليص القول في طرفي القضية ، وتجريد ما كان لكل واحد منهما محضاً صريحاً لا دَخَلَ فيه ، بلا عصبية ولا تحامل يحملان على الغُلُوِّ في القول ، فيذهبان بالمحاسن ويَطْمِسان على الحقائق ، ويذهبُ بغلوهما ما ينعقدُ الرجاءُ بكل فكرٍ أو أدب أو فن أن يصنعَهُ ، في الجوهر واللباب من حياة الإنسان.

نقدُ الشعر من جهة ما فيه من الصنعةِ الدالةِ على سَعَةِ الذَّرْعِ في الفن الكاشفةِ عن المعنى: أصعبُ أبواب نقده:

والذي أخذ فيه الرافعي بعدُ من نقد الديوان بابٌ من نقد الشعر هو أصعبُ أبوابه وأبعدُها متناولاً من طالبه ، بل هو كذلك في نقد الفنون عامة ، على ما تؤدّيه بديهة النظر وواقع الحال في آن ، هو باب مافي الفن الواحد من دقائق الصنعة التي تكشف عن سرائره ، وتنزيل هذه الدقائق في

منازلها: من سمو وارتفاع ، أو توسط ، أو غير ذلك ، ومقابلة ذلك بما يكشفه ويُـوَكّده من النماذج المعتبرة في ذلك الفن.

ولعُسْرِ هذا الباب وشِماسِهِ وبُعْدِ غايتِه إلا على من أقبل عليه بآلته ووسائله = يتحاماه أكثرُ من يكتبون في نقد الفنون ، ويأخذون في الظاهر بظاهره ، دون ما وراءه من خفيِّ الصنعة والتكوين. ويَغْلِبُ ألا يكونَ نقادُ هذا الباب خاصة إلا من أصحاب الفنون أنفسِهم ، أو من كبارِ النقادِ الذين هم في ذواتهم فنانون حقيقيون ، أفردهم السرُّ العاملُ عَمَلَهُ في الأرضِ لبابٍ من الفن غَيْرِ بابِ الخَلْقِ والإنشاء.

والذي قَـدَرَ عليه الرافعيُ في هذا الباب خاصةً ـ في عامّةِ ما تَكلَّم عليه ، في هذا الكتاب وفي غيره ـ لم يَـقْدِرْ عليه من أهل عصره أحد ، ولا اقترب منه ، إلا ما كان من العلامة الكبير محمود محمد شاكر ، في أُخْرَيَات حياة الرافعي[1] وبعد وفاته. وهو عبقريةٌ فنيةٌ أخرى بالمعنى الكامل للكلمة ، كما يعرفُهُ العارفونَ بآثاره.

● وبما ساقه الرافعي في نـقَدَاته ، وفيما صَرَفَ إليه وجوهَ القول ، من ذخائر المحفوظ ، ودقائق النظر والتَّـفْلِيَـةِ والتفتيش ، وفنونِ المقابلةِ بين النظائر والأشباه = تجلّى مؤرخُ الأدب وناقدُ الشعر في شخصيته الأدبية بأتم وأنفذ ما يُعْرَفُ من ذلك؛ وأبانت عن نفسها الروايـةُ المستطيلة الحاذقـة ، والمعرفةُ البصيرةُ بطبقات المعاني ووجوهِ تشقّق بعضها من بعض ، والرفقُ

(١) كتب الأستاذ محمود محمد شاكر كتابه (المتنبي) سنة (١٩٣٦) قبل وفاة الرافعي بسنة ، وقرظه الرافعي نفسه بكلمة بديعة كاشفة. ومن أجل الملكة العلمية الراسخة التي تجلّت في الكتاب ، وما فيه من عجيب الاستنباط ومن روعة البيان = نَحَى الدكتور فؤاد صروف ، بعلميته الراسخة هو أيضاً وبذوقه الأدبي ، ما دُفِعَ إليه من بحوث عن المتنبي ، وأفرد عدد (المقتطف) التذكاري لبحث الأستاذ وحده.

باللفظ والتلطفُ له ترفُّقَ شاعرٍ صانعٍ وتلطُّفَهُ ، لِيُبِيْنَ عن معناه الغائرِ في القلب الذي لا يُبِيْنُ عنه غيره ، والعلمُ بمتن اللغة وبعلوم العربية المعترضةِ في أدب كل أديبٍ شاعر أو ناثر ، والتي لابد منها لهذا الأدب ، غريزةً مفطورةً ، أو علماً مكتسباً ، يَقْدِرُ بها الأديبُ على مادته ، ويَصِحُّ له تصرفه في وجوه معانيه .

وبهذا كله كشفَ الرافعيُّ عما في شعر العقاد الذي تكلم عليه من وجوه الوهن والعيب ، مما لا يظهر لقارىء شعره الآخذ فيه من قريب .

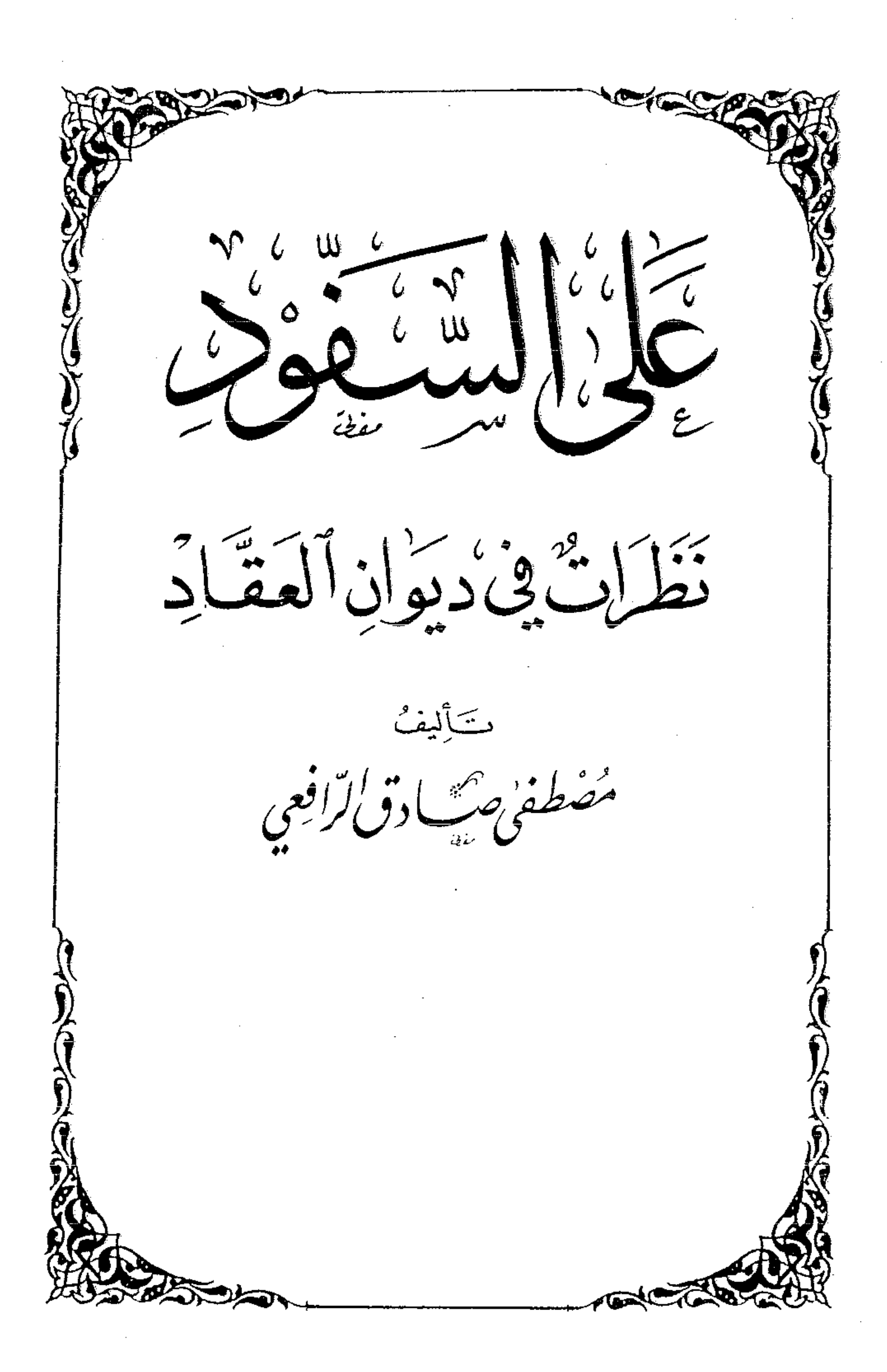
ومن أجل ما تهيأ له في نقده كانت أمنيةُ المتمني أنْ لو كان كلامُ الرافعي بريئاً مما خالطه من قوارص القول ، نفاسةً به أن يداخِلَ جوهرَهُ الكريمَ أدنى شيء .

وأما بعد :

فللقولِ المنصفِ في الرافعي والعقاد رحمهما الله مُنْتَدَحٌ واسعٌ ، وفضاءٌ عريض ، إذا أقبل عليه فارغٌ له لم يَكَدْ يَفْرَغُ منه . فكلا الرجلين عبقريةٌ على حِدَة ، لها نظامُها الباطنُ ، وأسلوبُها الذي تقبل به على الأشياء ، وكلاهما بحرٌ زاخر ، وأفقٌ من الفكر والأدب عظيم . وعلى أن من كمالِ الحالِ بالقياس إلى دارسٍ لهما ، راجٍ أن يَنْتَفِعَ بنفسه ، وأن يَنْفذَ في درسه إلى كريمٍ من الرأي يُنْتَفَعُ به ، أن يتجرد لذلك وُسْعَهُ ، حتى لو بقيتْ في نفسه بقيةٌ يَنْزِعُ فيها بالهوى ، من أجل أنه ليس الهوى هنا إلا شجَناً من شجَنِ الإنسان في الأرض، وإلا موضعاً في قلبه ليس لشيء عليه من نفاذٍ ولا سلطان .

وقد كانت بقيتْ بقيةٌ من القول فيما كان بين الرافعي والعقاد لها خَطَرٌ ، وأشياءُ من القولِ في بعض مادةِ هذا الكتاب من وجهٍ غَيْرِ الوجه الذي كنا فيه ، وأشياءُ أخر يَتِمُّ بها وَجْهُ الرأي ، ويَطَّرِدُ نَسَقُ التاريخ ؛ إلا أنا نُمْسِكُ عن هذا كلّه ، ونرجو أن يَسْتِقلَّ به موضعٌ آخَرُ إن شاء الله .

* *





إنَّ من الحَسَنِ أن تُسْتَـنْكَرَ المطاعن ، لأنها مَعِيبَـةٌ مشنـوءةٌ ، ولكـن ليس من الحَسَنِ أن تُـسْتَـنْكَرَ لأنهـا تـؤذي من لا يحفلـونَ يومـاً بإيـذاء إنسـان .

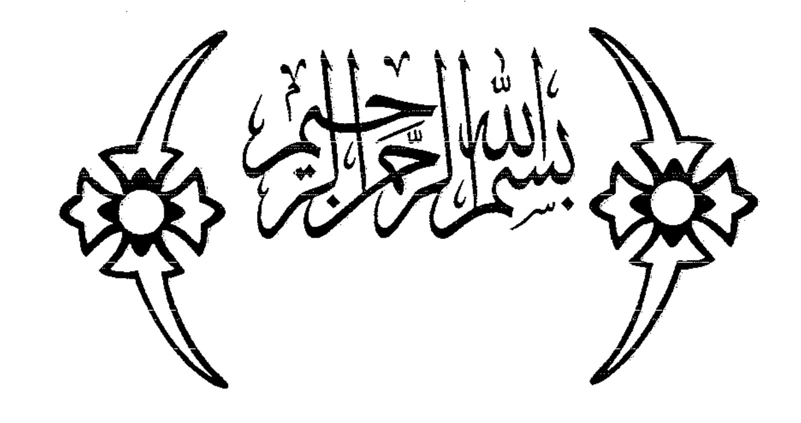
العقـاد

عسى أن يكونَ «السفود» مدرسة تهذيب لمن أخذتهم كبرياء الوهم ، ومثالاً يحتذيه الذين يريدون أن يحرروا بالنقد عقولَهم من عبادة الأشخاص .

إسماعيل مظهر

كتبنا مقالات «السفود» لهواً بالعقاد وأمثاله .

الرافعي



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فمنذ عهد الطائِيَّيْنِ أبي تمامٍ والبحتريِّ أخذ النقد الأدبي منحًى فيه جدة وفيه شدة، وامتزج بالهجاء والتهكم والسخرية، ودارت المعركة حول السرقات الأدبية، والإغراق في البديع، والإيغال في الصنعة، ولم يكتف النقاد بذلك بل تناولوا نسب أبي تمام وطعنوا في عربيته، وجعلوه ابن قِنٍّ يوناني، ولم يكن البحتري أحسن حالاً من أستاذه أبي تمام.

ثم بدأت الموازنة بينهما، لكنها لم تحسم الصراع، بل بقي هناك من يفضل أبا تمام على البحتري كالمعري (ت ٤٤٩) صاحب «ذكرى حبيب» و«عبث الوليد»، وبعضهم فضل البحتريَّ على أبي تمام.

ثم دارت معركة أشدُّ ضراوةً حول المتنبي، وافترق العلماء بين محب غال كابن جني (ت ٣٩٢) والمعري، ومبغضٍ قالٍ كالنامي (ت ٣٧١ أو ٣٩٩) والصاحب بن عباد (ت ٣٨٥)، وابن وكيع التنيسي (ت ٣٩٣)، والعميدي (٤٣٣)، ومن ورائهم ذيول من الشعراء الهجائين، ولم تُفِدْ «وساطة» الجرجاني في حسم هذه المعركة، وإنصاف المتنبي، بل بقيت الخصومة قائمة إلى اليوم، فهناك محب معجَب كالأستاذ محمود محمد

شاكر رحمه الله ، الذي ألف عن المتنبي ، سفراً جليلاً قلَّ نظيره في المكتبة العربية، وهناك من تظهر كراهيته للمتنبي من لحن قوله كطه حسين، ومنهم من يصِّرح بذلك كالدكتور أحمد كمال حلمي بك ، الذي ألف كتاباً عن المتنبي ألصق فيه كل نقيصة كالبخل والجبن والجشع والتذلل ، ونال عليه درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية القديمة[1] .

وعلى هذا النمط ألف الشاعر الناثر مصطفى صادق الرافعي كتابه «على السفود» في نقد «ديوان العقاد» والكتاب على الرغم مما فيه من قسوة بالغة وعبارات قاسية في حق العقاد، فإن فيه تذوقاً رفيعاً لأسرار العربية وأساليبها البيانية، ووقفات بديعة حول صناعة الشعر ونقده، ومعرفة غَثِّه من سمينه، كيف لا ، والكاتب شاعر متمكن من أدواته؟! وقديماً قالوا : القزاز يعرف ما لا يعرفه البزاز .

وكما أن العبارات القاسية التي كتبت عن أبي تمام والبحتري والمتنبي لم تمنع القراء من قراءتها ، والاستفادة مما فيها من آراء صائبة ونظرات ثاقبة . لولاها ما تقدم النقد الأدبي خطوةً واحدةً، فكذلك لا ينبغي أن نهملَ كتاب الرافعي هذا، لأنّ فيه عباراتٍ وكلماتٍ جارحةً في حق الأستاذ العقاد، فإن فيه أيضاً من الآراء النقدية ما هو جدير بالنشر والذيوع .

وبما أن تلك الكتب لم تحطَّ من قدر أبي تمام والبحتري والمتنبي، بل بقيت مكانتهم هي هي على عرش الشعر، فكذلك بقي العقاد هو هو كما عرفه أهل عصره ، لم ينل كتاب «على السفود» من مكانته الحقيقية، لأنه ـ في النهاية ـ لا يصح إلا الصحيح .

إن هذا الأسلوب من النقد الهجائي ، عرفه أيضاً النصف الأول من

(١) طبع في مطبعة الشباب (١٩٢١).

القرن العشرين، وكتبت فيه كتب كثيرة، منها كتاب العقاد «قمبيز في الميزان» حيث صبَّ العقاد جام غضبه على أمير الشعراء أحمد شوقي وشعره، وجرَّده من كل فضيلة[1]، وكذلك كتب الدكتور زكي مبارك يشنِّع على أحمد أمين في صفحات مجلة «الرسالة» من خلال مقالاته «جناية أحمد أمين على الأدب العربي» ، والتي جمعت في كتاب كبير .

ولو أردنا أن نهمل كل كتاب وردت فيه عبارات جارحة بحقِّ إنسان عزيز علينا كالأستاذ العقاد رحمه الله أو غيره ، لأسقطنا بذلك نصف الشعر العربي لأنه قيل في الهجاء، ولأسقطنا نصف المكتبة العربية، لأنه ما من كتاب إلا ونجد فيه بعض العبارات القاسية في حق عالم خالف المؤلف في رأيه أو عقيدته .

إذن علينا العمل بالقاعدة الذهبية التي تقول :

خُذْ من كتابيَ ما صفا ودعِ الَّذي فيه الكَدَرْ

ومنذ خلق الإنسان عرف الحبَّ والكراهية ، والصداقة والعداوة، ومع

(١) انظر حديث العقاد عن الشعر في مصر في كتابه «ساعات بين الكتب» (١٠٢ ـ ١٣٤).
قال الأستاذ عبد المنعم شميس في كتابه «شخصيات في حياة شوقي» ص (١٠٧) :
عندما أقيمت حفلة الأوبرا لتنصيب شوقي أميراً للشعراء ، كان رئيس الشرف هو سعد زغلول ، كتب العقاد مقالاً افتتاحياً في جريدة «البلاغ» قال فيه : «إن الأمة التي تحتفل بشوقي لا تعرف معنى الكرامة». فدعاه سعد إليه وقال له : كان يجب يا أستاذ أن تلاحظ أن الحفلة تحت رياستي. فقال العقاد: أنت لا تعرف الشعر يا باشا. فقال: أنا لا أعرف الشعر وإنما أعرف الذوق ، وأحب أن تكون هذه اخر مرة تزور فيها بيت سعد زغلول! .

العداوة نشأ فنُّ الهجاء، وتفنَّن الناس فيه، واعتبره النقاد أقوى الأنواع الشعرية، لأنه صادق التعبير عن نفسية قائله ومشاعره ، فالإنسان قد ينافق في المدح والرثاء، ولكن لا يتصور أن ينافق في الهجاء.

فالمتنبي مدح كافوراً ، ولم يصدِّق أحدٌ هذا المدح، ثم هجاه ، فكان صادقاً في كل كلمة منه.

وللناس ولع بالاطلاع على عثرات الآخرين ، وتتبع عوراتهم ومثالبهم، ولا شيءَ يكشف لهم ذلك كالهجاء، ومن هنا كانت قصائد الهجاء أكثر سيرورة على الألسنة من غيرها، ألا ترى أن أهاجي كافور حفظها الناس ومدائحه بقيت حبيسة الكتب؟!

وكتاب «على السفود» فيه من الجدة والعلم والأصالة ما يستحق إعادة نشره، والإغضاءَ عما فيه مما لا يرضي أذواق الناس، وأرغب إلى الإخوة الأعزاء من محبي العقاد ـ وأنا منهم ـ أن يستبدلوا باسم العقاد زيداً من الناس كلَّما مر بهم اسم العقاد ، ولولا الأمانة العلمية لفعلت ذلك. أو أن يحملوا ما فيه على الهزل والدعابة[1].

عملي في الكتاب:

١ ـ تصحيح النص من الأخطاء المطبعية، ووضع علامات الترقيم، وضبط ما يحتاج الضبط، وخاصة أبيات الشعر، فقارىء اليوم غير قارىء الأمس.

٢ ـ ترجمت للرافعي[2].

---

(١) لم أترجم للعقاد في هذا الكتاب، وإنما أحيل القارىء على الترجمة الرائعة للعقاد التي كتبها الدكتور شوقي ضيف في كتابه «مع العقاد» الذي نشر ضمن سلسلة إقرأ.

(٢) انظر ص (٥٩).

٣ ـ وضعت بين يدي الكتاب «مقدمة في الشعر» بقلم الرافعي ، كتبها عام (١٩٠٤) أي قبل ربع قرن من كتابه هذا، وجعلها مقدمةً لديوانه.

٤ ـ ألحقتُ بالكتاب:

١ ـ سفوداً صغيراً: وهو رد الدكتور زكي مبارك على عباس محمود العقاد.

٢ ـ قصيدة للشاعر الشيخ أحمد الزين ، يبين فيه منزلة الشعراء المحدَثين في مصر، وتكلَّم فيها عن شعر الرافعي وشعر العقاد وغيرهما.

٣ ـ قصة عبث طه حسين بالعقاد حين بايعه بإمارة الشعر، وصدى هذه البيعة.

٥ ـ فهرس الكتاب.

وأخيراً أتوجه بالشكر إلى الأستاذ الكبير والأخ الحبيب الدكتور عز الدين البدوي النجار على مقدمته البديعة التي زين بها الكتاب[1]، وهي بحق أهم ما كُتِبَ عن الرافعي ـ رحمه الله تعالى ـ منذ نصف قرن فجزاه الله خير الجزاء ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

دمشق ٢٥/ ٩/ ١٤٢٠	**وكتبه**
١/١/ ٢٠٠٠	**حسن السماحي سويدان**

---

(١) كتب التصدير بعد الفراغ من الفهارس فلم يدخل فيها ، وسأستدرك ذلك في الطبعة القادمة إن شاء الله تعالى.

مصطفى صادق الرافعي

(١٢٩١ ـ ١٣٥٦هـ ـ ١٨٨٠ ـ ١٩٣٧م)

هو مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن عبد القادر الرافعي ينتهي نسبه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

والأسرة الرافعية من أشهر الأسر العلمية في مصر، قدم جد الأسرة الشيخ عبد القادر من طرابلس الشام إلى مصر في منتصف القرن الثالث عشر الهجري، وعليه تخرّج كبار علماء مصر كالشيخ البحراوي الكبير والشيخ محمد بخيت المطيعي، وقد نبغ من هذه الأسرة عدد كبير من العلماء والقضاة والأدباء والمؤرخين.

في قرية بهتيم في محافظة القليوبية ولد فيلسوف القرآن وإمام البيان مصطفى صادق الرافعي في أوائل المحرم سنة (١٢٩١) الموافق لكانون الثاني يناير (١٨٨٠).

كان والد الرافعي رئيساً للمحاكم الشرعية في كثير من الأقاليم، وهو واحد من أحد عشر أخاً اشتغلوا بالقضاء، وآخر منصب شغله هو رئيس محكمة طنطا الشرعية، وكان رحمه الله تعالى ورعاً صلباً في دينه، شديداً في الحق، توفي في طنطا ودفن فيها.

وأم الرافعي هي ابنة الشيخ الطوخي، حلبية الأصل، كان والدها تاجراً

تسير قوافله بالتجارة بين مصر والشام، وقد أقام في قرية بهتيم.

كان منزل القاضي عبد الرزاق أزهرَ صغيراً بما يتردد إليه من أجلة العلماء، ولما يحويه من نفائس الكتب، وقد عني هذا الوالد بابنه مصطفى الذي أتم حفظ القرآن ولم يبلغ العاشرة من عمره، إضافة لما تعلمه من ثقافة دينية ولغوية رفيعة.

انتسب الرافعي إلى مدرسة دمنهور الابتدائية، ثم انتقل إلى مدرسة المنصورة الأميرية، التي نال منها الشهادة الابتدائية، وعمره آنذاك سبع عشرة سنة، وبعد ذلك أصابه مرض لم يبارحه حتى ترك حبسة في صوته، ووقراً في سمعه، فترك التعليم الرسمي، وعكف على التحصيل الشخصي في مكتبة أبيه، ومكاتب طنطا المشهورة، ينهل من كنوزها، وما مضى إلا قليل حتى استوعبها، وأحاط بما فيها، وبذلك اجتمعت للرافعي العبقري كلُّ أسباب المعرفة والاطلاع، إلا أن ثقل سمعه ازداد حتى إذا بلغ الثلاثين من عمره أصبح أصم لا يسمع شيئاً.

وفي عام (١٨٩٩) عين الرافعي كاتباً في محكمة طنطا، ثم انتقل إلى محكمة طنطا الشرعية، ثم إلى المحكمة الأهلية، وبقي في عمله هذا إلى أن لقي وجه ربه الكريم.

الرافعي الشاعر

كَلِفَ الرافعي بالشعر من أول نشأته، وتزود له زاده من الأدب القديم، ووعى ما وعى من تراث شعراء العربية، وبدأ الرافعي يقول الشعر ولم يبلغ العشرين، وفي عام (١٩٠٣) أصدر ديوانه الأول، وقدم له بمقدمة بديعة قال عنها الشيخ إبراهيم اليازجي: وقد صدّره (أي الديوان) الناظم بمقدمة طويلة في تعريف الشعر ذهب فيها مذهباً عزيزاً في البلاغة، وتبسّط ما شاء في وصف الشعر وتقسيمه وبيان مزيته ـ في كلام تضمّن من فنون المجاز

وضروب الخيال ما إن تدبرته وجدته الشعر بعينه».

وكان لديوان الرافعي الأثر الطيِّب في نفوس شعراء مصر وعلمائها وأدبائها فكتبوا إليه يهنئونه بهذا النجاح.

قال الشاعر محمود سامي البارودي:

لمصطفى صادقٍ في الشعر منزلةٌ
أمسى يعاديه فيها من يصافيهِ

حاز الكمالَ فلم يحتجْ لمنقبةٍ
فلستَ تنعتُه إلا بما فيهِ

وقال الشاعر عبد المحسن الكاظمي:

شعرك يا مصطفى لصافيةٌ
بحورُه كل وردها عَذْبُ

إن تُنْتَخَبْ من سواكَ قافيةٌ
فذي قوافيكَ كلُّها نُخَبُ

وقال الشاعر حافظ إبراهيم:

إيه يا رافعيُّ أحسنتَ حتى لا أرى محسناً بجنبك شيّا

وكتب إليه الشيخ الإمام محمد عبده:

ولدنا الأديب الفاضل مصطفى أفندي صادق الرافعي زاده الله أدباً.

لله ما أثمر أدبك، ولله ما ضَمِنَ لك قلبُك، لا أقارِضُكَ ثناءً بثناءٍ، فليس ذلك شأن الآباء مع الأبناء، ولكنّي أعدُّك من خُلَّص الأولياء، وأقدِّم صفَّكَ على صفِّ الأقرباء، وأسألُ الله أن يجعلَ للحق من لسانِك سيفاً يمحقُ الباطلَ، وأن يُقيمَكَ في الأواخر مقام حسّان في الأوائل. والسلام.

٥/ شوال/ ١٣٢١ محمد عبده

وكتب إليه زعيم مصر مصطفى كامل باشا يقول:

«سيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعيُّ قال الناس:
هو الحكمة العالية مَصْوُغَةً في أجملِ قالبٍ من البيان».

وفي عام (١٩٠٤) أصدر الرافعي الجزء الثاني من الديوان، وفي عام (١٩٠٦) أصدر الجزء الثالث، أما الجزء الرابع فلا يزال مخطوطاً إلى اليوم.

وفي عام (١٩٠٨) أصدر الجزء الأول من ديوان النظرات.

هذا وليس كل شعر الرافعي في دواوينه، فالجيد الذي لم ينشر أكثر مما نشر.

الرافعي في بيتـه

في عام (١٩٠٤) تزوج الرافعي من فتاة من أسرة البرقوقي، وهي أخت الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي الأديب الكاتب المشهور صاحب مجلة «البيان» وكان الرافعي يعيش في بيته عيشة مثالية عالية، فهو زوج كما يجب أن يكون الزوج، وأب كما ينبغي أن يكون الأب، يتصاغر لأولاده ويلاغيهم ويدللهم، ويبادلهم حباً بحب، دون أن ينسى واجب التهذيب والرعاية والإرشاد، ناصحاً برفق، مؤدباً بشدة أحياناً.

الرافعي وآداب العرب

نشرت الجامعة المصرية إعلاناً تدعو الأدباء إلى تأليف كتاب في تاريخ الأدب العربي، جعلت جائزته مئتي جنيه وضربت أجلاً لتقديمه سنتين، وتعهدت بطبع الكتاب.

انقطع الرافعي لتأليف كتاب «تاريخ آداب العرب» من منتصف سنة (١٩٠٩) إلى آخر سنة (١٩١٠) وفي سنة (١٩١١) طبع الكتاب على نفقته قبل أن يحل الأجل الذي عينته الجامعة.

قال الأستاذ أحمد لطفي السيد عن كتاب الرافعي «تاريخ آداب العرب»:

قد قرأنا هذا الجزء، فأما نحوه فعليه طابع الباكورة في بابه، يدل على أن مؤلفه قد ملك موضوعه ملكاً تاماً، وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفاً حسناً، وليس من السهل أن تجتمع له الأغراض التي بسطها في هذا الجزء إلا بعد درس طويل، وتعب ممل . .

أما أسلوب الرافعي في كتابه فإنه سليم من الشوائب الأعجمية التي تقع لنا في كتاباتنا نحن العرب المتأخرين، فكأني وأنا أقرؤه أقرأ من قلم المبرّد في استعماله المساواة، وإلباس المعاني ألفاظاً سابغة مفصلة عليها، لا طويلةً تتعثر فيها، ولا قصيرةً عن مداها تؤدي بعض أجزائها.

وقالت عنه مجلة «المقتطف»: «إنه كتاب السنة» ولم تقل مثل هذه الكلمة من قبل ومن بعد لغير هذا الكتاب، كل هذا والرافعيُّ يومئذٍ قد أتم الثلاثين.

في عام (١٩١٢) أصدر الجزء الثاني من «تاريخ آداب العرب» وموضوعه إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، وهو الذي طبع فيما بعد تحت هذا العنوان، وإثر ذلك كتب إليه سعد زغلول يقول:

حضرة المحترم الفاضل الأستاذ مصطفى صادق الرافعي:

تحدى القرآنُ أهلَ البيانِ في عبارات قارعةٍ محرجةٍ، ولهجةٍ واخزةٍ مُرْغمةٍ، أن يأتوا بمثله، أو سورة منه، فما فعلوا، ولو قدروا ما تأخّروا، لشدة حرصهم على تكذيبه، ومعارضته بكل ما ملكت أيمانهم، واتسع له إمكانهم.

هذا العجز الوضيع بعد ذاك التحدي الصارخ هو أثر تلك القدرة الفائقة، وهذا السكوت الذليل عند ذلك الاستفزاز الشامخ هو أثر ذلك الكلام العزيز.

ولكن قوماً أنكروا هذه البداهة، وحاولوا سترها، فجاء كتابكم «إعجاز القرآن» مصدِّقاً لآياتها، مكذباً لإنكارِهم، وأيد بلاغة القرآن وإعجازه بأدلة

مشتقة من أسرارها، في بيانٍ يستمد من روحها، بيانٍ كأنه تنزيلٌ من التنزيل، أو قبسٌ من نورِ الذكر الحكيم.

فلكم على الاجتهاد في وضعه، والعناية بطبعه، شكرُ المؤمنين، وأجرُ العاملين، والاحترام الفائق.

سعد زغلول

ومن ذلك اليوم انكشف للناس أن الرافعي أديب ليس مثله في العربية، وأنه كاتب من الطراز الأول بين كتابها، وأنه صاحب القلم الذي يكتب في إعجاز القرآن فيعجز، ويتحدث عن الإسلام حديث المؤمن للمؤمن.

لقد عَرف الرافعي من يومئذ أن عليه رسالة يؤديها، وأن له غاية أخرى هو عليها أقدر، وبها أجدر، فجعل الهدف الذي يسعى إليه أن يكون لهذه العربية حارساً وحامياً، يدفع عنها أسباب الزيغ والفتنة والضلال، وأن ينفخ في هذه اللغة روحاً من روحه، فيردها إلى مكانها، ويردّ عنها، فلا يجترىء عليها مجترىء، ولا ينال منها نائل، ولا يتندّر بها ساخر، إلا انبرى له يبدد أوهامه، ويكشف دخيلته[1].

في عام (١٩١٢) وبعد رحلة إلى لبنان ألف كتابه «حديث القمر» يصف فيه عواطف الشباب، وخواطر العشاق في أسلوب رمزي على ضرب من النثر الشعري.

كتاب المساكين

وقعت الحرب العالمية الأولى، وأرسلت إلى مصر الفقر والجوع والغلاء، فلم يكُ ضحاياها في مصر أقلَ عدداً من ضحاياها في ميادين

(١) انظر مقالة «جملة قرآنية» في كتابه «تحت راية القرآن» (٢٤) وقد نشرت مستلة في دار القادري.

الحروب، لقد صودرت أقوات الشعب المصري، وحُملت إلى المتحاربين، وترك الناس يتضورون جوعاً، ويعانون منه أشد المعاناة.

كان الرافعي وهو الشاعر المرهف الحس، الرقيق القلب، القوي العاطفة، يرى هذا فتنفعل به نفسه، وتتحرك خواطره، ويتفطر قلبه، فأثرت فيه مناظر البائسين، وأحوال المساكين، فكان من كل ذلك «كتاب المساكين» الذي نشره عام (١٩١٧) وقد قال عنه شيخ العروبة أحمد زكي باشا: «ولقد جعلتَ لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير، وهيجو كما للفرنسيين هيجو، وجوته كما للألمان جوته».

وفي عام (١٩٢٣) أخرج «رسائل الأحزان»[1] وهي خواطر عن الحب في كتاب فريد في العربية في أسلوبه ومعانيه وبيانه الرائع.

وبعد ذلك أخرج كتاب «السحاب الأحمر» وهو كتاب يتحدّث عن فلسفة البغض وطيش الحب.

وبعد ذلك أخرج كتاب «أوراق الورد» وفيه حنين العاشق المهجور، ومنية المتمني، وذكريات السالي، وفنُّ الأديب، وشعر الشاعر.

«تحت راية القرآن»

رأى الرافعي في دعوى التجديد ذريعةً للنيل من العربية في أرفع أساليبها، وسبيلاً إلى الطعن في القرآن الكريم وإعجازه، وباباً للزراية بالتراث منذ كان للعرب شعر وبيان[2]، ومن ذلك اليوم نشط يجاهد هذه

(١) يقول الرافعي: هو كتاب وضعناه في فلسفة الجمال والحب، ثم وضعنا له «السحاب الأحمر» تكملةً، فهما كالكتاب الواحد، انظر «تحت راية القرآن» (٢٤).

(٢) انظر مقال الأمير شكيب أرسلان «ما وراء الأكمة» في كتاب الرافعي الآنف الذكر (٣١) وفيه كشف الأمير الغطاء عمن يدَّعون التجديد فإذا هو=

الدعوى، ووقف قلمه لتفنيدها، وكشف دخيلتها وغاياتها الحقيقية، وما كان عمله ذلك إلا جهاداً تحت راية القرآن، فمن ثَمَّ كان الاسم الذي جمع به كل ما كتب عن المعركة بين القديم والجديد، والكتاب من خير ما أبدعت العربية في النقد، وأحسن مثال في مكافحة الرأي بالرأي، مع الاطلاع الواسع والفكر الدقيق، ويأتي هذا الكتاب بعد كتاب «وحي القلم» من حيث المكانة بين كتب الرافعي.

الرافعي والرسالة

كان عمل الرافعي في الرسالة نقلةً بعيدةً؛ لأنّ فكره وأسلوبه ارتقى إلى الذروة، وزال عنه ما ادعاه بعض خصومه من الغموض في أسلوبه، وبدأ ذلك في ربيع سنة (١٣٥٣ ـ ١٩٣٤) وظل يكتب للرسالة في كل أسبوع مقالة أو قصة، وقد أجمع علماء العصر وأدباؤه على أن مقالات الرافعي في «الرسالة» هي من أبدع ما كتب في العربية على مدى تاريخها الطويل، وقد جمع رحمه الله تعالى معظم هذه المقالات في كتابه «وحي القلم» الكتاب الخالد، الذي لا يمكن أن نوفّيه حقه بكلمة موجزة[1].

وفاته

في يوم الاثنين (١٠/٥/١٩٣٧) استيقظ الرافعي مع الفجر كعادته كل يوم، فتوضأ وصلّى، وجلس في مصلاه يسبِّح ويدعو، ويتلو قرآن الفجر، وأحس بعد لحظة حرقة في معدته، فتناول دواءً، وعاد إلى مصلاه، ومضت ساعة، ثم نهض، فلما كان في البهو سقط على الأرض، فهب أهل الدار،

= تجديف وهرطقة.

(١) انظر كلمة الدكتور عبد الوهاب عزام عن «وحي القلم» في مقدمة كتاب «قصص من التاريخ» للرافعي، وهي مجموعة القصص التاريخية في «وحي القلم» وقد جمعتُها وعلقت عليها، وهي من منشورات دار ابن كثير.

فوجدوه جسداً فارقه الروح إلى بارئه ، وحُمل جثمانه بعد الظهر ليوارى الثرى في مقبرة العائلة بين أبويه .

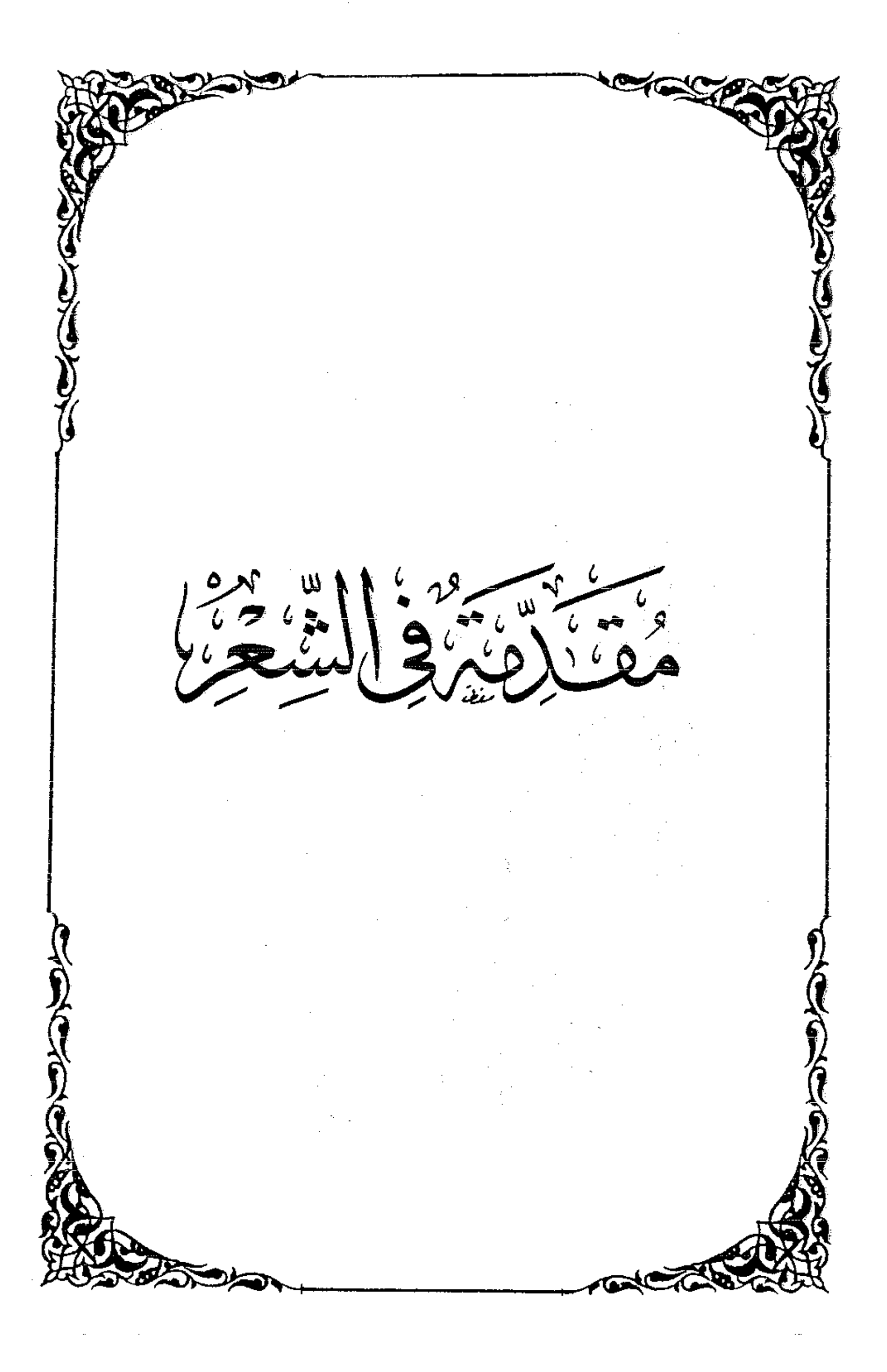
أمضى الرافعي في الوظيفة ثمانياً وثلاثين سنةً، ومات ولم يتجاوز السابعة والخمسين من العمر .

لقد كان الرافعي صاحب دعوة إلى العربية والإسلام، يدعو إليها، فحقه على العربية وحق العربية على أدبائها، وحق الإسلام على أهله، أن نجدد دعوة الرافعي ونعلي ذكره، وننشر رسالته ، ونُـعْنَى بآثاره، فإذا نحن وُفِّقنا إلى ذلك، فقد وفَّينا له بعض الوفاء[1] .

* * *

---

(١) محمد سعيد العريان: «حياة الرافعي» باختصار.



فيلسوف القرآن وإمام البيان
مصطفى صادق الرافعي



أولُ الشّعرِ اجتماعُ أسبابِه، وإنما يُـرْجَعُ في ذلك إلى طَبْعٍ صَقلتْـهُ الحكمةُ، وفكرٍ جلا صفحَتَه البيانُ، فما الشِّعرُ إلا لسانُ القَلْبِ إذَا خاطَبَ القلبَ، وسفيرُ النفسِ إذا ناجتِ النفسَ، ولا خيرَ في لسانٍ غيرِ مبينٍ، ولا في سفيرٍ غيرِ حكيم.

ولو كَانَ طيراً يغرِّدُ لكانَ الطبعُ لسانَـهُ، والرأسُ عشّهُ، والقلبُ روضتهُ، ولكان غناؤهُ ما تسمعهُ من أفواهِ المجيدينَ مِنَ الشعراءِ، وحسبُكَ بكلامٍ تَـنْصَرِفُ إليهِ كُلُّ جارحةٍ، وتضمُّ عليهِ كلُّ جانحة، ويجيءُ مِنْ كلِّ شيءٍ حتى لتحسَبَ الشعراءَ مِنْ النحلِ، تأكلُ من كلِّ الثمراتِ فـ ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

وكأنما هو بقيةٌ من منطقِ الإنسان، اختبأتْ في زاويةٍ من النفسِ، فما زالتْ بها الحواسُّ حتى وزنتْها على ضرباتِ القلبِ، وأخرجتْها بعدَ ذلكَ ألحاناً بغيرِ إيقاعٍ، ألا تراها ساعةَ النَّظْمِ كيفَ تتفرَّعُ كلُّها، ثم تتعاونُ، كأنما تبحثُ بنورِ العقلِ عن شيءٍ غابَ عنها في سويداءِ الفؤادِ وظلماتِه، لذلك كانَ أحسنُ الشّعرِ ما تتغنّى به قبلَ عملِه، وهي طريقـةٌ تفنَّـنَ فيها الشعراء، حتى كـانَ الحطيئـةَ يحنُّ في أثرِ القوافي عُواءَ الفصيلِ في أثرِ أمه.

وترى المُجيدَ من أهلِ الغِناءِ إذا رَفَعَ عقيرَتَهُ[1] يتغنّى، ذهبَ في التحرُّكِ مذاهبَ، حتى كأنّما ينتزعُ كلَّ نغمةٍ من موضعٍ في نفسِه، فيتألَّفُ من ذلك صَوْتٌ إذا أجالَ حلَقَهُ فيه، وقعتْ كلُّ قطعةٍ منه في مِثْلِ موضعِها من كلِ مَنْ يسمعُ، فلا يلبَثُ أنْ يستفزَّهُ طربُهُ، كأنما انجذبَ قلبُهُ، وتصبو نفسُهُ، كأنما

(١) قوله (عقيرته) أي صوته، والعقيرة في اللغة هي الرِّجل، وأصل الكلمة: أن رَجُلاً قطعت رجله، فرفعها، وصرخ بأعلى صوتـه، فقـالوا: رفع عقيرته، وشاع هذا الاستعمال حتى أُطْلِقَتْ العقيرة على الصوت.

أُخِذَ حسُّهُ، لا فرقَ في ذلك بين أعجميٍ وعربيٍ، ومن أجلِ هذا تَرَى أحسنَ الأصواتِ يغلُبُ على كلِّ طبعٍ، وإنما الشاعرُ والمغنِّي في جذبِ القلوبِ سواءٌ، وفي سحرِ النفوسِ أَكْفاءٌ، إلا أنَّ هذا يوحي إلى القلب، وذاكَ ينطِقُ عنه، أحدُهما يفيضُ عليهِ، والثاني يأخذُ منهُ. والويلُ لكليهما إذا لمْ يُطْرِبْ هذا، ولم يُعْجِبْ ذاكَ.

* * *

والشعرُ موجودٌ في كلِ نفسٍ من ذكرٍ وأنثى، فإنكَ لَتَسْمَعُ الفتاةَ في خِدْرِها، والمرأةَ في كِسْرِ بيتِها، والرّجُلَ وقد جَلَسَ في قومِهِ، والصبيَّ بينَ إخوتِـهِ، يقصُّوْنَ عليكَ أضغاثَ أحلامٍ، فتجدُ في أثناءِ كلامِهم مِنْ عَبَقِ الشعرِ ما لو نسمتَهُ لفغَمَكَ[1]، وحسبُكَ أنْ تَكْسِرَ وسادك، تتحدَّثُ إليهم، فتراه طائراً بين أمثالهم، وفي فلتاتِ ألسنتِهِم، وهو كأنما قَدْ ضلَّ أعشاشَه.

ولقد نبغَ فيه من نساءِ هذه الأمةِ شموسٌ سطعنَ في سماءِ البيانِ، وطلعنَ في أفقِ البلاغةِ، ولا يزالُ الناسُ إلى اليوم، يَـرْوُوْنَ للخنساءِ وجَنوبَ وعَليةَ وعنانَ ونزهونَ وولّادةَ وغيرهنَّ، وبحسبكَ قولُ النواسيِّ[2]: ما قلتُ الشعرَ حتى رويتُ لستينَ امرأةً، منهنَّ الخنساءُ وليلى.

ولو كانَ الشعرُ هذه الألفاظَ الموزونةَ المقفَّاةَ لَعددناهُ ضَرْباً من قواعدِ الإعرابِ، لا يعرفهاإلا مَنْ تعلّمها، ولكنه يتنزَّلُ من النفسِ منزلةَ الكلامِ لكلِّ إنسانٍ ينطِقُ به، ولا يقيمُهُ كلُ إنسانٍ.

وأما ما يعرِضُ له بعدَ ذلكَ من الوزنِ والتقفيةِ فكما يعرِضُ للكلامِ من استقامةِ التركيبِ والإعرابِ، وإنكَ إنما تمدَحُ الكلامَ بإعرابِهِ، ولا تمدحُ الإعرابَ بالكلامِ.

---

(١) فغمه الطيب: سدَّ خياشيمه.
(٢) [أبو نواس الحسن بن هانيء]

ولم أقرأ فيه أجمعَ مِن قول حكيم العصر، وإمام الافتاء في مصر[1]: لو سألوا الحقيقة أن تختار مكاناً تشرف منه على الكونِ لما اختارت غير بيت من الشعر، ولا فيما قالوه في الشعراء أجمعَ من قول كعب الأحبار الشعراء أناجيلهم في صدورهم تنطِقُ بالحكمة.

ولم يكنْ لأوائلِ العربِ من الشعراءِ إلا الأبياتُ يقولُها الرجلُ في الحاجةِ تعرِضُ له، كقولِ دويدِ بن زيدٍ حينَ حضرَه الموتُ، وهو من قديم الشعرِ العربي:

اليـومَ يُبْنَـى لِـدُوَيْـدٍ بَيْتُـهُ ... لـو كـانَ للـدَّهْـرِ بِلـىً أَبْلَيْتُـهُ
أوْ كانَ قِرْني وَاحِداً كفيتُه

وإنما قُصِّدتِ القصائدُ على عهدِ عبدِ المطلبِ أو هاشمِ بنِ عبدِ مناف.

وهناكَ رفعَ امرؤُ القيسِ ذلك اللواءَ، وأضاءَ تلك السماءِ التي ما طاولَتها سماءٌ، وهو لم يتقدمْ غيرَه إلا بما سبقَ إليه، مما اتبعَهُ فيهِ مَنْ جاءَ بعدَهُ.

فهوَ أولُ من استوقفَ على الطلولِ، ووصفَ النساءَ بالظباءِ والمهى والبيضِ، وشبَّهَ الخيلَ بالعقبانِ والعصي، وفرّقَ بينَ النسيبِ وما سواهُ من القصيدةِ، وقرَّبَ مآخِذَ الكلامِ، وقيَّدَ أوابده، وأجاد الاستعارة والتشبيه، ولقد بلغ منه أنّه كان يتعنَّتُ علىَ كلِّ شاعر بشعره.

ثم تتابعَ القارضون من بعدِهِ، فمنهم من أسهبَ فأجادَ، ومنهم من كبا كما يكبو الجواد، وبعضهم كان كلامُه وحي الملاحظِ، وفريقٌ كانَ مثلَ سُهيلٍ في النجومِ، يعارِضُها ولا يجري مَعَها.

ولقد جدّوا في ذلكَ حتى إنَّ منهم من كانَ يَظُنُّ أن لسانَهُ لو وُضِعَ على الشّعرِ لحلقَهُ. أو الصخرِ لفلقَهُ.

---

(١) محمد عبده.

ذلك أيامَ كان للقولِ غررٌ في أوجهٍ ومواسمَ، بل أيامَ كان من قَدَرِ الشعراءِ أن تغلِبَ عليهم ألقابُهم بشعرِهم، حتى لا يُعْرَفون إلا بها: كالمرقِّشِ، والمهلهِلِ، والشريدِ، والممزِّقِ والمتلمِّسِ، والنابغةِ، وغيرهم، ومن قَدْرِ الشِّعرِ أنْ كانتْ القبيلةُ إذا نبغَ فيها شاعرٌ أتتِ القبائلُ فهنأتْها بذلك، وصُنعتِ الأطعمةُ، واجتمع النساءُ يلعبنَّ بالمزاهرِ كما يصنعنَ في الأعراسِ، وأيامَ كانوا لا يهنِّئون إلا بغلامٍ يولَدُ، أو شاعرٍ ينبُغُ، أو فرسٍ تنتَجُ، وكانتِ البناتُ ينفقنَ بعد الكسادِ إذا شبَّبَ بهنّ الشعراءُ[1].

* * *

ولم يترك العربُ شيئاً مما وقعتْ عليه أعينُهم، أو وقعَ إلى آذانِهم، أو اعتقدوهُ في أنفسِهِم إلا نظموهُ في سِمطٍ من الشعرِ، وادَّخروهُ في سَفَطٍ من البيانِ، حتى إنك لترى مجموعَ أشعارِهم ديواناً فيه من عوائدِهم وأخلاقِهم وآدابِهم وأيامِهم، وما يستحسنونَ ويستهجنونَ حتى من دوابِّهم، وكان القائلُ منهم يستمدُّ عفوَ هاجِسِه، وربّما لفظَ الكلمةَ تحسبُها من الوحي، وما هي من الوحي، ولم تكن تفاضِلُ بينهم إلا أخلاقُهم الغالبةُ على أنفسِهم.

فزهيرٌ أشعرُهم إذا رغبَ، والنابغةُ إذا رَهِبَ، والأعشى إذا طَرِب، وعنترةُ إذا كَلِبَ[2]، وجريرٌ إذا غَضِبَ وهلمَّ جرا.

ولكلِّ زمنٍ شعرٌ وشعراءُ، ولكلِّ شاعرٍ مرآةٌ من أيامه، فقد انفردَ امرؤ القيسِ بما علمتَ، واختُصَّ زهيرٌ بالحوليات، واشتهرَ النابغةُ بالاعتذاراتِ، وارتفعَ الكُمَيْتُ بالهاشمياتِ، وشمخَ الحطيئةُ بأهاجيهِ، وساقَ جريرٌ

(١) [كما حصل بين الأعشى والمحلق].

(٢) [شدَّ في الحرب].

قلائِصَهُ، وبرز عديٌّ في صفاتِ المطيةِ، وطفيلٌ في الخيلِ، والشمَّاخُ في الحمير، ولقد أنشدَ الوليدَ بن عبدِ الملكِ شيئاً من شعرهِ فيها، فقالَ: ما أوصفَهُ لها إنّي لأحسبُ أنّ أحدَ أبويه كانَ حماراً..

وحَسْبُكَ من ذي الرُّمةِ رئيسِ المشبهينَ الإسلاميين أنّه كان يقولُ: «إذا قلتُ كأنَّ، ولم أجدْ مخلصاً منها، فقَطعَ اللهُ لساني».

ولقد فتنَ الناسَ ابنُ المعتزِ بتشبيهاتِهِ، وأسكرَهُم أبو نواس بخمرياتِه، ورقّتْ قلوبُهم على زهدياتِ أبي العتاهيةَ، وجرت دموعُهم لمراثي أبي تمام، وابتهجتْ أنفسُهم بمدائحِ البحتريِّ، وروضياتِ الصنوبريِّ، ولطائفِ كُشَاجِم.

فمن أرْجَعَ بصرَه في ذلكَ، وسلكَ في الشعرِ ببصيرةِ المعريِّ، وكانتْ له أداةُ ابنُ الروميِّ، وفيه غزلُ ابن أبي ربيعة، وصبابةُ ابنِ الأحنفِ، وطبعُ ابن بردٍ، وله اقتدارُ مسلمٍ، وأجنحةُ ديكِ الجنِ، ورقّةُ ابن الجهمِ، وفخرُ أبي فراسٍ، وحنينُ ابن زيدونٍ، وأَنَفَةُ الرَّضِيِّ، وخطراتُ ابنُ هانيءٍ، وفي نفسِه مِنْ فُكاهة أبي دُلامة، ولَعينيهِ بصرُ ابنِ خَفَاجةَ بمحاسنِ الطبيعة، وبين جنبيهِ قلبُ أبي الطيب ـ فقدِ استحقَّ أنْ يكونَ شَاعرَ دهرِه، وصنّاجةَ عصرِهِ.

ولا يهولَنَّكَ ذلكَ إذا لم تستطع عدَّ الشعراءِ الذينَ انتحلوا هذا الاسمَ، وألحقوهُ بأنفسهم إلحاقَ الواو بعمرٍو، فكلُّهم أمواتٌ غيرُ أحياءٍ وما يشعرون.

* * *

وأبرعُ الشعراءِ مَنْ كان خاطِرُهُ هدفاً لكلِّ نادرةٍ، فربّما عرضتْ للشاعرِ أحوالٌ مما لا يعني غيره، فإذا علقَ بها فكرُهُ، تمخَّضَتْ عن بدائع من الشعر، فجاءتْ بها كالمعجزاتِ، وهي ليستْ من الإعجازِ في شيءٍ، ولا فَضْلَ للشّاعرِ فيها إلا أنه تنَبَّهَ لها. ومَنْ شدَّ يدَهُ على هذا جاءَ بالنادر من حيثُ لا يتيسرُ لغيرِه، ولا يقدِرُ هو عليه في كل حينٍ.

وَلَيْسَ بشاعرٍ مَنْ إذا أنشدَكَ لم تحسبْ أنَّ سمعَهُ مخبوءٌ في فؤادكَ، وأنّ عينَكَ تنظرُ في شغافهِ، فإذا تغزَّلَ أضحككَ إن شاءَ، وأبكاكَ إن شاءَ، وإذا تحمَّسَ فزعتَ لمساقطِ رأسكَ، وإذا وَصَفَ لك شيئاً هَمَمْتَ بِلَمْسه، حتى إذا جئْـتَـهُ لم تجدهُ شيئاً، وإذا عَتِبَ عليكَ جعلَ الذّنْبَ لكَ ألزمَ من ظِلِّك، وإذا نَـثَـلَ كنانتَـهُ رأيْتَ من يَـرْمِيْهِ صريعاً لا أثَـرَ فيهِ لقذيفَـةٍ ولا مُـديـةٍ، ولكنّها كلمةٌ فتحتْ عليها عينَهُ، أو وَلَجتْ إلى قلبِهِ من أُذُنِـهِ، فاستقرّتْ في نفسِه، وكأنما استقرَّ على جمرٍ.

وإذا مدَحَ حسبتَ الدنيا تجاوِبُـهُ، وإذا رَثَى خِفْتَ على شعرِهِ أن يجريَ دموعاً، وإذا وَعَظَ استوقفتِ النّاسَ كلمتُهُ، وزادتْهُم خشوعاً، وإذا فخرَ اشْتُمَّ من لحيتهِ رائحةُ المُلْكِ، فحَسِبْتَ أنّما حَفَّتْ به الأملاكُ والمواكبُ.

* * *

وجماعُ القولِ في براعةِ الشاعرِ أنْ يكونَ كلامُهُ من قلبِهِ، فإنّ الكلمةَ إذا خَرَجَتْ من القلبِ وقعتْ في القلبِ، وإذا خرجَتْ من اللسانِ لم تتجاوزِ الآذانَ.

* * *

ولقد رأينا في الناسِ من تكلَّفَ الشِّعْرَ على غيرِ طبعٍ فيهِ، فكان كالأعمى يتناوَلُ الأشياءَ ليقرَّها في مواضعها، وربّما وضعَ الشيءَ الواحدَ في موضعينِ أو مواضعَ، وهو لا يدري.

وأبصرنا فيهم كذلكَ من يجيءُ باللفظِ المونقِ، والوشيِ النَّضِرِ، فإذا نُثِرتْ أوراقُهُ لم تجدْ فيها إلاّ ثمراتٍ فجّـةً.

ورأينا في المطبوعينَ من أَثْـقَـلَ شعرَهُ بأنواعٍ من المعاني، فكانَ كالحسناءِ تزيَّدَتْ من الزينةِ حتى سَمُجَتْ، فَصَرَفَتْ عنها العيونَ بما أرادتْ أن تلفتَها بهِ، على أنَّ أحسنَ الشِّعْرِ ما كانتْ زينتُهُ منه، وكلُّ ثوبٍ لَبِسَتْهُ الغانيةُ فهو معرضُها.

وهو عندي أربعةُ أبياتٍ: بيتٌ يُسْتَحْسَنُ، وبيتٌ يَسِيْرُ، وبيَتٌ يَنْدُرُ، وبيت يُجَنُّ به جنوناً، وما عدا ذلكَ فكالشجرةِ التي نُـفِضَ ثمرُها، وجُنيَ زَهْرُها، لا يَرْغَبُ فيها إلا مُحْتَطِبٌ.

* * *

أما مذاهبُهُ التي أبانوها من الغزلِ، والنسيبِ، والمدحِ، والهجاءِ؛ والوصفِ، والرثاءِ، وغيرها، فهي شعوبٌ منه، وما انتهى المرءُ من مذْهبٍ فيه إلا إلى مَذْهَبٍ، ولا خرج من طريقٍ إلا إلى طريقٍ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٥].

وما دامت الأعمارُ تتقلَّبُ بالناسِ **فالشعرُ أطوارٌ**: آونـةً تخطِرُ فيهِ نسماتُ الصَّبا ما بين أفنانِ الوصفِ إلى أزهارِ الغزلِ، ويتسبسبُ فيه ماءُ الشبابِ من نهرِ الحياةِ إلى مَشْرَعَةِ الأملِ.

وطوراً تراه جَمَّ النشاطِ، تكادُ تُصْقَلُ بمائه السيوفُ، وتفرَّقُ بحدِّهِ الصفوفُ.

وحيناً تَجِدُهُ وقـدْ ألبَسَهُ المشيبُ ثـوبَ الاعتبارِ، وجمَّلَهُ بمِسْحَةٍ من الوقارِ، وهو في كلِّ ذلكَ يـروي عن الأيامِ، وتَـروي عنهُ، وما أكثَـرَ فنـونَ الشِّعرِ إذا رويتَها عن أفانينِ الأيامِ.

* * *

وأما ميزانُه: فاعمدْ إلى ما تريدُ نقدَهُ، فَرُدَّهُ إلى النثرِ، فإنْ استطعتَ حذفَ شيءٍ منهُ لا ينقصُ مِنْ معناهُ، أو كانَ في نَثْرِهِ أكمل منه منظوماً، فذلكَ الهَذْرُ بعينِه، أو نوعٌ منهُ.

ولن يكونَ الشعرُ شِعْراً حتى تجدَ الكلمةَ من مَطْلَعِهَا لِمَقْطَعِهَا مفرّغةً في قالبٍ واحدٍ من الإجادةِ، وتلكَ مقلَّداتُ الشعراءِ.

إليك مثلاً قولَ ابنِ الرومي يصفُ منهزماً:

لا يَعْـرِفُ القِـرْنُ وَجْهَـهُ، ويَـرَىٰ   قفَـاهُ مِـنْ فَـرْسَـخٍ فَيَعْـرِفُـهُ

فقلِّبْ نظَرَكَ بينَ ألفاظِهِ، وأجِلْهُ في نفسِكَ، ثم ارجعْ إلى قولِ ذلكَ الخارجيِّ، وقدْ قالَ لهُ المنصورُ: أخبرني أيُّ أصحابي كانَ أشدَ إقداماً في مبارزتِك؟

فقال: ما أعرفُ وجوهَهُم، ولكن أعرفُ أقفاءَهم، فقل لهمْ يدبروا أعرِّفْكَ.

ألستَ ترى في ذلك النظمَ مِنْ كمالِ المعنى وحلاوةِ الألفاظِ ما لا تراهُ في هذا النثرِ.

ولقد بقيَ أنّ قوماً لم يهتدوا إلى الفَرْقِ بين منثورِ القولِ ومنظومِهِ، والذي أراهُ أن النظمَ لو مَدَّ جناحيهِ، وحلَّقَ في جوِ هذه اللغةِ، ثم ضمَّهُما، لما وقَع إلا في عُشِّ النثرِ، وعلى أعوادِهِ. ولن تجدَ لمنثورِ القولِ بَهْجَةً إلا إذا صَدَحَ فيهِ هذا الطائرُ المغرِّدُ، بلْ لو كانَ النثرُ مَلِكاً لكانَ الشِّعرُ تاجَه، ولو استضاءَ لما كانَ غيرُهُ سِراجَه.

وما زال الشعراءُ يأتونَ بجملٍ منهُ، كأنّها قِطَعُ الروضِ إذا تورَّدَ بها خَدُّ الربيعِ، وهـذا ابـنُ العباسِ وكتبه، وابنُ المعتزِ وفصولِه، والمعريُّ ورسائلِه، وانظرْ إلى قولِ بشارٍ وقد مَدَحَ المهديَّ، فلم يعطِهِ شيئاً، فقيلَ لهُ: لم تُجِدْ في مدحِهِ.

فقالَ: «واللهِ لقد مدحتُهُ بشعرٍ لو قلتُ مثلَهُ في الدَّهْرِ لما خِيْفَ صرفُه على حُرٍ، ولكنّي أَكْذِبُ في العَمَلِ، فَـأُكْذَبُ في الأملِ»[1].

---

(١) [رواية الأغاني: والله لقد مدحته بشعر لو مدح به الدهر لم يُخْشَ صرفه على أحد، ولكن كذب أملي لأني كذبت في قولي].

وبشارٌ هو ذلكَ الغوّاصُ على المعاني، الذي يزعمُ ابنُ الروميِّ أنّه أشعرُ مَنْ تقدَّمَ وتأخَّرَ، وهو القائِلُ في شعرِه مفتخراً:

إذا مَـا غَضِبْنَـا غَضْبَـةً مُضَـرِّيَـةً   هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا

إذا مَـا أَعَـرْنَـا سَيِّـداً مِـنْ قَبِيْلَـةٍ   ذُرَى مِنْبَـرٍ صَلّـى عَلَيْنَـا وَسَلَّمـا

والأمثلةُ على ذلك أكثر من أنْ تُعَدَّ، وَأَوْسَعُ من أَنْ تُحَدَّ.

ولا تَجِدُ الناظِمَ وقد أصبحَ لا يُحْسِنُ هذا الطرازَ، إلا إذا كانَ جافيَ الطَّبْعِ، كَدِرَ الحسِّ، غيرَ ذكيِّ الفؤادِ، لم تجتمعْ له آلةُ الشعرِ، وهو إذا كان هناكَ، وجاءَ من صنعتِهِ بشيءٍ، فإنما هو نظَّامٌ وليس بشاعرٍ.

* * *

أما الفرقُ بينَ المترسِّلينَ والشعراءِ، فإنْ كانَ كما يقولُ الصَّابي: «إنّ الشعراءَ إنما أغراضُهم التي يرتمونَ إليها وَصْفُ الدّيارِ والآثارِ، والحنينُ إلى الأهواءِ والأوطارِ، والتشبيبُ بالنساءِ، والطلبُ والاجتداءُ، والمديحُ والهجاءُ.

وأما المترسِّلون، فإنما يترسَّلونَ في أمرِ سدادِ ثغرٍ، وإصلاح فسادٍ، أو تحريضٍ على جهادٍ، أو احتجاجٍ على فئةٍ، أو مجادلةٍ لمسألةٍ، أو دعاءٍ إلى أُلفةٍ، أو نهيٍ عن فُرقةٍ، أو تهنئةٍ بعطيةٍ، أو تعزيةٍ برزيةٍ، أو ما شاكلَ ذلكَ» فذلكَ زمنٌ قد دَرَجَ فيهِ أهلُهُ، وبساطٌ طويَ بما عليهِ، ولم يعدْ أحدٌ يحذَرُ مؤاخاةَ الشاعرِ، لأنّه يَمْدَحُهُ بثمنٍ، ويهجوه مجاناً، وإنما الفرقُ بينَ الفريقينِ أنَّ مسلكَ الشاعرِ أوعرُ، ومركبهُ أصعبُ، وأسلوبهُ أدقُّ، وكلامه مع ذلكَ أوقعُ في النفسِ، وعلى قَدْرِ إجادتِهِ يكونُ تأثيرُهُ، فالمجيدُ من الشعراءِ أفضلُ من غيرِه في صناعةِ الكلامِ، وإنَّك إنما تزيِّنُ النثرَ بالشعرِ، ولا تزيِّنُ الشعرَ بالنثرِ.

وفي الحديث الشريفِ: «إنّا قد سَمِعْنا كلامَ الخطباءِ والبلغاءِ وكلامَ ابن

أبي سُلْمَى فما سَمِعْنا مثلَ كلامِهِ من أحدٍ».

وقال الشافعيُّ في كتابِ «الأم»: «الشِّعْرُ كلامٌ كالكلام، فحسنُهُ كحسنِهِ، وقبيحُهُ كقبيحِهِ، وفضْلُهُ على سائرِ الكلامِ أنّه سائـرٌ في النّاسِ، يبقَى على الزّمانِ فيُنْظَـرُ فيهِ».

هذا «وإنَّ من الشِّعر حكمة» ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

* * *

الشعرُ معنىً لما تَشْعُرُ به النفسُ، فهو من خواطرِ القلبِ، إذا أفاضَ عليهِ الحِسُّ من نورِه انعكسَ على الخيالِ. فانطبعتْ فيهِ معاني الأشياءِ، كما تَـنْطَبِعُ الصُّـوَرُ في المرآةِ، وهوَ من بعدُ كالحُلُمِ يخلقُ في المخيلَةِ مما يَصِلُ إلى الأَعْيُنِ، ويتأدّى إلى الآذانِ ما لا يكونُ قد وصلَ ولا تأدّى.

وكما يأخذُ النظرُ في مطرحهِ ما بينَ الأرضِ والسماءِ، يتناوَلُ القلبُ في مسرحهِ ما فوقَ سُجُفِ الغيمِ وتحتَ أطباقِ الثرى، وإنما الخيالُ السّاحِرُ بينَ هذين إنسانٌ ملكتُه وجسدُه بين يديهِ من سحرهِ، إنّه يضعُ أُذُنَـهُ على العينِ فتسمَعُ، وعينَهُ على الأُذُنِ فترى، ولن تَجِدَ من شيءٍ إلا وعليهِ سِمَتُهُ، وفيه صِفَتُهُ، فأنْتَ تُبْصِرُ الناسَ أحياءً يضطربونَ في حوائجهم، وهم يحشَرون في يوم الحسابِ ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨] ويحَسْبِكَ أن هذهِ الأكوان إنما هيَ الحقائقُ، ولكلِّ حقيقةٍ منها خيالٌ.

وهو مملكةُ الشعراءِ، فما مِنْ ذي خيالٍ منهم إلا وقدْ خالطتْ قلبَهُ لذةُ المُلْكِ في ساعةٍ، ربما كانت له في اليوم، أو الشهرِ، أو العام، أو العمرِ ـ هي عندَهُ الدنيا وهو مَلِكُها، فإذا رَنَّ فيها صَوْتُهُ تحرَّكَ الفَلَكُ، فأسمَعَهُ من كلِّ أرضٍ فوجاً، وأرقَصَ بهِ في كلِّ بَحْرٍ مَوْجاً، وما تزالُ الأيّامُ تحفَظُ مِن تِلْكَ الأنفاسِ في صدرِها حتى تبتنيَ له ديواناً يعرفُه به الناسُ، ولولا أنه كان

مَلِكاً في تلك الساعاتِ التي نظمَ فيها ما سُمي شِعْرُهُ ديواناً.

* * *

والشِّعْرُ أسبابُ يكونُ عنها، فإذا هي اجتمعتْ في واحدٍ فذلِكَ. ولكنّكَ قلَّ أنْ تجدَ مَنْ يسمَّى شاعراً بحقٍ، كما قلَّ أن ترى مَنْ لا يريدُ أن يكونَ شاعراً بالباطلِ.

فمتى كانَ المرءُ على رِقّةٍ في الحسِّ، وطبعٍ في النفسِ، وصفاءٍ في الذّهْنِ، وانتباهٍ في الخاطر، وبُعْدٍ في النظر، وشِدَّةٍ في العارضة، وقوّةٍ في البديهةِ، ومثراةٍ في الروايةِ، وحكنةٍ في التجارب، وحكمةٍ تحيطُ بذلكَ كلِّهِ فقد اجتمعَ له من أداةِ الشعرِ ما يكونُ به شاعراً.

ولا تحسبَنَّ هذا النوعَ من الكلامَ مضغةً يلوكُها الشيخُ الهرمُ، والصبيُّ الأدرَدُ، وليسَ في ماضِغَي أحدِهما ضِرْسٌ يقطَعُ، بل لا بدَّ لها من شُكُسِ الأنيابِ، وحديدِ المخالبِ، يطحنها طحناً.

ولقد كانَ أبو عمرِو بنُ العلاءِ[1] ـ والزمانُ زمانٌ ـ لا يَـعُدُّ الشِّعْرَ إلا للمتقدمينَ، فحدَّثَ الأصمعيُّ[2] قال: جلستُ إليهِ عَشْرَ حِجَجٍ[3] ما سمعتُهُ يحتجُّ ببيتٍ إسلاميٍّ.

وسُئِلَ عن المولَّدينَ فقال: ما كانَ مِنْ حَسَنٍ فقد سُبقوا إليهِ، وما كانَ من قبيحٍ فمِنْ عندِهم. ليسَ النمطُ واحداً، ترى قطعةَ ديباجٍ، وقطعةَ مِسحٍ، وقطعةَ نِطعٍ، ذلكَ والشعراءُ يومئذٍ متوافِرُوْنَ.

---

(١) أبو عمرو بن العلاء من أئمة اللغة المتقدمين.

(٢) الأصمعي راويـةٌ ثقة من رواة العرب في اللغة، واسمه عبد الملك بن قريب.

(٣) حجج: جمع حجة أي عام وذلك بكسر الحاء.

على أنهُ رحمهُ اللهُ لو سمعَ أكثرَ شعرِ اليومِ لزادَ: وقطعةَ نعلٍ. . فقد أصبحَ الزّمنُ وما تطلعُ شمسُهُ إلا على جديدٍ، والقومُ لا يزالونَ على ما كانوا يتمرّغونَ في ترابِ الأولينَ، فإذا علقتْ يدُ أحدِهم بحليةٍ دسَّها في شعره، وجعلها آيةَ فخرِه، وإن لم يصادِفْ شيئاً من ذلكَ، فأيّةُ ما شئتَ أن تنفضَها من كلمةٍ لا تنتفضُ في يديكَ إلا تراباً.

* * *

وإنّما مَثلُ شعرِ اليوم والشاعرِ مثلُ السفينةِ، يطوفُ بها المحيطَ مَنْ لا يُحْسِنُ السباحةَ في لُجَّهِ، فإذا انقلبَ عنها، لا يرجِعُ إليها حتى تكونَ لجسمه تابوتاً، ولذلك تراهم يحصرونَ القولَ في وجوهٍ، ويجمعونَهُ في نوعٍ منه، إلا ما كانَ لبعضِهِم من النّدرةِ الواحدةِ، والفلتة المفردة. . ولم تكنْ هذهِ السماءُ التي فوقنا اليومَ تحتَ غيرِنا من قبلُ، ولا كانتِ البلاغةُ شيئاً يباعُ ويُشترى، ولكنهُ الضلالُ في النشأةِ، والقصورُ في أسبابِ الصنعةِ، والجهل بالمقاصدِ، وضعف اللغةِ إلى حَدِّ النزعِ، بحيثُ لم يبقَ إلا نَفَسُها الذي ينطَلِقُ بروحِها، غيرَ ما كانَ في الصدر المتقدِّم ممنْ جعلَ الشعرَ وكدَهُ، وقصرَ عليه كَدَّه، وليس ذلكَ وحدَه، وإنما نَفَاقُ السوقِ كما عرفتَ جلّاب.

ولهذا أصبحَ القومُ في أيدي جهابذةِ الكلامِ ونقّادِ الشعرِ أحقَ بقولِ ابن بردٍ:

ارْفُقْ بِعَمْرٍو إذا حَرَّكْتَ نِسْبَتَهُ — فإنّهُ عربيٌّ من قواريرِ

مع أنه فُتِحَ عليهم اليومَ بابٌ جديدٌ من الأخذِ، فتراهم إذا ضعفُوا ترجَموا، وإذا ضاقتْ بهمْ مذاهبُ العربيةِ استعجموا، وما أُنكِرُ أنَّ منهم من ينطبعُ على ما يأخذُ به نفسَه، ولكنّهم يخرجونَ بالشعر عن معناهُ، وآيةُ ذلك أنْ لا تعرفَ في منظومِهم روحَ التأثير التي هي حياةُ الشعرِ، بل تجدُ عليهِ من فسادِ التكلُّفِ، ومغالبةِ الطبعِ، وأثر الاستكراهِ، وفيهِ من المعاني المدخولَةِ ما لا تَشُكُّ معهُ أنهُ من مضاغةِ قائلهِ الأولِ.

وإنما تنفُخُ النفسُ تلكَ الروحَ في الكلامِ إذا استوتْ فيه الصنعةُ، فيتمثَّلُ بها سويّاً، وعندي أنّ شرطَ الشاعرِ الذي ترتَفِعُ عنه مظنَّةُ السَّرِقةِ هو أنْ تكونَ له قوة الشعرِ، ودليلُها الإبداعُ، والمضيُّ في كلِ معنىً، والانتباهُ إلى أدقِّ المناسباتِ، فإن الكلامَ كالشجرةِ منها الجذعُ، ومنها الغصونُ والأوراقُ، وما فيها من دقيقِ الخيوطِ بعضها فوقَ بعضٍ في الظهور، وإنما براعةُ الشاعرِ في الإلتفاتِ إلى تلكَ الدقائقِ، فإنّ مِنَ الكلامِ ما يتفطَّرُ للمعاني كما يتفطَّرُ الشجرُ للتوريقِ، ومن أجلِ ذلك يشبِّهونَ أجملَ البيانِ بالوحي.

والشعراءُ كالمصابيحِ، ما على أحدِها أنْ يتألَّقَ بنورِ غيرِهِ ما دامَ في كلِّ مصباحٍ زيتُه، غير أنّ أكثرَ مصابيحِ اليومِ كهربائيةٌ، يستوي الجمعُ منها في الاستمدادِ من مصدرٍ واحد. . وقدْ كَثُرتْ آلاتُ البخارِ، وكثُرتْ بها المكرماتُ، حتى إنَّ مِنْ خواطرِ هؤلاءِ الشعراءِ ما يتحرَّكُ إلا بِنَفَس.

ومرجعُ التفاوتِ بينَ أصنافِ القائلينَ إنّما يكونُ من مثل المنشيء، يطبعُ في الأنفسِ شِيَماً مختلفاتٍ، تغلِبُ على بعضِها دون بعضٍ، ومن مثل ما يكونُ في عصرٍ دون عصرٍ، وما يقعُ لشاعرٍ دونَ سواهُ، وما يتفِقُ للواحد، ولا يتفقُ للآخر، إلى غير ذلكَ مما شَرْطُ جميعِه وفورُ القوةِ في الشاعرِ، فلا يُسْتَغْرَبُ من رجلٍ كعنترةَ، وهو ذلكَ الذي يتمثَّلُ الموتُ في هولِ صورتِهِ قولهُ:

إنّي لأَعْجَبُ كَيْفَ يَنْظُرُ صُورَتِي — يَوْمَ القِتالِ مُبارِزٌ وَيَعِيشُ

ولا مِنْ مِثْلِ عاشِقٍ كذلك الذي هدروا دمهُ من أجلِ حُبِّهِ بثينةَ، قوله وهوَ أميرُ شِعرِهِ:

خَلِيْلَيَّ فيما عِشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا — قَتِيْلاً بَكَى مِنْ حُبِّ قاتِلِه قَبْلِي

وإنما شيمةُ العاشقِ هذا البكاء.

ولا مِنْ خَلِيْعٍ كالنُّواسِيِّ قولُه يَصِفُ كؤوساً رأى فيها تصاوِيْرَ، وهو الذي جُنَّ به الجاحظُ :

فللـرَّاحِ مَـا زُرَّتْ عَلَيْـهِ جُيُـوْبُهَـا   وَللمـاءِ مـا دَارَتْ عَلَيْـهِ القَـلانِـسُ

وكذلك لا يُنْكَرُ على مثلِ أبي فراس قولُهُ في الفخرِ :

وَنَحْـنُ أُنَـاسٌ لا تَـوَسُّـطَ بَـيْـنَنَـا   لَنَـا الصَّدْرُ دُوْنَ العالمينَ أو القَبْـرُ

وهو ذلك الذي كانَ يزاحِمُ في طَلَبِ الصَّدْرِ، ويَعْلَمُ أنَّ وراءَ الزَّلَةِ في سبيلِهِ حفرةَ القبرِ.

ولا على مَنْ ترعرعَ في حِجْرِ الخلافةِ، ونَشَأَ في التّرَفِ كابنِ المعتزِّ قولهُ في الهلالِ:

فَانْظُرْ إليهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ   قَـدْ أَثْقَلَتْـهُ حَمُـوْلَـةٌ مِـنْ عَنْبَـرِ

وَقَدْ قِيْلَ: إنّ هذا البيتَ أُنشدَ لابنِ الرُّوميِّ في ضِمْنِ أبياتٍ، وسُئل لِمَ لا تأتي بمثلِ هذهِ التشبيهاتِ، وأنتَ أشعرُ منهُ، فبكى وقال: هذا ابنُ الخلفاءِ، وهو إنما يَصِفُ ماعونَ بيتِه، وما حيلتي وأنا رجلٌ أتكسَّبُ بالشعرِ، وأتبلَّغُ بخبزِ الشعيرِ.

وما بالصعبِ على مثلِ المعرّيِّ الذي كانتْ أيامُهُ كأنها العقارِبُ تتعاقبُ جسمَهُ أن يجيءَ بمثلِ قولِهِ:

تَعَـبٌ كلُّهـا الحيَـاةُ فمـا   أَعْجَبُ إلا مِنْ رَاغِبٍ في ازْدِيَادِ

وقس على ذلك مَنْ قالَ من الشعراءِ في جنسِ ما هو بسبيلِهِ، فإنَّ هاجِسَهُ لا ينكر عليه، وإن تواردَ مع غيرِهِ فيه.

تـوارد الخـواطـر

على أنّ للتواردِ أسباباً غيرَ ما تقدمَ، منها **ما يكونُ وحيَ العينِ**، إذا نزعَ الشاعرُ منزعاً في صنعتهِ، كقولِ عُمارةَ اليمني في مصلوبٍ:

وَرَأَتْ يَـدَاهُ عَظِيْـمَ مـا جَنَتَـا   فَفَـرَرْنَ ذِي شَـرْقـاً وذِي غَـرْبـا

وَأَمَـالَ نَحْـوَ الصَّـدْرِ مِنْـهُ فَمـاً   لِيَلُـوْمَ فـي أَفْعَـالِـه القَلْبَـا

فإنَّ من ينزِعُ إلى التعليلِ إذا شهدَ ذلك المشهدَ لا يجيْءُ بغيرِ هذا المعنى.

ومنها ما يكونُ حادثةً تتفِقُ، أو حالةً تنزِلُ بالمرءِ، كقولِ جليلةَ أختِ جسّاسٍ في الاستقادةِ من أخيها حين قَتَلَ زوجَها:

لَـوْ بِعَيْـنٍ فُقِئَـتْ عَيْـنٌ سِـوَى   أُخْتِهَـا فَـانْفَقَـأَتْ لَـمْ أَحْفِـلِ

وكقولِ ابنِ حسانٍ[1] فيما كتبَ به إلى النعمانِ[2] يستنجِدُهُ، وكانَ له ظهيراً:

إنَّمـا الـرُّمْـحُ فـاعْلَمَـنَّ قَنَـاةٌ   أو كَبَعْـضِ العِيْـدَانِ لَـوْلا السِّنَـانُ

ومنها **الأسلوب** فإنَّ من الشعراءِ من يبني القافيةَ بالبيتِ، ومنهم من يبني البيتَ بالقافية، والتواردُ كثيرٌ بينَ هذهِ الطائفةِ، كقول النابغةِ، وكانَ الأصمعيُّ يتعجَّبُ من جَوْدتِهِ:

وَعَيَّـرتْنِـي بَنُـو ذُبْيَـانَ خَشْيَتَـهُ   وَهَـلْ عَلَـيَّ بأَنْ أَخْشَاكَ مِـنْ عَـارِ

فلمَّا مرَّت هذه القافيةُ بأبي تمامٍ، وكان في معناها، قالَ وأبدع كما ترى:

خَضَعُوا لِصَوْلَتِكَ التي هِيَ عِنْدَهُمْ   كَـالمَـوْتِ يَـأْتِـي لَيْـسَ فِيْـهِ عَـارُ

ومنها **دلالةُ الكلامِ بعضِهُ على بعضٍ، إذا وفَّاهُ القائلُ قِسْطَهُ من الصَّنْعَةِ،** وقد سمعَ ابنُ عباسٍ رَضيَ الله عنهما قولَ ابنَ أبي ربيعة:

---

(١) [عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري].

(٢) [النعمان بن بشير رضي الله عنه].

تَـشُطُّ غَـداً دَارُ جِيْـرَانِـنَـا

فقال:

وَلَلـدَّارُ بَـعْدَ غَـدٍ أَبْـعَـدُ

وكذلك قال عُمر، وما ينبغي أن يكون إلاَّ هكذا.

ومثلُه يروَى عن الفرزدقِ حينَ سَمِعَ قولَ عديٍّ:

تُـزْجِي أَغَـنَّ كأَنَّ إبْـرَةَ رَوْقِـهِ

فأكملَهُ بقولِه:

قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدُّوَاةِ مِدَادَها

وكان يعرفُ قافيتها، وكذلكَ كانَ البيتُ.

ومنها اختلاسُ المَثَلِ من جملة بعينها، واشتراكُ المعاني، كأَنْ تكونَ مسفيضةً في المناقلاتِ، أو واقعةً لو شاءَ كلُّ امرىءٍ لوجدَ إليها مساغاً.

وكذلك التمهيدُ بلفظةٍ تؤدِّي إلى معنى لا يكونُ منها غيرُهُ إذا عرضت للحاذقِ بصناعةِ الكلامِ.

وغير ذلكَ مما مرجعُهُ في الغالبِ إلى ما تقدمَ. **ومثلُهُ لا يكونُ سَرِقَةً يعابُ بها قائِلُهُ، ما دامَ على شريطةِ الشاعرِ، فإنَّ التفاضلَ إنما يكونُ في ابتكارِ الأشياءِ على طريقةِ الشعرِ، لا على طريقةِ النظمِ.**

وقد قالَ أميرُ المؤمنينَ: لولا أنَّ الكلامَ يعادُ لنفدَ.

وسُئِلَ ابن العلاءِ: أرأيتَ الشاعرينِ يتَّـفِـقَانِ في المعنى، ويتواردانِ في اللفظ، لم يلقَ واحدٌ منهما صاحبَه، ولا سمعَ شعرَهُ. قال: تلك عقولُ رجالٍ توافتْ على ألسنتِهَا.

وقيلَ لأبي الطيبِ مثلُ ذلكَ فقالَ: الشِّعْرُ محجةٌ[1]، فربما وقعَ الحافِرُ على موضعِ الحافرِ.

سرقــة الشعــر

أما السرقةُ فقدْ اجتمعَ أهلُ البَصَرِ بالشعر على أنّ أبا عُذْرَةِ الكلامِ مَنْ سبكَ لفظَه على معناهُ، وهم يريدونَ بذلكَ أن يكونَ ما بَيْنَ قلبهِ ولسانِه أنفاساً تتردَّدُ شعراً[2].

وقالوا: إنهُ ليسَ لأحدٍ من أصنافِ القائلينَ غنىً عن تناوُلِ المعاني ممن تقدَّمَهُم، والصَّبِّ على قوالِبَ مَنْ سبقَهُم، ولكنْ عليهم أن يبرزُوا ما أخذوهُ في معارض من تأليفهم، ويؤَدُّوه في غير حليتِه الأولى، ويزيدوا في حسن تأليفه، وجودةِ تركيبِهِ، وكمال حليته ومعرضهِ، فإذا فعلوا ذلكَ فَهُم أولى بها ممن سبق إليها، وهو كلامٌ لا يُمْتَرىٰ فيهِ، ولكنَّ شَرْطَهُ ما ذكرناه لكَ من قبلُ، واعْتَبِرْهُ بمثلِ قولِ سعيدِ بنِ حميدٍ:

يَـا لَيْـلُ لَـوْ تَلْقَـىٰ الـذِي   أَلْقَـى بِهَـا أَو أَجِـدُ
قُصِّـرَ مـِنْ طـولِـكَ أو   أُضْعِـفَ مِنْـكَ الجلـدُ

فقد أخذه المتنبي وهذَّبهُ في قوله:

أَلم يَرَ هَذا اللَّيْلُ عِيْنَيْكِ رؤيتي   فَتَظْهَـرُ فيـهِ رِقَّـةٌ ونُحُـوْلُ

وأكثرُ ما يبدِعُ أبو الطيبِ في مِثْلِ ذلكَ من الزيادةِ والتهذيبِ والتمهيدِ لمعنًى يأخذُهُ بما يدخُلُ منه إليه كقولِه:

كَـرِيْـمٌ نَفَضْتُ النَّـاسَ لما بَلَغْتُـهُ   كـأَنَّهُـمْ مـا جَـفَّ مِـنْ زَادِ قـادِمِ
وَكَـادَ سُـرُوْرِي لا يَفِـي بِنَـدَامَتِـي   عَلَـىٰ تَـرْكِـهِ في عُمْـرِيَ المتَقَـادِمِ

فإنّه من قولِ الوالبي:

(١) [جادة].

(٢) [انظر العمدة (٢: ١٠٣٧) ت. محمد قرقزان].

وتَـرَكْتُـهُ يَبْكِـي بَقِيَّـةَ عُمْـرِهِ ... أَسَفـاً لمـاضِـي عُمْـرِهِ المُتَقَـدِّمِ

* * *

وأعجبُ شيءٍ في أمرِ السرقةِ أنهُ قدْ وُجدَ من قبْلُ مَنْ كان يقولُ لصاحبِ الكلمةِ الرائعة: «إيّاكَ وإيّاها، لا تعودَنَّ فيها، فإني أحقُّ بها منكَ» وما كان يروى لغيرِ أبي نواسٍ معنىً بديعٌ يسمعُهُ في الخَمْرِ وهو حيّ، وإنما هي شهادتهُ على نفسِه.

ولم يزلِ الناسُ من قديمٍ ينظرونَ في وجوهِ المعاني من بناتِ غيرهِم، فيجدُ الآخِرُ مما تركهُ الأولُ ما لو عَلِمَ أنّه تركه لأوصى بدفنهِ معهُ. حتى قالَ بعضُ العلماءِ: إنّ ابنَ الرومي كانَ ضَنيناً بالمعاني حَرِيْصاً عليها، يأخُذُ المعنى أو يولِّدُهُ، فلا يزالُ يقلِّبُه بَطْناً لظهرٍ، ويصرِّفهُ في كلِّ وجهٍ، وإلى كلِّ ناحيةٍ حتى يميتَهُ، ويعلمَ أنْ لا مطمعَ فيه.

ثم تجدُ مَنْ بعده قد أخذَ المعنى بعينهِ، فولَّدَ فيه زيادةً، وأوجدَ له وجهةً حسنةً لا يشُكُّ البصيرُ بالصناعةِ أنّ ابنَ الرومي مع شرهِهِ لم يتركها عن قدرةٍ.

* * *

ومن المعاني ما ينبِّهُ بعضُهُ على بعضٍ مما يكونُ وراءَ لفظةٍ أو تحتَ نادرةٍ، حتى لقد تجدُ في بُنيّاتِ الطريقِ ما تستخرِجُ منه المعنى الفَحْلَ، والخاطرَ الرائعَ، وللشاعر من ذلك فضل لا يُغْمَطُ فيه حقه، وكثيراً ما كان الطائيُّ[1] ينحو هذا القصد، كما قال عنهُ ابنُ الرومي: «إنّه يطلُبُ المعنى، ولا يبالي باللفظ، حتى لو تمَّ له المعنى بلفظةٍ نبطيةٍ لأتى بها».

* * *

(١) الطائي: هو حبيب بن أوس الطائي أبو تمام الشاعر العباسي المشهور.

ومن تلكَ المذاهبِ طريقةٌ كانَ يذهَبُ إليها حكماءُ الشِّعْرِ كأبي العتاهيةِ، وابنِ عبدِ القدوس، والمتنبي، والمعري، وأفرادُ هذه الطبقةِ، وهي إيداعُ الدرِّ في الصدفِ المكنون، فكانَ الواحدُ منهم يقعُ على قولِ الحكيمِ، فيقتطفُهُ، ومنهم من يحوزُهُ بما يستفرِغُ فيه من جهدهِ كقول المتنبي:

إنَّـا لَفِـي زَمَـنٍ تَـرْكُ القَبِيْـحِ بـهِ ... مِنْ أَكْثَرِ النّاسِ إحسانٌ وإجمالُ

قالوا: أخذَهُ من قولِ الحكيمِ: مَنْ لَم يَقْدِرْ على فِعْلِ الفضائلِ، فلتكُنْ فضائِلُهُ تركَ الرذائل.

وقولُه:

وَإذا كَـانَـتِ النّفُـوْسُ كِبَـاراً ... تَعِبَـتْ فـي مُـرَادِهَـا الأَجْسَـامُ

من قولِ الآخر: إذا كانَتِ الشّهْوَةُ فوقَ القُدْرَةِ، كانَ هلاكُ الجِسْمِ قبلَ بلوغِ الشّهْوَةِ.

وكذلكَ قولُهُ:

وَإذَا لَـمْ يَكُـنْ مِـنَ المَـوْتِ بُـدٌّ ... فَمِـنَ العَجْـزِ أَنْ تَكُـوْنَ جَبَـانـا[1]

ذكروا أنّه لبعضِ الحكماءِ في قولهِ: خَوْفُ وُقُوْعِ المكروهِ قبل تناهِي المُدَّةِ جَوْرٌ في الطبيعةِ وذِلّـةٌ. وما أراه إلا مِنْ قول جرير:

قُـلْ للجَبَـانِ إذَا تَـأَخَّـرَ سَـرْجُـهُ ... هَلْ أَنْتَ مِنْ شَرَكِ المَنِيَّـةِ نَاجِي

غير أنَّ أبا الطيبِ كانَ يدبُّ إلى عرائِس المعاني في غير ظلامٍ، ويستيقظ لها والقومُ غيرُ نيامٍ، ولذلكَ وجدَها معهُ كما في قوله:

قلقُ المليحةِ وهيَ مسكٌ، هتكها ... [ومسيرُها في الليل، وهي ذُكاءُ]

وكان يأخذُه من هيبةِ الكلامِ أحياناً ما يسيءُ معهُ الاتباعَ، أو يبلُغُ به إلى إفسادِ المعنى.

(١) الرواية المشهورة (تموت) وهي أقوى من (تكون).

وكذلكَ كانَ البحتريُّ في بعضِ ما سرقه من أبي تمامٍ، وكثيرٌ غيرهُما ممن أذهلتْهُ المعارضَةُ، فلم يتتبعْ على نفسِه.

* * *

وجملةُ ما انتهى إليهِ الباحثونَ، ووقفَ عليه الحافظونَ، مما هو في معنى السرقةِ أنواعٌ:

منها **الاصطراف**: وهو أن يُعْجَبَ الشاعرُ ببيتٍ لغيره، فيصرفَهُ إلى نفسِهِ ويسمّى اجتلاباً واستلحاقاً إذا صرفه على جهةِ المثلِ، كقولِ النابغةِ:

وَصَهْبَاءَ لا تُخْفِي القَذَىٰ فَهُوَ دُوْنَها   تُصَفَّقُ فـي رَاوُوْقِهَـا حِيْـنَ تَقْطُـبُ

تَمَزَّزْتُها والدِّيْكُ يَدْعُوْ صَبَاحَهُ   إذا مـا بَنُـوْ نَعْـشٍ دَنَـوْا فَتَصَـوَّبُـوا

فقد استلحقَ الفرزدقُ البيتَ الأخيرَ في قولِهِ:

وأجّـانَـةٍ رَيَّـا السُّـرُوْرِ كَـأَنَّهَـا   إِذَا غُمِسَتْ فيها الزُّجَاجَةُ كَوْكَبُ

تمززتها البيت..

فإن ادّعى القائلُ شعرَ غيره جملةً فهو انتحالٌ.

فإنْ كان الشِّعْرُ لشاعرٍ حيٍّ غُلِبَ عليهِ فتلكَ **الإغارةُ والغصبُ**.

فإن أخذَهُ «هِبَةً» فتلكَ **المرادفةُ والاسترفادُ**.

وقد استرفدَ نابغة بني ذبيانَ زهيراً، فأمر ابنَه كعباً فرفدَه.

فإن كانت السرقةُ فيما دونَ البيت فهو اهتدام كقولِ النجاشيِّ:

وكنْتُ كَذِي رِجْلَيْنِ رِجْلٍ صَحِيْحَةٍ   وَرِجْـلٍ رَمَـتْ فِيْهَـا يـدُ الحَـدَثَـانِ

فأخذَ كُثيِّرٌ القسمَ الأوّلَ، واهتدَم باقي البيتِ فقال:

وكنْتُ كَذِي رِجْلَيْنِ رِجْلٍ صَحِيْحَةٍ   وَرِجْـلٍ رَمَـىٰ فِيْهَـا الـزَّمَـانُ فَشَلَّـتِ

فإن تساوى المعنيان دونَ اللفظِ، وخفيَ الأخذُ، فذلكَ هو **النظرُ والملاحظةُ**.

وكذلكَ إن تضادّ أول أحدهما على الآخر. فإن حوّلَ المعنى إلى غيرِهِ، فذلك **الاختلاسُ**. فإن أخذَ بنيةَ الكلام فقطْ فتلك **المواربةُ**، فإن جعلَ مكانَ كلِّ لفظةٍ ضِدَّها فذلكَ **العكسُ**.

قالوا: وإن صحَّ أنَّ الشاعرَ لم يسمعْ بقولِ الآخر، وكانا في عصرٍ واحد فتلكَ **الموارِدة**.

فإن ألّفَ البيتَ من أبياتٍ قد رَكَّبَ بعضها على بعض، فذلك **الالتقاطُ والتلفيقُ**.

وأمثالُ هذا النوع كثيرةٌ اليومَ بين أيدينا، لا ينفكُّ يدفَعُ بعضُها بعضاً، وقد ضربوا له المثلَ فيما سبقَ بقولِ يزيدَ بن الطثريةِ:

إِذَا مَـا رَآنِـي مُقْبِـلاً غَـضَّ طَـرْفَـهُ   كَأَنَّ شُعَاعَ الشَّمْسِ دُوْنِي يُقَابِلُهْ

فأوّلُهُ من قول جميلٍ:

إِذَا مَـا رَأَوْنِـي طَـالِعـاً مِـنْ ثَنِيَّـةٍ   يَقُوْلُوْنَ: مَنْ هٰذَا؟ وَقَدْ عَرَفُوْنِي

ووسطهُ من قولِ جريرٍ:

فَغُـضَّ الطَّـرْفَ إِنَّـكَ مِـنْ نُمَيْـرٍ   فَـلا كَعبـاً بَلَغْـتَ ولا كِـلاَبـا

وعَجُزُهُ مِنْ قولِ عنترة بن الأَخْرَسِ:

إِذَا أَبْصَـرتَنِـي أَعْـرَضْـتَ عَنِّـي   كَـأَنَّ الشَّمْـسَ مِـنْ قِبَلـي تَـدُوْرُ

ومن تلكَ الأنواع ضَرْبٌ يسمّونَه **كَشْفَ المعنى**، كقولِ امرىءِ القيسِ:

نَمُـشُّ بِـأَعْـرَافِ الجِيَـادِ أَكُفَّنَـا   إذا نَحْنُ قُمْنَا عَنْ شِوَاءٍ مُضَهَّبِ

كشفَه عَبْدَةُ بن الطبيبِ، وأبرزه في قوله:

ثمّتَ قُمْنَـا إلـى جُـرْدٍ مُسَـوَّمَـةٍ   أَعْـرَافُهُـنَّ لأيْـدِيْنَـا مَنَـادِيْـلُ

* * *

وذكروا أنّ مِنَ السرقة ما يكونُ مَجْدُوْداً في الشعر، كقولِ عنترة:

* وَكَمَا عَلِمْتِ شمائِلي وتكرُّمِي *

رُزِقَ جَداً واشتهاراً على قولِ امرىءِ القيس:

وَشَمـائِلِـي مَـا قَـدْ عَلِمْـتِ وَمـا   نَبَحَـتْ كـلابُـكِ طَـارِقـاً مِثْلِـي

والتنقيب على مثل ذلك في الكثير من شعرِ اليوم كحرارةِ الشمس في الوحلِ، لا تنضجِهُ آجُراً يبنَى به حتى تكونَ قد بردتِ الشمس، واستحالتْ فحمةً سوداءَ، وطُوِيَتْ الأرضُ بمن عليها، فلو نطقتِ المدافعُ بسرقاتِ هؤلاء الشعراءِ، ما سمعَ أحدٌ، ومن فُتق مسمعُه فهيهاتَ أن يعيَ، وإن وعى فمبلغُ ما يكونُ منه أن لا يزيدَ على الأسفِ: ولو أنَّ الحسرةَ تؤثِّرُ شيئاً لانقلبَ الجوُ ناراً.

* * *

على السفود

تأليف

مصطفى صادق الرافعي



قصة الكتاب...

لقد غضب الرافعي على العقاد غضباً شديداً أثناء لقائهما في دار المقتطف ، حيث دار الموضوع حول إعجاز القرآن. وكان لهذا الغضب ثلاثة أسباب:

الأول: **طعن العقاد أنئذ[1] في إعجاز القرآن** ، وقد ذكر الأستاذ فتحي رضوان شيئاً من ذلك عن العقاد في كتابه «عصر ورجال» ص (٢٢٩) فقال: «وفي يوم كنّا نتكلّمُ عن القرآن ، ثم طال بيننا الحديث حتى وصلنا إلى باب مكتبي ، فوقفنا فينةً على عتبة الباب ، فقال (أي العقاد) تعليقاً على سورة الناس: لو نسبوا إليّ هذه السورة لتبرأتُ منها» ثم راح يتلوها مكرِّراً كلمة الناس في ختام كل آية هازّاً رأسه علامة الاستهجان»[1].

والثاني: **إتهامه للرافعي بالجهل**: ، وبأن كتابه عن «إعجاز القرآن» ليس فيه شيء يتعلق بالإعجاز، وقد سجل رأيه هذا في كتابه «ساعات بين الكتب» ص (٨) حيث يقول: «ولكن لا يقل عنه (أي الرافعي) إنه كتاب في إعجاز القرآن ، وليس فيه شاهد واحد على معجزات الكلام ، ولا هو نهج فيه ذلك المنهج الذي أحسنَ فيه الجرجاني أيما إحسان ، فإنما الثناء على القرآن في كتاب تناهِزُ صفحاتُه الأربعمئة حسنةٌ طيبةٌ يكتَبُ للرافعي أجرها وثوابها عند الله ، ولكنها لا تكتَبُ له في سجل المباحث والعلوم ، ولا تُعَدُّ من حسنات التفكير والاستقراء.

---

(١) ذلك ما كان، ثم رجع العقاد رحمه الله تعالى عن ذلك ، وصار من كبار المدافعين عن الإسلام.

لقد قرأت «إعجاز القرآن» وخرجت منه على رأي واحد ، على أن الكتاب معرض يعرض به الرافعيُّ مبلغَ اجتهاده في تقيُّل عبارات البدو ، وتأثر أساليب السلف!!».

والسبب الثالث: **إتهامُ العقادِ الرافعيَّ بالكذب** ، حيث اتهمه بأنه افترى كتاب سعد زغلول في تقريظ كتابه «إعجاز القرآن» الذي قال فيه من جملة ما قاله «بيان كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم» وأنه نحله سعداً ليروج كتابه عند الشعب!! وقد أكد الأستاذ إبراهيم الجزيري صحة كتاب سعد ، وأن سعداً كتبه بخط يده على غير عادته[1].

هذه هي أسباب غضب الرافعي: فالأول للقرآن الكريم ، والثاني والثالث لكرامته.

ولم يرد الرافعي أن تكون المعركة حول إعجاز القرآن لما يعلم من لدد العقاد في الخصومة ، وأنه ربما جرّته الخصومة إلى أن يقول شيئاً من هُجْر القول ، فهو يربأ بالقرآن الكريم أن يضعه في هذا الموضع ، فاختار للمعركة موضوعاً آخر ألا وهو ديوان العقاد ، ولا سيما أن العقاد قد أصدر طبعته الجديدة (أربعة أجزاء في مجلد واحد) وطبعت في مصر بمطبعة المقتطف والمقطم عام (١٣٤٧ ـ ١٩٢٨).

وبدأ الرافعي الهجوم على العقاد ، **وكان الهدف الذي يريد الوصول إليه هو إقامة الحجة من خلال شعر العقاد على أن العقاد لا يفقه شيئاً من أسرار العربية ، ولا يتذوق شيئاً من أساليبها: ومن ثَـمَّ فهو لا يصلح أن يكون حكماً في موضوع خطير كإعجاز القرآن ، أو في كتاب ككتاب «إعجاز القرآن» للرافعي.**

(١) وقد ذكر ذلك في مذكراته عن سعد، وقد ذكر الرافعي سبب الخصومة مجملاً في الصفحة (١٦٠) من هذا الكتاب فانظرها ثَمّ.

وترك الرافعي لقلمه العنان يقول ما يشاء ، وكلُّ من يقرأ الكتاب سيتفهم الأسباب التي حملت الرافعي على ما كتبه ، لكنه سيقول ما قاله الأستاذ العريان[1]: «**الحق الذي أعتقده أن في هذا الكتاب على ما فيه ـ نموذجاً من النقد يدلُّ على نفاذ الفكر ، ودقَّـةِ النظر ، وسَعة الإحاطة ، وقوة البصر بالعربية وأساليبها ، ولكن فيه مع ذلك شيئاً خليقاً بأن يطمسَ ما فيه من معالم الجمال ، فلا يبدو منه إلا أدَمُّ الصور ، وأقبح الألوان ، بما فيه من هُجْرِ القول ، ومُرِّ الهجاء.**

وإنها لخسارة أن ترى التمثال الفني البديع مغموراً في الوحل ، فلا تصل إليه إلا أن تخوض له الحمأة ، وهيهات أن تقبلَ عليها النفسُ.

وإنها لخسارة على العربية أن ترى هذا الفنَّ البديعَ يكتنِفُه هذا الكلام النازل من هُجْر القول ومُرِّ الهجاء.

ولقد كان الرافعي نفسهُ يعترفُ بأنَّ في الكتاب ما لم يكن ينبغي أن يقوله ، ولكن الرافعيَّ مع ذلك كان مطمئناً إلى شيء آخر!!»[2].

وفي الختام لا بدّ من التذكير بأن العقاد الذي خاصمه الرافعي عام (١٩٢٩) هو غير العقاد الذي عرفناه وأحببناه فيما بعد ، والذي صار من أكبر المنافحين عن القرآن والإسلام ، والذي كتب في هذا الباب «الفلسفة القرآنية» و«العبقريات» و«التفكير فريضة إسلامية» و«حقائق الإسلام وأباطيل خصومه» و«ما يقال عن الإسلام» إلى غير ذلك من الروائع رحمه الله تعالى ورحم الرافعي وأجزل مثوبتهما آمين.

* * *

(١) انظر «حياة الرافعي» للأستاذ محمد سعيد العريان رحمه الله تعالى (١٨٩ ـ ١٩٦).

(٢) فكان الكتاب علقة رافعية للعقاد.

طبع على نفقة مكتبة النهضة المصرية ٣٥ شارع سليمان باشا ويطلب منها

على السفود

عباس محمود العقاد

نقد تحليلي

بقلم إمام من أئمة الأدب العربي

وللسفود نارٌ لو تلقت
بجاحمها حديداً ظن شحما
ويشوى الصخر يتركه رمادا
فكيف وقد رميتك فيه لحما ؟

الجزء الأول

مقالات نشرت في مجلة العصور الغراء

دار العصور — ١٣٤٨ هـ ١٩٣٠ م

على السفود

وللسفود نارٌ لو تلقت
بجاحمها حديداً ظن شحما

ويشوي الصخر يتركه رمادا
فكيف وقد رميتك فيه لحما

(الرافعي)

مقدّمة

بقلم الأستاذ عبّاس محمود العقّاد . .

يعرف كتّاب الغرب طائفةً من أدعياء التفكير (مثل العقاد[1]) يسمونها الإنتلجنزيا، ويعنون بهذه الكلمة ما نعنيه في اللغة العربية بكلمة المتحذلقين أو المتفيهقين.

ومن صفات هذه الطائفة أن تكونَ على شيءٍ من بريق الذكاء، وقدرةٍ على تلفيق الأفكار، ومظهرٍ من مظاهر العلم والاطلاع، وأستاذيّةٍ منتحَلةٍ، يغترُّ بها مَنْ ينخدعون بشقشقةِ اللسان وسِمَاتِ الوقار.

فهي سطحيةٌ في كلّ نوعٍ من أنواع المعرفة، لا تنفذُ إلى قرارِ مسألةٍ، ولا تحيطُ بفكرةٍ، ولا تفهم شيئاً على حقيقته البسيطة، ولا على استقامتهِ الطبيعيةِ، لأنّ الفهمَ عملٌ يشترِكُ فيه الذكاءُ والإدراكُ والذوقُ[2] والفطرةُ والبصيرة، وليس عند هذه الطائفة - طائفةِ المتحذلقين - من هذه الأدواتِ إلا وميضُ الذكاءِ المغري بالتوشية والتلفيق، دون الاستيعاب والنفاذ إلى الأعماق[3].

ماذا يصيب الدنيا إذا أُدِّبَ هؤلاءِ القوم بالوسيلة الوحيدة التي يفهمون

---

(١) هذه الكلمة منّا للبيان والتفسير.

(٢) وناهيك من ذوقٍ كذوق العقاد الشاعر المراحيضي كما ستعرفه.

(٣) هذه النبذة كلُّها بحروفها من مقالة للعقاد في جريدة «مصر» عدد (١٨) من أكتوبر سنة (١٩٢٩) والعامة يقولون: «مسكوا فرعون بخطه».

بها الأدب، ويزدجرون بها عن السباب . . !

إنَّ أنانيةَ هؤلاء المجرمين أنانيةٌ عمياء، لا تعقل ولا تدرك أنّ الإحراق بالنار يؤلِمُ ويرمِضُ حتى تحرقها النار (نار السَّفُّود . .[1]) وترمِضُها أيّما إرماض . .

إنّ من الحسن أن تُسْتَنْكَرَ المطاعنُ لأنّها معيبةٌ مشنوءةٌ، ولكن ليس من الحسنِ أن تُسْتَنْكَرَ لأنّها تؤذي من لا يحفلون يوماً بإيذاء إنسانٍ.

وإذا كان كلُّ ما يلاحظ الآن أنّ هؤلاء المجرمين يتألّمون فليتألموا وليتألموا . . وليفرِطُوا في الألم . . فما يبتلَى بالألم أحدٌ في هذه الأرض هو أولى به من أمثالِ هؤلاءِ[2].

* * *

(١) هذه الكلمة منا للبيان والتفسير.

(٢) النبذةُ كلُّها بحروفها من مقالة العقاد في جريدة «مصر» عدد (٢) من نوفمبر سنة (١٩٢٩).

السَّفود ومعناه

السَّفُّودُ في اللغة الحديدةُ يشوَى بها اللحمُ، ويسميها العامة (السيخ) وقد تكونُ عُوْداً مستوياً يذهَبُ مستدقّاً، فينتهي بشباةٍ حادّةٍ في طرفه الأعلى هي مغرزُه في اللحم، كما تكونُ حديدةً ذات شُعب معقَّفة (ملوية من أطرافها) ويجمَعُ السفُّود على سفافيد.

وقد استعرنا هذه الكلمةَ في النقد، لأنّ بعض المغرورين من أدباء هذا الزمن ممن عدَوا طَوْرَهم، وتجاوزوا كلَّ حدٍّ في الادعاء والغرور؛ لا يصلُحُ فيهم من النقد إلا ما ينتظمُهم ويُفْرِشُهم ناراً كنار اللحم يشوَى عليها، ويقلَّبُ ويُنْضَجُ؛ فلقد أعينوا من الصفاقة والدعوى والخداع ولُؤْمِ الأدب والعُجْبِ والفتنة بما لا تدبيرَ فيه إلا حال كتلك، وما دونها من النقد فهو دونهم في الإبلاغ والتأثير، فلذلك ما قلنا: «على السفود».

ومن تناولَه السَّفُّود قيل فيه (مسفَّدٌ) لا يجوزُ غيرها، لأنَّ تسفِيْدَ اللحم نظمُه في تلك الحديدة للاشتواء، فالعقاد (مُسَفَّدٌ) في هذا الكتاب، وهذا النقدُ (تَسْفِيْدُه)، وسفَّده فلانٌ وضعه (على السَّفُّود). .

التعريفُ بالسَّفُّود

بقلم

إسماعيل مظهر

كان السبب الأول الذي حدا بنا إلى نشر مقالات «على السَّفُّود» في «العصور» أنْ نرضيَ ضميرَنا بأنْ نفسحَ المجال لعلَم من أعلام الأدبِ، وحجةٍ ثَبْتٍ من رجالاتِ هذا العصر، أن يعبِّرَ عن رأيه في صراحةٍ وجلاءٍ في أديبٍ امتازَ بين الأدباء بشيءٍ من الصلف عُرِفَ به، وبِقَدْرٍ غيرِ قليلٍ من الزهو بالنفس، والإغراب في تقدير الذّات، تلك الأشياءُ التي لا تسكنُ نفساً إلا ويطلِّقها العلمُ ثلاثاً، ولا تحلُّ بشخصيةٍ إلا وتنفرُ منها الرجولةُ نفوراً، ولا تغشى عقلاً إلا وتكونُ دليلاً على انحرافه وتفكُّكِ الثقةِ به.

ولقد أطلقَ علينا ذلك الأديبُ المفتون ألسنةً من أعوانه حداداً، كان يلقّنُهم ما يقولون، فينقلونَ ما يُلقى إليهم كأنهم الحاكية المركبة تنطِقُ عن غير إرادةٍ، وعن غير فهمٍ، كما مُلِئَتْ به، فقد أرسل إلينا أحدُهم نقداً على كاتب السَّفُود لم نتحاشَ من نشرِه لما فيه من بذاءةٍ في القول، وإسفافٍ في المناظرة فقط، بل لأنّه تضمَّنَ نقداً في مسألةٍ إعرابيةٍ نَحْويةٍ لو أننا نشرناه لكان المنقودُ العقادَ لا كاتبَ السَّفود.

وهذا مقدار ما وصلتْ إليه عقليةُ أذنابِ العقاد الموحَى إليهم منه بما يكتبون وما يقولون، وتلك نهايةُ ما بلغَ علمُهم باللغةِ والأدبِ ملقىً به إليهم من زعيمهم الأكبر، وصنمهم المرموق منهم بعين الاحترام في الظاهر، والاحتقار الدفين في الباطن.

غير أنّ هنالك سبباً آخر حدا بنا إلى نشر مقالات «السَّفُّود» الفذة على

صفحات «العصور». فإننا لم نخرِجْ «العصورَ» لتكون أداةَ مدحٍ لمجرَّدِ المدح، أو أداةَ ذمٍّ لمجرَّدِ النفع المادي. تلك الطريقةُ التي اتبعتها الصحف في مصر إلى عهدٍ قريبٍ. ومن الأسفِ أنّها طريقةٌ لم تتورَّعْ عنها أكبر الصحف السيارة، فسمي النقدُ تقريظاً، وسمّي الاستجداءُ تقديراً للأشخاص. وسمي التمسُّحُ تقييماً[1] لذوي الفضل، وهكذا، حتى اجتمعَ للصحافة قاموسها المعروف بين الذين يعرفون كيف يستغلّون الصحافة.

فلما أصدرنا «العصور» عوّلنا على أنْ نسمِّي النقدَ نقداً، والتقديرَ تقديراً، والتقييم تقييماً، بكلِّ ما تسعُ هذه الكلمات من المعاني المحدودة، لا المعاني المؤولة تأويلاً صحفياً على الوجه الذي درج بين الصحافة ورجالِ الصحافة.

بيدَ أننا بجانب هذا صممنا على أن نعطيَ الكُتّابَ أوسعَ فرصةٍ للتعبير عن آرائهم، والإفصاح عمّا ما تكنُّه صدورُهم من حريةٍ كاملةٍ، ولو كان النقدُ موجهاً إلينا بالذات، فمن أرادَ منهم أنْ تكونَ «العصورُ» مَيْدَانَه في نقدٍ أو دفاعٍ، فإننا نرحِّبُ به، ونعطيه أوسعَ فرصةٍ ممكنةٍ للتعبير عما يراه من رأيٍ في أي موضوعٍ من الموضوعات.

لهذا أردنا بنشر «السَّفُّودِ» أن نرضيَ من أنفسنا نزعتَها إلى تحرير النقدِ من عبادةِ الأشخاصِ، ذلك الداءِ المستعصي الذي كان سبباً في تأخُّرِ الشرقِ عن لحاقِ الأمم الأخرى في الحضارة.

وإنْ نحنُ قدّمنا اليوم «للسَّفُّودِ» بهذه المقدمة الوجيزة، وقد هَمَّ أحدُ أدباءِ الناشرين بنشره، فإنّما نقدِّمُ بها تعريفاً لما قصدنا من إذاعةِ هذه المقالات الانتقادية، التي أعتقدُ بأنّه لم يُنْسَجْ على منوالها في الأدب الحديث حتى الآن.

---

(١) [الصواب التقويم].

وعسى أنْ يكونَ «السَّفُّودُ» مدرسةَ تهذيبٍ لمن أخذتهم كبرياءُ الوَهْم، ومثالاً يحتذيه الذينَ يريدونَ أن يحرِّرُوا بالنقدِ عقولَهم من عبادة الأشخاص؛ ووثنيّةِ الصحافة في عهدها البائد.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

وأعوذُ بالله من الشيطان الرجيم في صورته، وفي صُوَرِ أتباعه وحزبه وشيعته، ممن خُلِقُوا ليكونَ فيهم تاريخُه على الأرض، ولتقومَ بهم أعمالُه جاريةً مجراها في مَقْتِ الله وغضبه، ولا بدَّ من مقتِ الله وغضبِه على هذه الدنيا مِلءَ ما يملؤه الليل؛ ونعوذُ باللهِ من كلِّ إنسانٍ أسود المعنى، فإنما غضبُ الله سوادٌ في معاني الناس.

وإذا شئتَ أن تعرفَ ما سوادُ المعنى، فاعلمْ أنَّه اللونُ الذي يراه صاحبُه المفتونُ أشدَّ بياضاً من الأبيضِ، فَيَسْخَرُ القَدَرُ من غلوِّه وغرورِه، فإذا هو كالوحل جاء في قالب ثلج. . وإذا هو سخريةٌ من ناحيتين، فالمغرورُ ولو كان أعلمَ الناس، واللئيمُ ولو كانَ أكبرَ الناس، والفاسدُ ولو كان أرقى الناس، وكائنٌ من كانَ إذا عُطِفَ على هذا النَّسقِ، وبالغٌ ما بلغَ إذا دخلَ في هذه الجملة ـ كلُّ أولئك في السماء برابرةُ المعاني. . وهم على خدَّي الأرضِ أبيضها وأحمرها.

وأما بعد: فإنّا نكشِفُ في هذه المقالاتِ عن غرورٍ ملفَّفٍ، ودعوى مغطاة، وننتقدُ فيها الكاتبَ الشّاعرَ الفيلسوفَ!! (عباس محمود العقاد) وما إياه أردنا، ولا بخاصّتِه نعبأُ بـه، ولكن لمن حوله نكشِفُـهُ، ولفائـدة هؤلاء عرضنا له.

والرجل في الأدب كورقة البنك المزوَّرَةِ، هي في ذاتِ نفسِهَا ورقةٌ كالورق، ولكنَّ مَنْ ينخدِعُ فيها لا يغرَّمُ قيمتَها، بل قيمةَ الرَّقمِ الذِي عليها، وهذا مِنْ شُؤمِهَا، ومِنْ هذا الشُّؤمِ حقُّ البيانِ على مَنْ يَعْرِفُهَا.

وقد يكونُ العقّادُ أستاذاً عظيماً، ونابغةً عبقرياً، وجبّارَ ذهنٍ كما يصفون، ولكنّا نحنُ لا نعرِفُ فيه شيئاً من هذا، وما قلنا في الرَّجلِ إلا ما يقولُ فيه كلامُه، وإنّما ترجمنَا حُكْمَ هذا الكلام، ونقلناه مِنْ لغة الأغلاطِ والسّرقاتِ والحماقاتِ إلى لغةِ النَّقْدِ، وبيّناه كما هو، لم نُبْعِدْ، ولم نتعسَّف، ولم نتمحَّل في شيءٍ مما بنينا عليه النقدَ؛ ولكلِّ قولٍ أو عملٍ حُكْمٌ على قائله أو فاعله، يجيء على قدره عالياً ونازلاً وما بينهما.

والعقّاد وإن زوَّر شأنَهُ، وادّعى وتكذَّب واغترّ، ومشى أمرُه في ضعفاء الناس بالتنطع والتلفيق والإيهام، فإنّ حقيقتَه صريحةٌ لن تزوَّرَ، وغلطاتِه ظاهرةٌ لن تـدَّعى، وسرقاتِه مكشوفَةٌ لن تلفّقَ، وما زدنا على أنْ قلنا هذا هذا؛ فإن يغضب الأَسْوَدُ على من يَصِفُ سوادَه، فليغضبْ قبلَ ذلك على وجهِهِ.

في هذه المقالات مُثُلٌ وعيّناتٌ تؤول بك إلى حقيقةِ هذا الأديب مِنْ كلّ نواحيه، وفيها كافٍ، إذ لا يلزمُنا أن نأتيَ على كلّ كلامه، إذا كان كلُّ كلامِه سخيفاً.

وآثار هذا المغرّر في الأدب تنظمُها كلَّها قضيةٌ واحدةٌ من السَّرقةِ والانتحال في غباوةٍ ذكيةٍ.. ذكية عند الطبقة النازلة من قرّاءِ جرائدِنا، وعندَ أشباهِهم، ممَّنْ ليستْ لهم موهبةُ التحقيق ولا وسائله. ثم.. ثم غبيَّـة فيما فوقها، وأولئك طائفةٌ لا ميزانَ لها ولا وزنَ، فلا ترفعُ ولا تضَعُ، وإنما العمل على أهلِ النظرِ والتأمُّلِ، ومَنْ فيهم قوةُ الصواب، وعندَهم وسائلُ

الترجيح، ولهم قدرةُ الحكم، وبلاغةُ التصفُّح، ولطفُ الخاطِرِ البعيد، والاستشفافُ لما وراء الظاهر.

وسترى في أثناء ما تقرؤه ما يثبِتُ لك أنّ هذا الذي وصفوه بأنّه جبّارُ الذهن.. ليس في نار (السَّفُّودِ) إلا أديباً من الرّصاص المصهورِ المذابِ.

ونرجو أنْ تكونَ هذه المقالاتُ قد وَجَّهتْ النقدَ في الأدب العربي إلى وجهِهِ الصحيحِ، وأقامتْهُ على الطريقِ المستوية.

فإنّ النقدَ الأدبيَّ في هذه الأيام ضربٌ من الثرثرةِ، وأكثرُ من يكتبونَ فيه ينحُون منحى العامة، فيجيئونَ بالصورة على جملتها، ولا يكونُ لهم قولٌ في تفصيلها، وإنما الفن كلُّه في تشريح التفاصيل، لا في وَصْفِ الجملة.

وماذا في أن تقولَ: هذا كلامٌ نازلٌ، ومعنًى مستغلـقٌ، وهذا استكراهٌ وتكلُّفٌ، وهذا ضعيفٌ رديءٌ، وهذا لم أفهمه ـ وهي طريقةُ الدكتور طه حسين وألفافِه ـ؟

ألا يقابل ذلك في الشاطىء الآخر من المنطق.. هذا كلامٌ عالٍ، ومعنًى مكشوف، وطبعٌ وطريقةٌ وحَذْوٌ جيد، وفهمٌ وبيانٌ، وهكذا من جملةٍ تقابِلُ جملةً، وكلمةٍ تنقُضُ كلمةً، وأخذٍ وردٍّ فيما لا يثبُتُ ولا يتحصَّلُ؟

يقولون: إننا في دور انتقال بالأدب العربي، والحقيقةُ أننا من العقاد وأمثالِه الغارِّين المغرورين بآرائهم الطائشة، وبيانهم المنحطّ ـ في دورِ انسلاخ ورجعةٍ منقلبةٍ، والأعرجُ ـ ويحكم ـ هو دائماً في دور انتقال.. إنْ ذهبَ يعمِّي ويتفلسفُ في أسبابِ عرجه، وما يمنعه أن يقول: إنّه ليس بأعرج، وإنما هذا فنٌّ جديدٌ من الخُيلاءِ والتبخترِ ينتقِلُ به.. من المشي خطواً إلى المشي رقصاً؟

هذا وقد كتبنا مقالاتِ «السَّفُودِ» كما نتحدَّثُ عادة لهواً بالعقاد وأمثالِه إذ كانوا أهونَ علينا وعلى الحقيقة من أن نتعبَ فيهم تعباً، أو نصنعَ فيهم بياناً،

فهم هَلاهيلُ لا تَشُدُّ أحدَهم حتى يتهتَّكَ ويَنْفَتِقَ وينفَلِقَ . .

وإِني لممَّا أَضْرِبُ الكَبْشَ ضَرْبَةً على رَأْسِهِ تُلْقي اللسانَ مِن الفَمِ[1]

* * *

(١) يفسّرون (مما) في هذا البيت (بربما) والبيتُ عربيٌ قديمٌ.

السفود الأول

سفود

وللسفود نار لو تلقت
بجاحمها حديدا ظن شحما

ويشوي الصخر يتركه رمادا
فكيف وقد رميتك فيه لحما

نشر في عدد شهر يوليو سنة ١٩٢٩ من مجلة العصور

عباس محمود العقاد

يقول جول لمتر الناقدُ الفرنسي المعروف: ولا أكادُ أفرَغُ من كتابٍ أقرؤه حتى يذهبَ بيِ الانفعالُ مذاهبَهُ حُزناً وفرحاً، وقد أضطربُ من شِدَّةِ السرور، وكأنما خالَطَنِي ذلك في اللَّحمِ والدَّم.

احذفْ هذا الشعورَ النبيلَ القائم على الفهم والحق، وعلى القلب والعقل، وَضَعْ في مكانه ألأمَ شعورٍ وأخزاه، يخرج لك عباس العقاد الجِلْفُ الحَقُودُ المغرورُ قائلاً: لا أكادُ أفرَغُ من قراءةِ كلمةٍ طيبةٍ لأحدٍ مِنْ خلقِ اللهِ حتى أمتلىءَ حِقْداً وغمّاً، وأرَاني أشعلتُ النّارَ في لحمي ودمي.

إن لم يقلْ هذا المغرورُ ذلك بياناً وكلاماً، فقد نطقتْ به أفعالُه في ألأمِ لغةٍ وأخسِّ طبيعةٍ، وهو دائبٌ منذ عشرينَ سنةً لا يعمَلُ إلا بهذه القاعدة، ولا تعملُ فيه إلا هذه القاعدةُ، وكان يَظُنُّ أنَّ النّاسَ يهابونَهُ لمكانٍ ما في نفسِه من نفسِه، ولكنَّهُ لمّا طُرِدَ أخيراً من جريدةِ «البلاغ» رأى حيطانَ الشوارع نفسَها تكادُ تشتمُه، وأيقنَ أنّه أهونُ وأسقطُ مِنْ أن يعبأَ به أحدٌ من الأدباء، وعلم أنّ الاحترامَ كانَ لمنزلةِ جريدةِ «البلاغ» لا لمنزلتِه هُوَ.

وماذا كان يعملُ في جريدة «البلاغ»، ولماذا أُخِرجَ منها؟ كانوا يحتاجون إلى سفيهٍ أحمقَ يُسَافِهُ عنهم، جرياً على القاعدةِ الحكيمةِ القائلة: إنّ الكريمَ لا يَحْسُنُ به أن يكونَ سفيهاً، فيجبُ أنْ يتخذَ له من يُسافِهُ عنه إذا شُتِمَ، فلم يَرَوْا أكفأَ من العقاد، وقاحةَ وجهٍ، وبذاءةَ لسانٍ، وموتَ ضميرٍ، وحمقاً

أكبر من الحمق الإنساني، ولؤمَ نفسٍ بقدر مجموع كلِّ ذلك، سفيهٌ مكرّمٌ بحكمِ السّياسةِ!!!

وما تقولُ في كاتبٍ يناقِشُ الدكتور هيكل رئيسَ تحرير «السياسة»، ذلك النابغةَ الذكي، والإنسانَ الرقيق، فيكتبُ عنه في صدر جريدة «البلاغ»: كتب الولد المسطول!!

ويناقِشُ الأستاذ خليل بك ثابت رئيس تحرير «المقطم»؛ وهو كاتِبٌ سياسيٌّ محنّكٌ، دقيقُ الفِكْرِ، مُتّسعٌ متفنِّنٌ، وقد زعمَ في بعض المسائل أنها مسألة اقتصادية، فيقول له العقاد في صدر «البلاغ»: إقتصاديةٌ ماذا يا مغفل!!

ثم وماذا تقولُ في كاتبٍ لم يشتهر إلا بمنزلة «البلاغ» في الأمة، ولم يعش إلا منه، ثم يتطاول بلسانه على صاحب «البلاغ» نفسه[1] ـ كما نشرت جريدة «الأخبار» ـ حتى يضطره إلى مثل الكلمة التي قيلتْ في السماءِ لإبليس: اخرجْ منها..

ولكن هل لهذا العقادِ قيمةٌ حقيقةٌ؟ وهل يخشاه أحدٌ من الأدباء كما يَظُنُّ هو، أو كما يخيّلُ إلى بعضِ النّاسِ في خارجِ مصرَ؟

أما أنا فأذكرُ للقرّاء أحدثَ دليلٍ وقعَ من أيامٍ فقط، وذلكَ أنَّ أديباً كبيراً أرادَ العقادُ أن يواجِهَهُ بلؤمه في مجلسِ رئيسِ تحريرِ مجلةٍ من أكبر المجلات، فثار فيه الأديبُ، وقال له في وجهه بالحرف الواحد: أنتَ وقحٌ سافِلٌ، وأنا أحتقِرُكَ، ولا أعرفُكَ[2].

---

(١) [قال المؤلف في كتابه «كلمة وكليمة» رقم (١٨٣): إذا اصطنعتَ سفيهاً يسافِهُ عنك فاحذره لليوم الذي لا يكون فيه سفيهاً إلا عليك.].

(٢) نحن نَصِفُ العقادَ بالوقاحة، وفي يدنا كتابةٌ بخطه وتوقيعه أعطانا إياها ليثبت لنا إثباتاً قانونياً!!! أنه كذلك، وهو كذلك يا عقّاد.

هذه هي منزلةُ الرّجلِ يُعَالنهُ بها أديبٌ من أكبر الأدباء؛ وماذا تظنُّه فعلَ حينَ سَمِعَ هذا؟ قال له دمه في داخل ضميره: صحيحٌ صحيحٌ!! فسكتَ، ثم قام، وكاد البابُ يَبْصُقُ في وجهه نيابةً عن الأديبِ المعتدَى عليه، وعلى أخلاقِه الكريمةِ[1].

الأمرُ كلُّه وهمٌ وخِدَاعٌ، كالحمارِ يلبَسُ جِلْدَ الأسدِ، فلمّا رأى القرّاء هذا العقاد لا يكتُبُ إلا سباباً وحقداً ولؤماً وتطاولاً على الناس، ودعاوى فارغةً، وتضليلاً وإيهاماً، بإيراد آراء الفلاسفة، وزعمِه مناقشتَها، ظنُّوا من تتابُعِ كلِّ هذا مالا بدَّ أنْ يظنه الضعفاء، ويتأثروا به مِنْ عملِ التكرارِ.

وقد قِيْلَ: إنّ الذئبَ إذا واثَبَ إنساناً ضلَّلَ حواسَّه، فجعلَ يثبُ بغاية السرعة أمامَهُ، وخلفَهُ، ويمينَه، وشمالَه، وفوقَه، ليخيِّل إليه مِنْ تَتَابُعِ هذهِ الحركةِ السريعةِ أنّه ذئابٌ كثيرةٌ لا ذِئْبٌ واحدٌ، وبعبارة أخرى ليديرَ أمامَ عينيه «فلم» ذئابٍ سنماتوغرافيّاً كاذباً، لا حقيقةَ له، وهكذا يفعل هذا الذِّئبُ الأدبيُّ العقاد.

ومن أين كلُّ هذا وما سببُه؟ نحنُ لا نجري إلا على أحدثِ قواعدِ النقد، وهذه القواعدُ تقضي بأنَّ الأفكارَ راجعةٌ إلى أحوالٍ عصبيّةٍ، وأنَّ ما في داخل الإنسان هو الذي يصنَعُ ما في خارجه، وكذلك الكاتِبُ في كتابته، فأنتَ لا تَصِلُ إلى حقيقتها إلا بعدَ أن تقِفَ على حقيقةِ مشاعره وأخلاقِه وطباعِه وأصلِه وفصلِه؛ هي وحدَها تفسيرُه، وتفسيرُ ما يكتُبُ وما يعمَلُ.

على هذا الأصل يجبُ أن يعرفَ الناسُ هذا المخلوقَ المسمّى العقاد.

وإذا صحَّ ما كتبتْهُ عنه جريدةُ «الأخبار» وعن منبتِه ـ فإنَّ مَنْ يَصِحُّ فيه مِثْلُ ذلك ـ يظلُّ العالَمُ كلُّه في نظره كالشارع الذي يُلقَى فيه لقيط؛ المكان والسكان والعالم وأهله في ناحية، واللقيط وحدَه في الناحية الأخرى، فهو

---

(١) انظر قصة الكتاب ص(٣٩).

يكرَهُ الوجودَ مِنْ أجلِ نفسه، ويكره نفسَه من أجلِ الوجود، والمنفعةُ الماديةُ وحدَها هي دنياه وأهلُه وناسُه.

سَلِ الأطباءَ: ما الذي يؤثّرُ في الجنين أشدَّ تأثيرٍ، ويخرِجُه شَرِساً حقوداً لئيماً بالغريزة إذا خرج كذلك؟ إنّهم يجيبونك إنّ المنبتَ مَصْنَعُ الطباع والأخلاق؛ فكل ما صنع في معملٍ جاءَ من موادّه، ولن يفلحَ فيه بعدَ ذلك أدبٌ ولا تهذيبٌ ولا علمٌ ما لم يكنْ في المعملِ أُدِّبَ وهُذِّبَ.

لو كان العقادُ يرضَى أنْ يقالَ عنه إنّه مترجمٌ لأنصفَ نفسَه وأراحها، ولكنّه يَزْعُمُ - في وقاحةٍ - أنْ لا عبقريَ غيره. فإذا ذهبتَ تقرأُ كتبَه رأيتَ أحسنَ ما يكتبُه هو أحسنُ ما يسرِقُه، وهذا أمرٌ كالمُجمَعِ عليه، ومع ذلك لا يريدُ اللِّصُّ إلا أنْ يُعَدَّ من أربابِ الأملاك!!!

تأمل أسماء كتبه: «ساعاتٌ بين الكتُب» «مراجعاتٌ في الآداب والفنون» «مطالعاتٌ في الكتُب والحياة» ما هذا؟ هل هي إلا اللصوصيةُ الأدبيةُ تسمِّي نفسَها من حيثُ لا يَشْعُرُ اللِّصُّ؟

وإذا ذهب كل إنسان يقرأُ الكتبَ التي تعدُّ بالملايين، ويلخِّصُ كلَّ كتاب في مقالة أو مقالات، فهل يعجز عن هذا العمل أحد؟ وهل يكون كلُّ الناس عباقرةً لأنهم قرأوا وفهموا وسرقوا ولخصوا؟

لقد هانت العبقريةُ، وأصبحَ خمسةُ آلاف من طلبة البكالوريا في هذه السنة وحدَها خمسةَ آلاف عبقريٍّ أنجبتهم مصرُ في عام واحد..

ويدَّعي العقادُ أنه إمامٌ في الأدبِ، فخذ معنا في تحليله؛ أما اللغة فهو من أجهلِ الناس بها وبعلومها[1] وقلما تخلو مقالةٌ له من لحن، وأسلوبُه الكتابيُّ أحمق مثله، فهو مضطرِبٌ مُخْتَلٌّ، لا بلاغة فيه، وليست له قيمة؛

(١) سيأتي ذلك مفصلاً بأمثلته.

والعقاد يقرُّ بذلك، ولكنَّه يعلله أنه لا يريدُ غيرَه، فنفهم نحن أنه لا يمكنه غيره.

وهو من جهة اللغة والبيان ساقط لا يكابر في هذا، أمسكْ عليه هذه المقدمة أولاً، ثم خُذْ منه نتيجتَها. نتيجتُها عند نفسه أنه شاعرٌ كاتبٌ عبقريٌّ!! وهَبْه نزل عليه الوحي، فما قيمة ذلك إذا كان لا يجيء إلا في أسلوبٍ سخيف؟

للعربية سرُّها في تركيبها وبيانها فإذا أهملناه صارت العربية (كلامَ جرائد) يصلح لشيءٍ، ولا يصلُحُ لشيءٍ آخر، يصلُحُ ليُقرأَ اليومَ ويلقَى، ولا يمكن أن يصلُحَ للغد، والاحتفاظ به، ليكونَ ثروةً للغةِ والبيانِ.

وأنتَ تقرأ شعرَ العقاد، فتجدُ فيه شيئين متباينين - بل متناقضين - الأول: بضعُ أبياتٍ حسنة لا بأسَ بها، والثاني: ألوفٌ من الأبيات السخيفة المخزية، التي لا قيمةَ لها، لا في المعنى، ولا في الفن، ولا في البيان، فعلامَ يدلك هذا؟ يدلك بلا شك أنّ الأبيات الحسنةَ مسروقةٌ، جاءت من قريحةٍ أخرى، وطبيعةٍ غير هذه التي تَعصِفُ بالغبار والأقذار؛ **فإنّ الشّاعر القويَّ لابد أن يتّسق كلامُه في الجملة على حذْوِ الألفاظ ومقابلة المعاني، وإذا نزل بعضُ كلامِه لعارضٍ ما، لم ينزِلْ إلا طبقةً واحدةً أو ما دونها.**

أما العقاد فيتدحرجُ!! من مئة درجة عندما يسمو، أعني عندما يسرق في بيتٍ أو بيتين.

نحن نفتحُ الآنَ ديوانَ هذا السخيف كما يتفق، ونخرجُ لك مما نصادفه، وكن واثقاً أنك لن تفتحَ صفحةً دون أن تقعَ على سخافاتٍ كثيرةٍ.

انظر قَوْلَه صفحة (٢٠) «لسان الجمال»:

يا مَنْ إلى البُعْدِ يَدْعُوني ويَهْجُرُني — أَسكِتْ لساناً إلى لقياكَ يَدْعُوني
أَسْكِتْ لسانَ جمالٍ فِيْكَ أسمعُه — في كلِّ يومٍ بأَنْ ألقاكَ يُغْرِيني

هذا البيتان لا بأسَ بهما، ثم يتدحرجُ بعدهما نازلاً.

وفي الشطرِ الأول غلطٌ ككلام الجرائدِ والرواياتِ السخيفة حين تقولُ: دعاه إلى أن يبتعدَ، ولا معنى لكلمة دعاه هنا، لأنّها لا تفيدُ إلا الإقبالَ، وهو يريدُ ضِدَّهُ، وكان الأفصحُ أنْ يقولَ: فيهجرني، ليكونَ الهَجْرُ مرتّباً على رغبةِ صاحبه في إبعاده، فيصوِّرُ أجزاءَ المعنى بألوانها.

والبيت الثاني كلُّه تكرارٌ لنصفِ البيتِ الأول.

وقد تجوّزَ العربُ في قولهم: نطقتْ الحالُ بكذا على اتّساع الكلامِ، لأنّ المنظر كالمنطق[1] فالمجازُ قريبٌ شائعٌ. ولكنّ البرودَ كلَّه أنْ يقولَ: سمعتُ وجهك يقول كذا، أو سمعت لسانَ جمالِكَ يقول كذا، فإنّ هذا يقتضي نُطقاً حقيقياً فيما لا ينطِقُ إلا توهُّماً ومجازاً وبهذا ينحطُّ المعنى.

وإذا كانَ للجمالِ في هذا الحبيب لسانٌ، فلا يُعْقَلُ أن يكونَ اللسانُ في غيرِ فمٍ، فإنّ هذا يُحضِرُ صورةَ هذا، خصوصاً بعد ما قال: (أسمعه)، وإذن صار الحبيبُ حيواناً عجيباً، في ظاهرِ أعضائه أعضاءٌ أخرى.

وما معنى قوله: (أسمعه في كل يوم)؟؟!! إذا كانَ لسانُ الجمال ناطقاً أبداً!؟ فالصواب في كل حين أو في كل وقت.

وإذا كان أخرسَ لا ينطِقُ إلا مرّةً في اليوم، فيكونُ تعبيرُه حينئذٍ صحيحاً، وهذا غير ما يريدُ المتشاعِرُ، وغيرُ ما هو حقُّ المعنى.

هل تريدُ الآن أن تَعْرِفَ أصلَ هذا المعنى على أدقِّ وأجملِ ما يأتي في الشعر، انظر قولَ العباس بن الأحنف:

أُرِيدُ لأدعو غَيْرَهَا فَيَجُرُّني ... لِسَاني إليها باسْمِهَا كالمُغَالِبِ

(1) يعلِّلونَ مثل هذا بقولهم: إنّ الحالَ أذنتْ بأنْ لَوْ كانَ لها جارحَةَ نطقٍ لقالت كذا.

فَقَلَبَ المتشاعِرُ المعنى، وجعل الذي يغالبُه لسان الجمال، وبذلك سقط الشعرُ، لأنّ ابنَ الأحنف أرادَ أنّ الحبيبةَ هي غالبةٌ على إرادته، فيجرُّه لسانه إلى اسمها إذا أراد أن يدعوَه إلى اسم امرأةٍ غيرها، والعقاد جعل لسان الجمال يدعوه فقط، لا يجرُّه جراً إذا أراد الحبيبُ أن يبعدَه عنه.

وقد عَبَّر أبو تمّام أحسنَ تعبير عن هذا المعنى بقوله:

هيَ الشَّمْسُ يُغْنِيْهَا تَوَدُّدُ وَجْهِهَا ... إلى كُلِّ مَنْ لاقَتْ وإنْ لم تَوَدَّدِ

وتأمل قوله: (يُغْنِيْهَا تَوَدُّدُ وَجْهِهَا) فهي كلمةٌ بالعقاد وكلِّ شعره.

نحنُ نعبثُ بهذا المتشاعر، ونُفْسِحُ له مَهْرباً كمهربِ الفأرِ بينَ أظافرِ الهِرِّ، لا يرسِلُهُ يميناً إلا لِيَضْرِبَهُ شمالاً، وإنما سرقَ المتشاعِرُ مِنْ قول القائل:

تُكَلِّفُنِي هِجْرَانَهَا بِلِسَانِهَا ... وَيَدْعُو إليها حُسْنُهَا بِلِسَانِ

وهذا معنًى كثيرٌ فاشٍ، تجده في الغزل، وفي المديح أيضاً، وهو في الشعر الأوربي أكثرُ منه في الشعر العربي[1]

* * *

بجانب هذه القطعة قطعة أخرى معربةٌ عن شكسبير، يقول في البيت الثالث منها:

ومَالَتْ على أُذْنَيْهِ حَتَّى كأنَّهُ ... لِيَسْمَعُ مِنْهَا شَجْوَهَا والتَّنَدُّمَا

فما هذه اللام في (ليسمع)؟ لامٌ عقاديةٌ ولا شك، أيُّ سخافةٍ وتخليط! إنّ هذه اللام لا تأتي إلا زيادةً في التوكيد، وهنا كأنّ للتشبيه لا للتوكيد، أي

(1) وينظر العقاد في سرقته أيضاً إلى (جيب) ابن الفارض في قوله:

وإلىٰ عِشْقِكَ الجمالُ دعاه ... فإلى هَجْرِهِ ترى مَنْ دَعَاكا

لم يسمعْ، بل كأنّه، فلا توكيدَ في الكلام، ولا محلَّ لتلك اللام مطلقاً، إلا أنّها مِنْ جهلِ المتشاعر.

ويقول في هذه القطعة:

تهدُّ قُوَى الثَّبْتِ المريرةَ مِنْ جَوًى … فَتَعْـرُقُـهُ إلا مشـاشـاً وأَعْظُمـا

فَسَّرَ (تعرقه) بقوله: عرقَ اللحمَ كشطَهُ وأبقى العِظامَ، فإذا كان هكذا، فمعنى البيت: تَكْشِطُ اللحمَ وتبْقِي العظامَ إلا العظام!!! أهذا بيانٌ أم هذيانٌ؟

* * *

ونفتحُ صفحة (٣٠) فإذا قطعة في العُقاب الهَرِمِ يقول فيها:

وَيُـثْـقِلُهُ حَمْلُ الجَنَاحَيْنِ بَعْدَ ما … أَقَـلاّه وَهُـوَ الكـاسِـرُ المُتَقَحِّـمُ

يريدُ بالكاسرِ مثل قول الجرائد التي يتعلَّمُ فيها: حيوان كاسر، وأسد كاسر، وهو خطأ، لأنّ هذه الكلمة لا تقال إلا للطائر حين يَكْسِرُ جناحيه للوقوع.

ويقول بعد هذا البيتِ:

جَنَاحَيْنِ لو طارا لَـنَصَّتْ فَدَوَّمَتْ … شَمَـارِيْـخُ رَضْـوَى وَاسْتَقَـلَّ يَلَمْلَـمُ

قال في الشرح: (التدويمُ) تحويمُ الطائرِ في الفضاء، و(الشماريخ) القلال.

والمعنى: أنّ خاصةَ (كذا) الطيرانِ سُلِبَتْ من جناحيهِ، فأصبحتا (كذا) هما والجبالُ سواءً. ما الذي فهمتَ أيها القارىءُ من هذا الشرحِ، ومن سخافةِ النظمِ؟

يريدُ المتشاعر أنّ جناحي العُقاب الهرمِ جَمَدَا، فلا يطيرانِ، فلو هما طارا لطارت في الجو شماريخُ جبلِ رَضْوَى، وقام جبلُ يَلَمْلَمُ يطير، فانظر أيُّ اضطرابٍ وأيُّ حمقٍ، وأيُّ سخافةٍ، ولماذا رضوى ويلملم دون هملايا

والألب؟ وهل يجمُدُ ويتحجَّرُ الجناحُ في هَرَمِ الطائرِ، فيشبَّهُ بالجبلِ الرّاسخِ! أم يضعفُ ويدِقُّ؟

ويقول:

لِعَيْنَيْـكَ يَـا شَيْـخَ الطُّيُـوْرِ مهـابـةٌ … يَفِـرُّ بُغَـاثُ الطَّيْـرِ عنْهـا ويُهْـزَمُ

بُغَاثُ الطيرِ ضعافُها، وما لا يصيدُ منها، ومنه قولهم: «إنَّ البُغَاثَ بِأَرْضِنَا يَسْتَنْسِرُ» يريدون أنّ البُغَاثَ ـ مع كونِهِ ذليلاً عاجزاً ـ لو نزل بأرضِنَا لانقلبَ نَسْراً. فأيَّةُ قيمةٍ للمهابة التي تَفِرُّ منها ضعافُ الطيرِ؟ أو ليسَ المعنى الطبيعي الشعري هو قولُ القائلِ:

وكـــلُّ بـــازٍ يَمَسُّـــهُ هَـــرَمٌ … تخـ. . علـى رَأْسِهِ العَصَـافِيْـرُ[1]

* * *

وفي صفحة (٣٢) «الليل والبحر» يقول:

ضَلَّ هادِي العيونِ واحْلَوْلَكَ الليلُ م … فـلا فَـرْقَ بَيْـنَ أعمـى وهِـرٍّ!!
وَلِـهَـذَا الظَّـلامُ خَيْـرٌ مِـنَ النُّـوْرِ م … إذا كُنْـتَ لا تَـرَى وَجْـهَ حُـرِّ

هنا تظهرُ سخافةُ هذا العقاد بأجلى مظاهرِها، فكلامه لئيمٌ، وأسلوبه لئيمٌ، وسرقاتهِ لئيمةٌ. يريد أنّك ما دُمْتَ لا ترى وجه حرٍّ مِنَ النّاسِ فالظلامُ خيْرٌ من النور. ألا ما ألأمها ما ألأمها! ألا يغورُ هذا المتشاعر في الأرض، وهو يعرِفُ أنّه يسرقُ ألأمَ سرقةٍ مِنْ قولِ القائلِ:

أَتَمَنَّـى علـى الـزَّمـانِ مُحَـالاً … أن تَـرَى مُقْلَتَـايَ طَلْعَـةَ حُـرِّ

هل عرفتَ الآن سُخْفَ العقاد، ولؤمَ شعرِه، وركاكةَ بيانِه المتهدِّمِ، وأنّه يمشي في الشعر على رجلين من الخشبِ!!

* * *

(١) أيْ لا مهابةَ له ولا خوفَ منه ما دامتِ العصافيرُ تَزْرُقُ على رأسِهِ، بخلافِ ما توهَّمَ المتشاعرُ العقادُ الذي جعلَ من الجناحين جبلين!!

وفي صفحة (٣٧) يزعُمُ المتشاعِرُ أنّه يعارِضُ ابنَ الرومي، ولعمري لو بصقَ ابنُ الرومي لَغرِقَ العقادُ في بصقته، يقول:

في كُلِّ رَوْضٍ قُرىً للزَّهْرِ يَعْمُرُهَا ... يــا حَبَّــذَا هــيَ أبيــاتٌ وسُكّــانُ

ولا أدلَ على جهلِ العقادِ بالنحو والعربية مِنْ هذا، فإنّ (أبيات) و(سكان) هنا في هذا التركيب يجبُ أن تكونَ منصوبةً على التميز، وقد جعلها مرفوعةً، لأنّه جاهِلٌ جهلاً صريحاً[١].

ويقول فيها:

نفاهُ عَنْ عُرُسِ الدُّنيا شواغِلُهُ ... إنّ الحِدادَ عَنِ الأعراسِ شُغْلاَنُ

من أيِّ لغةٍ جاء (بشغلان)؟ من قول العامة: عاملها شُغلانة..

ومن مضحكات هذه القصيدة:

بالغُصْنِ شَبَّهَهُ مَنْ لَيْسَ يَعْرِفُهُ ... وإنّمـا هُـوَ للـرائيـن بُسْتَـانُ..

وَهَلْ نماقَطُّ في غُصْنٍ عَلَى شَجَرٍ ... آسٌ وورْدٌ ونَسْـريْـنٌ وسَـوْسَـانُ؟

إذن هذا الحبيبُ أشجارٌ مختلفةٌ. أما تشبيهه قدَّهُ بالغصنِ فخطأ في رأي المتشاعر، ويجبُ أنْ يشبّهَ قدَّهُ بالحقلِ!! أليسَ هذا الخلطُ أسقطَ ما يمكِنُ أن تعثرَ عليه في أسخفِ الشِّعرِ، وفي أحطِّ الأزمنةِ؟ ولكن العقادَ مجدِّدٌ! «مجدد إيه وهباب إيه»..

انظر الأصل الذي سرق منه لابن الرومي:

لأيِّ أمرٍ مُرادٍ بالفَتَى جُمِعَتْ ... تِلْكَ الفنونُ فَضَمَّتْهُنَّ أفنانُ

تجاوَرَتْ في غصونٍ لَسْنَ مِنْ شَجَرٍ ... لكنْ غصونٌ لها وَصْلٌ وهِجْرَانُ

تِلْكَ الغُصُوْنُ اللواتي في أكِمَّتِهَا ... نعمٌ وبُؤْسٌ وأَفْرَاحٌ وأحْزَانُ

ما أجملَ هذا التصويرَ وأبدعَهُ في جَعْلِ ثمار تلك الغصون الإنسانية نعماً

(١) سيأتي كثيرٌ مثلُ هذا.

وبؤساً وأفراحاً وآلاماً، لا كما صنع المغفَّلُ الذي جعلها آساً ووردًا ونسريناً وسوساناً، ولو كانت القافية لاميةً لحسبناه يجعلُها بصلاً وثوماً وكرّاثاً وفجلاً[١]!!

على أن المتنبِّي أشار إلى ذلك المعنى إشارةً دقيقةً في قوله: (مظلومةُ القَدّ في تشبيهه غُصناً).

ولو كانَ في طبع المتنبيِّ الغَزَل لأبدعَ واستوفى المعنى، ولكنَّه في الغزلِ ضعيفٌ جداً يقلِّدُ غيرَه.

ويقول العقاد:

يا مَنْ يَرَانِي غَرِيقاً في مَحَبَّتِهِ ... وَجْداً، وَيَسْأَلُنِي هَلْ أَنْتَ غَصَّانُ؟

يعني إيه؟ الغَصَّانُ مَنْ به غُصَّةٌ، وهي ما يعترِضُ في الحلقِ فيُساغُ بالماءِ، فما معنى أن يكونَ الغريقُ غَصَّانَ؟ الظاهِرُ أنّ ذلك العاميَّ المتشاعِرَ ظنَّ أنَّ الغصانَ معناه الظمآن، والغريقُ لا يُسأَلُ هل أنتَ ظمآن، لأنّ الماءَ يملأُ حلقَهُ وجوفَهُ.

وانظر قول البحتري حين لاحَ له مثل هذا المعنى:

كان يُحْيِي مَيِّتاً مِنْ ظَمَأٍ ... بَعْضُ ما أَوْبَقَ مَيْتاً مِنْ غَرَقْ

انظر الفرقَ بين الشاعرِ الحقيقي مثل البحتري، والمتشاعرِ الدَّعي الغبيِّ مثل العقاد الذي يقول:

إنّي إلى الرَّعْي مِنْ عَيْنَيْكَ مُفْتَقِرٌ ... يا ضوءَ قلبي فإنَّ القلبَ مِدْجَانُ

فسَّرَ (مدجان) في الشرح بقوله: غائم!! ومدجان مفعال صيغةُ مبالغةٍ، فكيفَ تأتي صيغةُ المبالغةِ من الرباعيِّ أي فعل أدجن؟ مع وَضْعِهم وزناً

(١) فيقول هكذا:

وَهَلْ نما قَطُّ في غُصْنٍ على شَجَرٍ ... فِجْلٌ وثُومٌ وكُرّاثٌ وأبْصَالُ!!

خاصاً للمبالغة في هذه المادّة وهو فعل (ادْجَوْجَنَ).

والظاهِرُ أنَّ هذا العاميَّ فَهِمَ من معنى (الرعي) النظرِ، مع أنَّ قولهم رعاه الله لا يكونُ إلا بمعنى حفظه، فالمعنى أنَّهُ مفتقِرٌ إلى أن تحفظَه عينا الحبيب!! لأنَّ قلبَهُ مدجان. (يا حفيظ).

الحق أنّ الذي يقرأُ هذه القصيدة، ثم يقولُ: إنّ العقادَ شاعِرٌ، وإنّه يعرفُ العربيةَ، لا يكونُ إلا مغفَّلاً من أشدِّ المغفَّلين، وزَعْمُ ناظِمِهَا أنّه شاعِرٌ وإثباتُها في ديوانِه هو الدليلُ على أنّه مغفّلٌ.

ودليلٌ آخر على أنّه مغفّل قولُه:

والشِّعْرُ مِنْ نَفَسِ الرَّحْمٰنِ مُقْتَبَسٌ   والشّاعِرُ الفَذُّ بَيْنَ النّاسِ رَحْمٰنُ!!

لا نشير إلى إلحاد هذاالدعيّ الزنيم، فهو يباهي به تقليداً لبعض علماء أوربة، ولكنّه لمّا كان يدعي لنفسِه أنّه شاعر فذ، فكأنه في رأي نفسِه إلهٌ!! أغيثوه بطبيب مستشفى المجانين أيها الناس!!

ومن هذه القصيدة الحمقاء:

قالوا ابنُ آدم مِنْ قِرْدٍ فقلتُ لَهُمْ:   كَلاّ، ولكنَّهُ في النَّجْرِ ثُعْبانُ

يعني في الأصل، وهذا رَدٌّ من العقاد على داروين!!! ولعلّه ما نبهه إلى هذا المعنى إلا أنّه هو كالثعبان في أذاه وطوله، ولو كانتْ القافيةُ حاءً لقال إنه تمساح!!

* * *

ونفتَحُ الآنَ صفحة (٦٠) فنراه يقولُ يَصِفُ امرأةً في حمّامِ البحر:

البَحْرُ يَغْضَبُ وهيَ ضاحِكَةٌ   شتّانَ بينَ السُّخْطِ والسُّخْرِ

وَتَميلُ مِنْ ظَهْرٍ إلى بَطْنٍ   طَوْراً وَمِنْ بَطْنٍ إلى ظَهْرِ

هذا دليلٌ جديدٌ على جَهْلِ الرّجلِ بالعَروضِ، فإنّ آخِرَ الشطر الأول من البيت الثاني عروض حذاء مضمرة، **والإضمارُ مع الحذذ لا يَقَعُ إلا في**

الضَرْبِ، أي في آخرِ البيت، ومعنى هذا **أنه لا يجوزُ أنْ يقولَ في هذا الوزن** (إلى بطن) بسكون الطاء، بل يجبُ **أن يكونَ في مكان الطاء** حَرْفٌ متحرِّكٌ.

* * *

وفي صفحة (٦٥):

فاكتُبْ على هذا الزَّمانِ ذنوبَهُ   إنّا نُؤَجِّلُهُ الحسابَ إلى الغَدِ

ومع سخافةِ المعنى عدّى (أجّلَ) إلى مفعولين، وهو لا يتعدّى إلا إلى مفعولٍ واحدٍ.

* * *

ونقلِبُ الآن صفحة (١٠٥) «ضيق الأمل»:

شَرُّ مَا يَلْقَى الفَتَى أَجَلٌ   ضَيِّقٌ عَنْ وَاسِعِ الأَمَلِ

انظر غباوةَ اللصِّ لتعرفَ أنَّهُ لِصٌّ، وقابِلْ هذا البيتَ بقولِ القائِلِ:

أَمَلِي مِنْ دُونِهِ أَجَلِي   فَمَتَى أُفْضِي إلى أَمَلِي؟[1]

بربِّكَ أليسَ هذا هو الشعر وكلام العقاد هو الهذيان. أعرفتَ الآنَ أنَّ هذا السخيفَ لِصٌّ يَسْرِقُ من الجَوْهَرِي، ويبيعُ في سُوْقِ (الكانتو)!!؟

* * *

(١) هذا المعنى توليدٌ بديعٌ من قولِ سيّدنا علي: إنّ المرءَ يُشْرِفُ على أملِهِ فيقطعُه دونَه أجلُه، فانظرْ كيفَ سما الشّاعِرُ، وكيف سقطَ المتشاعِرُ؟

ديوان العقاد

أربعة أجزاء في مجلد واحد

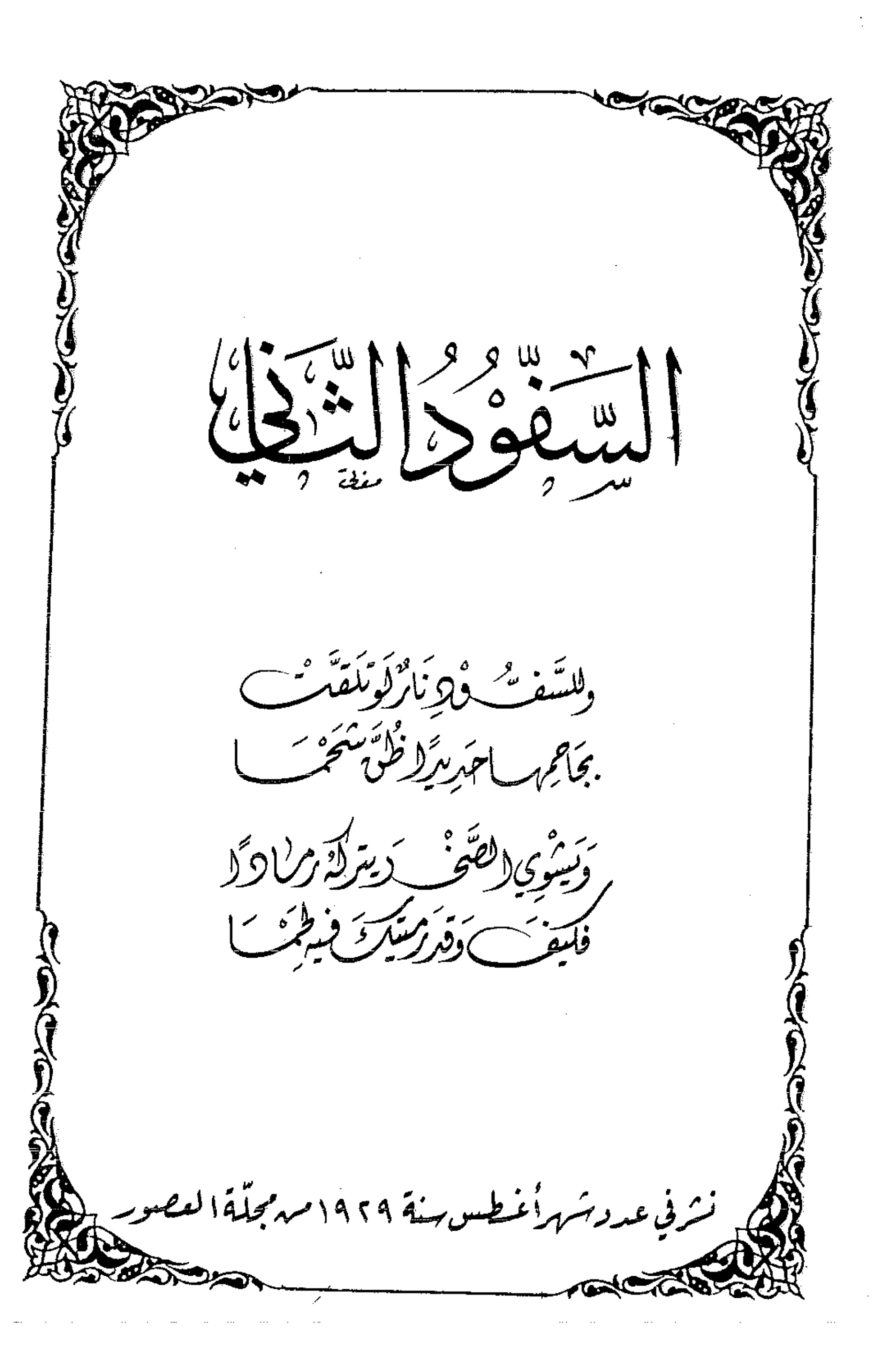
نظم

عباس محمود العقاد

الثمن ١٥ قرشاً صاغاً

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر
١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م

صورة الصفحة الأولى من ديوان العقاد الذي انتقده الرفعي



السفود الثاني

وللسفود نار لو تلقت
بجاحمها حديداً ظُنّ شحما

ويشوي الصخر يتركه رماداً
فكيف وقد رميتك فيه لحما

نشر في عدد شهر أغسطس سنة ١٩٢٩ من مجلة العصور

عضلات من شراميط[1]

قلنا: إنّ هذا العقاد لِصٌّ من أخبثِ لصوصِ الأدبِ، لأنّه معَ هذه اللصوصية يدّعي دائماً مِلكيةَ ما يسرِقُه؛ ومع هذه الوقاحة في الادّعاء يحقد على كُلِّ مَنْ يملكُ شيئاً من مواهبِ الله، ومع هذا الحقدِ الدنيءِ لا يتصوَّرُ الناسَ إلا على أمثلةٍ من نفسِه، ولعلَّه لا يعقِلُ أنَّ في أحدٍ مِنْ خلقِ الله دماً شريفاً أو عِرقاً سامياً، أو أخلاقاً نبيلةً، ومِنْ أجلِ ذلك لا يعرفه عارفوه إلا أعمى الإنصاف، كلُّ ضدين عنده هما ضدان باسم واحد، أو هما شيءٌ واحدٌ باسمين مختلفين، كما يقولُ هو في بَعْضِ تخليطاتِه، فقد رأينا له اليومَ في مجلة «الجديد» مقالاً عنوانه «ربة الجمال بلا يدين» لم نكد نقرأُ أولَه حتى ضحكنا من جَهْلِ هذا الدعيِّ العاميِّ، فهو يقول:

كان هيني الشاعر الألماني يعبدُ الجمالَ، ويعشَقُ كلَّ جميلٍ، وكان من عبادته في جحيم؛ أو قُلْ في نعيمٍ!!

خُـذَا بَطْـنَ هَـرْشَـىٰ أوقَفَـاهـا فإنّمـا ... كِـلاَ جـانبـيْ هَـرْشَـىٰ لهـنَّ طَرِيْـقُ

فإنَّ الجحيمَ والنعيمَ في عبادةِ الجمالِ شيءٌ واحدٌ باسمين مختلفين، كما أنّ هرشى طريقٌ واحدٌ من حيثما أخذتها[2]... وثق أنك إذا قلتَ

(١) الشراميط: الهلاهيل [قلت: وهي ما نسمّيها في الشّام (الشراطيط)، وهي بقايا الثياب الممزّقة اهـ مصححه].

(٢) ذكر هنا حكايةَ البدويِّ الذي تمثَّلَ بهذا البيتِ في حضرة عمر بن عبد العزيز فتركناها اختصاراً، ولأنّه لم يصحّحْ نقلَها.

النعيمَ، وأنتَ تعني الجحيمَ، أو قلتَ الجحيمَ، وأنتَ تعني النعيم، فلا لومَ عليك، ولا مخالفة للحقيقة!!! لأنَّ جحيمَ الجمالِ ونعيمَه كما قلنا شيءٌ واحد.. ولأنّهما دارانِ موضوعتانِ على رسمٍ واحدٍ!!! وفي سَعةٍ واحدةٍ!! لا فَرْقَ بينهما داخلاً ولا خارجاً!! إلا للوحة التي على الباب!!

عند هذا الحد ألقينا المقالة، واكتفينا من خلطِ الرَّجُلِ بالكلمات الأولى، إذ لو بقيَ المعتوهُ يتكلَّمُ مِنْ طلوعِ الشَّمْسِ إلى غروبها لكان كُلُّ كلامِه باسمٍ واحدٍ طبعاً. وقد نبهْنا هذِهِ الكلماتُ إلى الأصلِ الذي في نَفْسِ العقادِ، مما يَجْعَلُ الأشياءَ كلَّها شيئاً واحداً في اعتبارِه، لا على مذهب وحدةِ الوجودِ[1]، فهو أبعدُ النّاسِ عَنْ فَهم هذا المذهب وإنْ ادّعاه، لأنّ فهمَهُ لا يكونُ إلا بأنوارِ البصيرةِ وبإدراكِ التجلِّي الأَقدسِ، يعني لا يمكِنُ فَهْمُ هذا المذهب إلا بعدَ أنْ يتصفَّى الإنسانُ من الرذائل كلِّها، ويُدْرِكَ بنورِ نفسِه معنى النور الذي انبثقتْ مِنْهُ نفسُه، والعقّادُ في نفسِه كلُّه رذائلُ وظلماتٌ. لا يكابِرُ في هذا إلا العقاد!

وإذا كان هذا الرجلُ يعتبِرُ الأشياءَ كلَّها شيئاً واحداً ـ لا على مذهب وحدةِ الوجود، فعلى أيِّ مذهبٍ إذن؟

الجواب: على مذهب وحدة غريزته هو، لأنّه لو صحَّ ما يقالُ في مَنْبتِه وأصلِه، فالفضائلُ والرذائلُ حينئذٍ وكلُّ ضدين مختلفين لا فرقَ بينهما عند مثلِه إلا الاسم، وفي لغته هو: إلا اللوحة!!!

وقبلَ أنْ ننتقلَ من هنا نحلِّلُ الكلماتِ القليلةِ التي نقلناها عنه، ليعرفَ

(١) انظر في بيان وحدة الوجود كتاب «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين» لشيخ الإسلام مصطفى صبري رحمه الله تعالى (٣: ٨٥) وما بعدها، ففيه أدق وأصح ما كتب في هذا الباب.

القرّاءُ أنّ هذا الكاتِبَ الكبيرَ العبقريَّ!!! لا يفهَمُ ولا يكتُبُ إلا خطأً مِنْ ضعفٍ.

إذا كان هيني يعبدُ الجمالَ، فهل يعبدُه إلا لأنه يعشَقُ كلَّ جميلٍ؟ إذن فباقي الجملةِ حَشْوُ جرائد.

(وكان من عبادته في جحيمٍ أو قل في نعيم). إنّ (أو) لا تأتي إلا لأحدِ الشيئين، وهو يريد هنا الشيئين معاً جحيماً ونعيماً؛ فلا معنى لاستعمالها، وإنّما يتبَعُ في هذا التعبيرَ صغارَ المترجمين، الذينَ يشتغلون بالترجمة الحرفية.

ويقول: (كما أنّ هَرْشَىٰ طريقٌ واحِدٌ من حيثما أخذتها) فهرشَى يا حضرةَ العبقريِّ!!! ليسَتْ طريقاً، ولا معنى البيت يدلُّ على ذلك، ولا لها بطن[1] كما تقولُ؛ وإنما تَنْقُلُ نقلاً عامياً، وتَفْهَمُ فهماً عامياً، وليس فيك من العربية إلا كاتبُ جرائدَ على مقدارِ الحالة الحاضرة..

أصلُ البيتِ (خُذَا جَنْبَ هَرْشَىٰ الخ) وفي روايةٍ (خُذِي أَنْفَ هَرْشَىٰ) أو (خُذَا أَنْفَ هَرشى الخ) وهي ثنيّةٌ أو هضبةٌ لها طريقان، يُنْتَهَىٰ إليها من كليهما، فمن سَلَكَهُمَا كان مُصِيْباً. إذن هي ليستْ طريقاً واحداً من حيثما أخذتها يا عقاد.

والعجائبُ كلُّها في باقي العبارة، وهي أسطرٌ قليلةٌ، ولكنّها تدلُّ على ذهنٍ جبّارٍ، جبّارٍ، جبّارٍ!!

رأينا مرَّةً فتىً يريدُ أنْ يَظْهَرَ مَظْهَرَ رَجُلٍ مَفْتولِ العضلِ، فحشَا كُمَّيْهِ

(١) إذا كانتْ هضبةً أو ثنيةً أي أرضاً مرتفعةً فكيفَ يكونُ لها بطنٌ؟ ولكنَّ العقادَ وَجَدَ الكلمةَ مُحَرَّفَةً ممسوخةً فنقلَ مِنْ غيرِ تمييزٍ كعادته، وستأتي أمثلةٌ لذلك. وحكايةُ البدويِّ التي نقلَها ممسوخةٌ أيضاً، وأصلُها الصحيحُ في «معجم البلدان» لياقوت.

وصدّاره هلاهيلَ (شراميط)!! عضلات بارزة مكتنزة؛ لكنّها عضلاتٌ من شراميط!!

هكذا إعلانُ العقاد أنّه جبارُ الذِّهنِ، والحقيقةُ أنَّ الرجلَ جبّارُ الغريزةِ منذ كان إلى أنْ كانَ. . فيختلِطُ الأمرُ في وقاحتِه وادّعائِه وسلاطتِه على الضعفاء، أو على الجبناء.

ولكنَّ الذي يعرِفُ العضلات التي تُخْلَعُ مع الثّيابِ!! يَصْفَعُ صاحِبَها الجبّارَ مطمئناً بلا ريب.

طيب!! (جحيمُ الجمال ونعيمهُ شيءٌ واحدٌ) فما معنى (لأنهما داران موضوعتانِ على رسم واحد) وهل داران على رسم واحد تكونان شيئاً واحداً، وتأخذُ الحكومة عليهما ضريبةً واحدةً!! يا أصحابَ الأملاكِ وكلُّوا هذا المحامي الجبار الذهنِ ليُقنعَ الحكومةَ بهذه الفلسفة!!

وإذا كانا دارين فلا معنى لأن يقولَ الجحيم والنعيم، لأنَّ النعيمَ هذه من تعبيرات العامة، وإنما تأتي مضافاً إليها، فيقال: جنة النعيم، ودار النعيم، بخلاف الجحيم، فإنّها هي الدار. ثم الداران (في سعةٍ واحدةٍ) بعد أن قال حضرتُه:إنّهما على رسمٍ واحدٍ.

العقاد إذن مهندس ممن اشتغلوا في تخطيط الجحيم والنعيم، ومسّاحٌ أيضاً، موظّفٌ في ديوان المساحة الذي وراءَ الطبيعة!! وأكثرُ من ذلك، يظهرُ أنَّ هذا الصُّعلوكَ من كبار أربابِ الأملاك السماوية!! فأرادَ مرةً أن يشتريَ الجحيمَ والنعيمَ (فتفرّجَ) عليهما فإذا هما (لا فرق بينهما داخلاً ولا خارجاً إلا اللوحة التي على الباب).

طبعاً طبعاً هذه اللوحة كان مكتوباً عليها: جحيم ونعيم للبيع!! لا لا! بل هي كما يَظْهَرُ من معنى كلامِ الجبّارِ لوحةٌ من الرُّخامِ كُتِبَ عليها دار الجحيم. دار النعيم!!! أو (فيلا) نعيم وجحيم.

وإذا كان هناك (باب) عليه (اللوحة) فكيف صارتا دارين؟ كان ينبغي أن

يكونَ هناك بابان عليهما لوحتان، ولكنْ يظهر أن العقّاد رفعَ دعوى يَطْلُبُ الحكمَ فيها بسدِّ أحدِ البابين، لأنّه يفتحُ على مِلْكِهِ الخاصّ!! فحكم بِسَدِّهِ وإنزالِ اللوحةِ التي كانتْ عليه، وحينئذٍ صارتا دارينِ ببابٍ واحدٍ!!

أفتونا أيُّها القرّاءُ: أهذا جبارُ الذهنِ؟ أهذا كاتبٌ؟ أهذا أديبٌ؟ أهذا يَفْهَمُ بيانَ العربيةِ؟ أم هي صنعةُ جرائد، ثم مغفّلون من الكتاب لمغفّلينَ من القرّاءِ؟

* * *

وتَظَاهُرُ العقادِ باحتقارِ الأدباءِ ـ مع أنّه في نفسِه يغلي حقداً وحسداً ـ طريقةٌ مسروقةٌ يقلِّدُ فيها الكاتبَ الإنجليزيَّ الشهيرَ «برناردشو» الذي يقول: إنّه لا يَجِدُ عقلاً يستحِقُّ احتقاره إلا عقل شكسبير!!

ولكن انظر الفرقَ بين الأصل والتقليد، برناردشو يحتقِرُ النوابغَ من جهةِ عقليتِهِ فلا يحسِدُ، والعقادُ من جهةِ نفسيتِه فلا يعقلُ، والأول يضعُ الآراءَ ويبتكِرُها، والثاني يسرُقُ ويدَّعي، وذلك يحتقر احتقاراً سامياً أساسُه التظرُّفُ، وهذا دنيءٌ دنيءٌ أساسُه الحسدُ، ولؤُم الطبع، والعاميةُ الثقيلةُ الآتيةُ من الشوارع، تلك التي توهِمُ أهلَها أنّ الأسمَى لابدَّ أنْ يحتقِرَ الأدنى، فإذا تظاهرَ العاميُّ الوضيعُ باحتقارِ رجلٍ شريفٍ أو نابهٍ عظيمٍ، كان ذلك في منطقه دليلاً مقنعاً للناس أنه هو الأسمى والأشرف والأعظمُ!! فالعقاد لِصٌّ حتّى في الصفات، وحسبُكَ بهذا.

ومع أنّ برناردشو ذكيٌّ نابغةٌ، فقد خرجوا من نقده وتحليله بأنه كالمخدوع المغرور، أو هو مخدوع مغرور على الحقيقة، يمتاز بنقائصَ وعيوبٍ اختص ببعضها، وشارك الناسَ في بعضِها، وأنَّ ثقتَه بنفسِه تُفْقِدُ النّاسَ الثقةَ به، فقد يعتقد أنه جاء بالكلمة الأخيرة في الموضوع الذي يعالجه، في حين أنّ النقاد يكونون مقتنعين بأنّه لم يفهم قط، وينتهي من ذلك إلى أسخفِ الآراء، وأبعدِها في الخطأ مكاناً، بحيثُ يرجعُ أحياناً من

شِدَّةِ سموه الذي يتوهم، وليس فيه إلا رجلٌ عاميٌّ سطحيٌّ ضَعيفٌ.

هذا في برناردشو الذي ولدتْهُ أمُّهُ برناردشو، فكيفَ الحالُ في لِصٍّ مقلِّدٍ بينه وبين شو مثل ما بينَ بلديهما أسوان ولندن؟

ولكنْ لو سألتَ العقّادَ في هذا لما كانَ شيءٌ أسهلَ عليه من الجواب، فإنّه يقول: إنّ أسوان ولندن شيءٌ واحدٌ لا فرقَ إلا اللوحة، وبرنارد والعقاد شيءٌ واحدٌ لا فرقَ إلا.. واللهِ ما أنا عارف إلا إيه يا عقاد؟!

* * *

وما دُمنا في بيان سوءِ فهمِ هذا المغرور فنقول: إنّ بعضَ الأدباء سألنا عن رأيٍ نشرَهُ العقّادُ في مجلة «الجديد» يعلِّلُ فيه ميلَ ابن الرومي إلى الهجاء، وإقذاعِهِ فيه، وإفحاشِهِ في السَّبِّ، وذلك حيثُ يقولُ العقاد في تلك المقالة: «فالرَّجلُ (ابن الرُّومي) لم يكن شرِّيراً، ولا رديءَ النّفسِ (خُذْ بالك من رديء النفس) فلماذا إذن كَثُرَ هجاؤه، واشتدَّ وقوعُه في أعراضِ المهجوّين؟ نظنُّ أنّه كان كذلك لأنّه كان طيِّبَ السريرة» انتهى بحروفه.

نقول: إنْ صحَّ هذا صَحَّ مذهبُ التناسخ، ويكونُ ابن الرومي قديماً هو هو عباس محمود العقاد اليوم، جاءَ كما كان من قبلُ تماماً!! جباراً عندَ نفسِه، وقحاً عندَ النّاسِ. لئيماً عَسِيْراً لأنّه سهلٌ طيِّبُ السريرةِ.

يقول العقاد: «كان ابنَ الرُّومي هجاءً مُقْذِعاً في الهجاء، وكان لأهاجيه أثرٌ كبيرٌ في حياته وفي شُهْرَتِهِ (تأمّل)[1]. والواقع أنّ ابنَ الرومي لم يدعْ أحداً من النابهين في زمانه إلا هجاه، أو أنذرَ بهجائه. هل كان ابنُ الرومي شريراً لأنّه كان كثيرَ الهجاء؟ لا بل هو لو كانَ شِرّيراً لما اضْطر إلى كلِّ هذا الهجاء، أو لو كان أكبر شرّاً لكانَ أقلَّ هجاءً لأبناءِ عصره، ما كان هجاؤه

(1) لم يسلمْ أديبٌ ولا عالمٌ مِنْ لسانِ العقّادِ أو قلمه، فكلامُه نصٌّ في أنّه يعتقِدُ أنّ هذا سببٌ كبيرٌ للشهرة... وأنّه يعمَلُ بما يعتقد.

يشفُ عن الكيدِ والنكايةِ كما كانَ يشفُّ عن الحَرجِ والتبرُّمِ».

هذا كلامُ جبّار الذهن المضحِكِ، وقد وقفنا من نقلِهِ عند كلمة (الحرج) لأنّها أذكرتْنَا ما نعلمُه مِنْ أنّ أديباً لام العقّاد يوماً على حقدِه، وكلّمه في أنّ هذا عَجْزٌ منه وَضْعفٌ، لأنّه لو كان قوياً لنازلَ وصارعَ وأعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فإنَّ القوةَ تُعْجَبُ بالقوةِ، وتُقِرُّ لما هو أقوى. وقال له: إنّ المتلاكمين أو المتصارعين يتصافحان على الحلقةِ، ثم يتلاكمان، وقد يقعُ أحدُهما، ثم يعودان صديقين، لأنّهما في قانونِ القوةِ الإنسانية لا الوحشية. فقال العقّاد: أنا طيِّبُ السريرةِ، ولكنَّ الناسَ يُحرجونني أحياناً.

كلُّ كلامِ الرَّجلِ عن ابن الرُّومي هو مِنْ كلامِه عن نفسه لذلك الأديب، فلؤمُ ابنِ الرُّومي وسبابُه وإفحاشُه وبذاءتُه وهجاءُ كلِّ مَنْ مدحَهم، ووقوعُه في الأعراض، كلُّ ذلك لأنّه طيِّبُ السريرةِ!!!

تعالَوْا يا علماءَ الأخلاقِ والآدابِ، فخذوا هذا الاكتشافَ الجديدَ عن جبّارِ الذهنِ، الذي لا يعرفُ ما هو الهجاء في الشعر العربي، ولا ما هو تاريخه، وأصلحوا لغاتِ العالم كلَّها في تحديد معنى السفاهة والبذاءة، وفُحْشِ القولِ، ولَعْنِ أعراضِ الناس، فقولوا: إنّ كلَّ ذلك معناه ومنشؤه طِيْبُ السريرة!! على ما حققه جبّارُ الذهن المسمى عباس العقاد!!

لقد سئمنا هذا الهذيان من هذا السخيف، ولكن انظر التركيبَ العربيَّ في كلامِه لتعرفَ أنّه هو لا يفهم ما يكتبُه، وله مِنْ مثلِ هذا كثيرٌ جداً.

يقول: «إنّ ابنَ الرومي لم يكن شريراً، لأنّه كانَ كثيرَ الهجاء» ثم يقول: «لو كان شريراً لما اضطر إلى كلِّ هذا الهجاء» والمعنى الصريح في العبارتين: إنّ كثرةَ الهجاء دليلٌ قاطعٌ في نفي الشَّرِّ عن الرَّجُلِ.

ثم يقول: «لو كان أكبر شرّاً لكانَ أقلَّ هجاءً» وهذه العبارة قاطعةٌ في أنّ ابنَ الرُّومي كان شريراً، لأنّ أفعل التفضيل (أكبر) لا يُـذْكَرُ في الكلام إلا لتحقيقِ الزيادةِ في صِفَةٍ يشتركُ فيها شيئان، ويزيدُ أحدُهما فيها على الآخر،

فالمعنى بهذا التركيب أنّ ابنَ الرُّومي شريرٌ، ولكنّه قليلُ الشَّرِّ، لأنه كثيرُ الهجاءِ!! ولو كان أكبرَ شَرّاً لكانَ أقلَّ هجاءً.

إذن فالعبارتان السابقتان في نفي الشر لغوٌ لا معنى لهما إلا ثرثرة جرائد، لا تميِّزُ الصحيحَ من الفاسد، وهما دليلان لا دليلٌ واحدٌ على أنّ العقاد كاتباً كالعاميِّ قارئاً سواء بسواء، كلاهما غيرُ تامّ وعلى غيرِ قاعدةٍ.

وفي هذا المقال الذي سألنا عنه الأديبُ يفسِّرُ جبارُ الذهن بيتاً لابنِ الرُّومي هو قوله:

لا يَغْضَبَنَّ لِعَمْـرٍو مَـنْ لَـهُ خَطَـرٌ   فَلَيْسَ يَـرْضَـىٰ بِظُلْمِي مَنْ لَهُ خَطَرُ(١)

قال جبار الذهن: كأنّه يقولُ: لقد صبرتُ على عَمْرٍو، فرضي الناسُ بظلمِه إيايَ، فإذا هجوتُه أنا الآن فما يحقُّ لذي خطرٍ أنْ يغضبَ له، وهو منصفٌ بيني وبينه(٢).

ماذا فهمتَ أيها القارئُ من جبار الذهن في تفسيره؟ أينَ صَبْرُ ابن الرُّومي على عَمْرٍو في هذا البيتِ الذي ترتب عليه رضا الناس بظلم عَمْرٍو لابنِ الرُّومي؟ ثم إنّ ترتيبَ رضا الناس على صبر الشاعر ـ بدليلِ استعمالِ الفاءِ في قوله فرضِيَ الناسُ ـ يُفْهَمُ منه بدلالةِ اللزومِ أنّه لو لم يَصْبِرْ ابنُ الرومي لغضبَ النّاسُ على عَمْرٍو، ولم يرضُوا بظلمِه للشّاعرَ. فإذا كانَ كذلك، فلماذا صبر ابنُ الرومي، وهو يملك هذا السِّلاحَ الماحِقَ، سلاحَ الرأي العام، الذي أنعمَ الله عليه به بعدَ موتِه!! بأكثر من ألفِ سنة على يد جبار الذهن؟

صَبَرَ ابنُ الرُّومي على الظلم فرضيه الناس له، فإذا نفدَ صبرُه الآن، وهجا عمراً، فلا يحق للنّاسِ أن يغضبوا لعمرٍو إذا كانوا منصفين، هذا هو

(١) الرواية (فليس يَرْضَى بِضَيْمِي).

(٢) مجلة الجديد عدد (١٣) مايو سنة (١٩٢٩).

وَجْهُ العبارةِ لو كان العقّاد يُحْسِنُ الكتابةَ. ولكنّه خلَّط، فجعلَ النّاسَ يرضون جملةً بالظلم، ثم لا يَغْضَبُ منهم حينَ الغضبِ «إلا ذو خطرٍ» وجعلَ ذا الخطرِ هو الذي ينصِفُ وحدَه حين قَصَر عليه الجملةَ الحاليّةَ، وهذا من تلفيقِ الرَّجلِ وتعميتِه على القرّاءِ، ليوافقَ كلامُه ألفاظَ البيتِ، إذ لو قال: رضى «الناس» ولا يحقُّ «للناس» أن يغضبوا لتعرّضَ للفضيحةِ، لأنّ الشاعرَ نفسَه لا يريد «الناسَ» بل مَنْ له خطرٌ منهم.

ويبقَى أنّه يلزم من تفسيرِ العقادِ أنّ الناسَ في عصر ابن الرومي كانوا على هذا الشأن فيما بينه وبينَ عمرٍو فقط، وأهملوا أمرَه مع كلٍّ من هجاهم، وكلٍّ من ظلموه، وكلٍّ من صبر عليهم، وهذا فتحٌ جديدٌ في التاريخ، ويجبُ أن يضافَ إلى اكتشافات العقاد، ولعله كان كذلك، لأنّه عمرُو بنُ أمِّ عَمْرٍو، الذي قال فيها الشاعر:

إذا ذَهَـبَ الحِمـارُ بِـأُمِّ عَمْـرٍو   فـلا رَجَعَـتْ ولا رَجَـعَ الحِمَـارُ

نحنُ على يقينٍ أنّ هذا العقادَ ضعيفُ الفهم، وهو يهرُبُ دائماً من التفسير في الآداب العربية لهذه العلة، فإنْ وقعَ مرةً وقعَ على أُمِّ رأسِه، كما ترى في هذا البيت. ومع أنّ الكُتُبَ الأوربية التي يُغِيْرُ عليها كثيرةُ الشروح والتعاليق والنقد، فله سخافاتٌ في فهمِ الآراء الدقيقة منها، كما سنبيِّنُ ذلك. وما غَطّى عليه إلا أنه دائماً يسرق، فيلخِّصُ، وينتحِلُ، ولا يبيِّنُ الأصلَ الإفرنجيَّ الذي يُغيرُ عليه، لتمكنَ المقابلةُ.

معنى بيت ابن الرُّوميِّ هو هذا: إنّ عمراً ذليلٌ لا خطرَ له ولا شأنَ؛ ولذلك لا يغضَبُ له مَنْ له شأنٌ ونباهةٌ، فإنَّ مَنْ كان بهذا الوصفِ لا يرضَى بظلمي لمنزلتي عندَ ذوي الخطر، وإنما يرضَى بظلمي السَّفلةُ وأمثالُهم من الحشوة والطَّغام، الذين لا يدرِكونَ قيمةَ الشِّعرِ وشاعرِه، وليس لهم أعراضٌ ولا مناصبُ يخافونَ عليها الهجاءَ، على حدِّ القولِ المشهورِ:

اذْهَـبْ فأَنْـتَ طَلِيْـقُ عِرْضِـكَ إنَّـهُ   عِـرضٌ عَـزَزْتَ بـهِ وأَنْـتَ ذَلِيْـلُ!

وكلُّ تاريخِ الأدبِ العربي في بابِ الهجاءِ ناطقٌ أنَّه لا يخافُ الهجاءَ ولا يتحاماهُ إلاّ ذو خطرٍ مِنْ عرضٍ ونَسَبٍ وجاهٍ الخ الخ.

هذا على اعتبار أنّ (لا) في قوله (لا يغضبنّ) نافيةٌ، فإذا كانتْ للنهي كان المعنى هكذا: لا يغضب ذو خطرٍ وشأنٍ كعمرٍو، لأنّ ذا الخطرِ يتقيني ويخشاني، فلا يرضَى بظلمي، فلا يغضَب لمن ظلمني.

وعلى كِلا الوجهين فأساسُ البيت هَوانُ عمرٍو على الناس، وفخرُ ابنُ الرومي بصولتِه، وخشيةِ ذوي الأحسابِ والمناصبِ والجاهِ من لسانهِ وهجائِه[1].

نحبُّ الآنَ أن نعرفَ مَنْ هو أجهلُ الناسِ وأبلدُهم وأشدُّهم جبناً؟ فإنّ صاحب هذه الصفاتِ مجتمعةً هو الذي يغضَبُ لعمرٍو!! ويجرؤُ على

---

(١) بعد أن نُشِرَ هذا الكلام رجعنا إلى «ديوان ابن الرومي» وفتّشنا عن القصيدة التي منها هذا البيت، فما كان أشدُّ عجبنا من بلادةِ العقاد، وخبثِه، وتعميتِه على القرّاء، وتغفُّلِهم، ليوهمهم أنّه فكَّرَ وفسَّرَ، وما كان أثبتَ يقيننا بأنّ هذا العقادَ ضعيفُ الفهمِ، لا ينبغي له أنْ يتكلَّمَ في الأدب، فالبيتُ مِنْ قصيدةٍ طويلةٍ يهجو بها عمراً النصرانيَّ الذي أُولِعَ بهجائِه، وكان كاتباً لابن الوزير، ويريدُ الشاعِرُ أنْ لا يَغْضَبَ ابنُ الوزير لكاتبِه، وإليه أشار بقوله: (مَنْ له خطرٌ) فهو يعنيه وحدَه بهذِه الإشارةِ، وقد مدحَهُ في آخرِ القصيدةِ.
وفي أبياتٍ أخرى هجا بها عمراً هذا يقول منها:
أَلا يـا ابـنَ الـوَزِيْـرِ أَلا انْتَـزِعْـهُ وَلا تَغْـرِسْـهُ قُبِّـحَ مِـنْ غَـرِيْـسِ
أي اعزلْه من عملِه، ولا تغرسْهُ في نعمتك، فلا ابنُ الروميِّ صبرَ على عمرٍو، ولا النَّاسُ رضوا بظلمِه إياه، ولا شيءَ مما خلَّطَ به العقادُ، ولعنَ اللهُ الغفلةَ والشعوذةَ على القرّاء، بمثلِ هذا الهُراءِ..

المكابرةِ بعدَ هذا البيانِ، فيقول: إنَّ العقاد يفهمُ الشِّعرَ، وإنه يجوزُ له أنْ يكتبَ في الأدب.

* * *

ونعودُ إلى نظرةٍ سريعةٍ في شعر جبّارِ الذهن، **وهذا الجبّارُ أهونُ علينا من أنْ نضيِّعَ الوقتَ في قراءةِ شعرِه أو كتابتهِ قراءةَ تتبُّعٍ واستقصاءٍ، وإنما سبيلُنا أنْ نفتحَ أيةَ صفحاتٍ مِنْ ديوانِه، أو عدداً يكونُ أمامنا من مجلّةِ** «الجديد» التي يكتُبُ فيها الآن، **فإننا لتراكُمِ الأعمال لا نقرأُ المجلاتِ إلا** بعدَ صدورها بزمنٍ، ولكنّنا نقرأُ ما نحبُّه منها على كلِّ حالٍ، **ومنها مجلّةُ «الجديد»**.

* * *

على غلافِ «ديوانِ العقاد» هذه الكلمة (أربعة أجزاء في مجلد واحد) والديوانُ ورق لا يساوي ثمن تَجليدِه، ولم يخرجْهُ صاحبُه مجلّداً، فما معنى (مجلد واحد)؟

وكلمةُ (مجلّدة) أو (مجلّد) لا تستعمَلُ إلا في الكتابِ يغشَّى بالجلدِ، لأنّها من جلَّد، أي وضعَ الجلدَ عليه، وإذا صحَّ أنَّ كلَّ مطبوعٍ يسمَّى مجلَّداً، جاز حينئذٍ أن يكونَ معنى العبارة: أربعة مجلدات في مجلدٍ واحدٍ!!

هذا أيضاً من جَهْلِ الجبار، لأنّه يريدُ في سِفْرٍ واحدٍ، أو كتابٍ واحدٍ، أو مجموعٍ واحدٍ[1].

وبهذه المناسبة رجعنا إلى أوائلِ الأجزاء، فإذا اسمُ الجزءِ الأولِ «يقظة الصباح» والثاني «وهج الظهيرة» والثالثُ «أشباح الأصيل» والرابع «أشجان

---

(١) كان ذلك في صيف سنة (١٩٢٩) [وقد طبع ديوان العقاد بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر].

الليل» وهذه الأسماء لم تكن من قبلُ حين طُبِعَتْ الأجزاءُ قديماً، وإنما لُفِّقَتْ حديثاً في السنَّةِ الماضية عند طبعها في (مجلد واحد)!

حسنٌ جداً، وجداً حسنٌ؟ ولكنْ مِنْ أينَ جاءَ هذا التخليط؟ يقول جبار الذهن في كلمةِ الختامِ: فإذا قرأ القارِىءُ فربّما وجدَ في «أشجان الليل» ما هو أخلقُ «بوهج الظهيرة» أو وجد في «يقظة الصباح» ما هو أخلقُ «بأشباح الأصيل»، الجبَّارُ إذنْ يُقِرُّ بالتخليطِ، ويعترِفُ بهِ، لأنّه لا يستطيعُ أن يكابِرَ أن كلَّ نظمِه هُراءٌ في هُراءٍ، فإذا كانَ هذا الخلطُ واقعاً معترفاً به، فما معنى هذه الأسماء؟

معناها أنّ العقاد رجلُ دعوى وتدجيلٍ وغرورٍ، فيسرقُ ويدّعي الملكية، هو يعترِفُ أنّ الأسماءَ ليست على مسمَّياتِها، إذنْ فهو لم يضعْها لأنّه لا يخطُرُ لمؤلِّفٍ مهما كان جاهلاً أن يضعَ اسماً على غيرِ مسمّاه، إذن فهو قد سرقها، وهذا هو الصحيحُ.

وضع الشاعِرُ الفرنسيُّ الكبيرُ مكيور دو فوجيه (Melctior de vogue) عضو الأكاديمية الفرنسية روايةً شعريةً سمّاها «جان آجريف» (Jean Agreve) وجعلَها أربعةَ أناشيد، لأنّها تصفُ حياةَ حبٍّ بديعٍ، منذ بدئه إلى منتهاه، ومِنْ أملِه إلى خيبتِه، وسمَّى النشيد الأول «الفجر» والثاني «الظهيرة» والثالث «الأصيل» والرابع «الليل»، لأنّ في الأولِ: انبثاقَ نورِ الحبِّ، وفي الثاني: توهجه، ومع الثالث: تخافتَه، وعند الرابع ظلامَه وفناءَهُ.

أسماءٌ على مسمَّياتِها كما ترى، وهو في كلِّ نشيدٍ يُبْدِعُ في التصوير، والقصةِ، والحادثةِ، ولا يعدو الحدَّ الذي يفصِلُ بين الاسمين، بل يمرُّ بالقصةِ وحوادثِها ومعانيها كما تمرُّ الشَّمْسُ مِنْ لَدُنْ تطلعُ إلى أنْ تغيبَ، وتظلِمُ خلفَها الدنيا، فتموتُ الحبيبة في ناحيةٍ والمحبُّ في ناحيةٍ أخرى.

ومع اعترافِ جبّار الذهنِ أنّ هذه الأوضاعَ لا تنطبِقُ على سخافاتِه التي سماها (أربعة أجزاء في مجلد واحد)[١] فإنّ طبعَ اللصوصية المنغرس فيه أبى عليه إلا أن يسرقَها ويدعيها، ويذهبَ المذاهبَ في تعليلِها تدجيلاً وتعميةً على القرّاء، وهذا كلُّه صريحٌ في أنه لِصٌّ مخادِعٌ مدَّعٍ، لا يحترِمُ نفسَه ولا الناسَ ولا الحقَّ.

عجيبة عجيبة!!

نفتح الآن صفحة (١١٣) من «يقظة الصباح»!!! فماذا نرى؟ تهنئة بعيدٍ:

عثمـانُ يا عيـدُ مَنْ يحظَى بصحبتِهِ ... بُلِّغْتَ ما شِئْتَ في الأيَّامِ والنَّاسِ
أَوْلَى الأنـامِ بـإسْعَـادٍ وتَهْنِئَـةٍ ... مَنْ كانَ كالعِيْدِ في بِشْرٍ وإيْنَاسِ

إذا بلغَ الحِرْصُ بشاعرٍ على أنْ يثبتَ في ديوانِه مثلَ هذينِ البيتينِ فقلْ فيه ما شئتَ ولا تبالِ، واعلمْ أنّكَ مصيبٌ في كلِّ ما تقولُ.

ومن فسادِ الذّوقِ في جبّارِ الذّهنِ أنّه يدعو على النّاس في يومِ العيدِ، لأنّهُ يدعو لعثمانَ أن يبلِّغَهُ اللهُ ما يشاءُ فيهم، وماذا يشاءُ عثمانُ في النّاسِ؟ أيجعلُهم عبيداً له؟ أم يأكلُ أموالَهم؟ أم ينكبهم وينتقِمُ منهم؟ إنّ العبارةَ نفسَها في هذا التركيب لا تقالُ إلا في الشرِّ، فإنّك تقولُ لإنسانٍ: بلغَّكَ الله ما شئتَ في أعدائِكَ، ولا يمكنُ أبداً أنْ تقولَ بلَّغكَ الله ما شئتَ في أصدقائِكَ وأصحابِكَ، إذ لا يشاءُ فيهم، ولكن يشاء لهم.

ومعنى البيتين مبتذَلٌ متداوَلٌ على ألسنةِ النّاسِ، حتى العامة، وقد مسَخَ المتشاعِرُ كلامَ المتنبّي في تهنئةِ سيفِ الدولة بعيدِ الأضحى في قوله:

هنيئـاً لكَ العِيْدُ الذي أنتَ عِيْدُهُ ... وَعِيْدٌ لِمَنْ سَمَّىٰ وَضَحَّىٰ وَعَيَّدَا

(١) وهذه العبارة أيضاً سرقها العقاد من طابع مختصر ديوان ابن الرومي، فإنّ هذا كتبَ على الديوان (ثلاثةُ أجزاءٍ في مجلَّدٍ واحدٍ). واعجب واعجبي.

فَذَا اليومُ في الأيامِ مِثْلُكَ فِي الوَرَىٰ   كما كُنْتَ فِيْهِمْ أَوْحَداً كان أَوْحَدَا

المتنبي جعلَ أميرَه عيداً للعيد ولأهلِ العيد، والمتشاعِرُ جعل عثمان!! عيداً مَنْ يَحظى بصحبته. . .

والمتنبّي جعلَ يومَ العيد في تفرُّدِه مثلَ الأميرِ في كونِهِ أوحدَ النَّاسِ.

والمتشاعِرُ جعلَ عثمان (كالعيد) في بشرٍ وإيناسٍ (وزمّاراتٍ ولُعَبٍ وكَحْكٍ وغُرَيْبَةٍ)!!!

من الإهانة للمتنبي أنْ نقولَ إنّ العقادَ سرقَهُ، وإنْ كان سرقَهُ، ولكنّا في كلِّ ما نذكرُ من سرقاتِ هذا المتشاعرِ الجبار لا نريدُ إلا أنْ يقابِلَ القرّاءُ بينَ الشعر الحقيقي في قوتِه ومتانتِه وإحكامِ صنعتِه، وبينَ الشعرِ الزائفِ المنحطّ في سخافتِه وركاكتِه، مع أنّه مسروقٌ من ذاك!! فلو أخذَهُ شاعرٌ حقيقيٌّ يستحِقُّ اسمَ الشّاعرِ لجاءَ به على الأقل في طبقةِ الأولِ، إنْ لم يكنْ أبدعَ وأسمَى منه، ولم ينزِلْ إن لم يَعْلُ، ولم ينقِصْ إن لم يَزِدْ.

فإذا كان جبارُنا المضحِكُ يسرقُ، ومع ذلك لا يجيئنا إلا بالسَّخيفِ الذي لا يُذْكَرُ بجانبِ الأصلِ فإنّه. . فإنه إيه؟

فَإِنَّـهُ سَيْـفُ نَجَّـارٍ!!! تَقَلَّـدَهُ   مَـنْ زَنْـدُهُ عَضَلاتٌ مِـنْ شَـرَامِيْـطِ

* * *

السفود الثالث

وللسفّودِ نارٌ لو تلقّتْ   بجاحمِها حديداً ظلَّ شحما

ويشوي الصخرَ يتركُه رماداً   فكيفَ وقد رميتُكَ فيه لحما

نشر في عدد شهر سبتمبر سنة ١٩٢٩ من مجلة العصور

جبار الذهن المضحك

لابـدَّ أن يكونَ «قرّاءُ العصورِ» قد تنبَّهوا إلى غلطاتٍ مطبعيةٍ تقع أحياناً في هذه «السفافيد» لا تُخِلُّ بالمعنى، ولكنَّ العجيبَ أنَّ الأقدارَ أوقعتنا في غلطةٍ بعثتْ عليها العجلةُ في طبع «العصور» ، فسقطَ سطرٌ كامِلٌ من السَّفُّودِ الأول عن جبارِنا المضحك، ولما تأملنا موضِعَه ظهر لنا أنَّ القدَرَ يلفتُنا بهذِه الغلطة المطبعية إلى جَهْلةٍ من أقبحِ جَهَلاتِ العقاد، ويبيِّنُ لنا عن مقتلٍ من مقاتلِ هذا المغرور، لم نكن تنبهنا إليه من قبلُ، وهو كما يقولون في لغة الملاكمةِ من مواضعِ الضربةِ القاضيةِ.

ولا ريبَ عندنا أنَّ العقادَ بعد هذه «السفافيد» كالمرأة بعدَ سقوطِ أسنانها!!! لو وَجَدَتْ مَنْ يُطَعِّمُ خدَّيْها من شجرةِ تفاحٍ، وثديَيْهَا من شجرةِ رمانٍ، وشفتيها من فَرْعِ وَرْدٍ، وقامَتَها من غُصْنِ بانٍ، (وكمان) يجعل نظراتها من أشعةِ (رُنْتجن) وابتساماتها من أشعة (إكْس) ولهلوبتَها الغرامية!!! من الأشعة التي وراءَ البنفسجية ـ لما وجدت مع انفضاضِ فمها، وسقوطِ أسنانِهَا وانخسافِ شِدْقَيْها مَنْ يُعِيرُها نظرةً أو لفتةً إنْ كان في عينيه نظرٌ.

قلنا في السَّفود الأول (٧٣) عند قول هذا المتشاعر:

إنّـي إلـى الرعيِّ مِنْ عينيكَ مُفْتَـقِـرٌ ... يا ضـوءَ قلبـي فإنّ القلبَ مِدْجَـانُ

فسر (مدجان) في الشرح بقوله: غائم!! ومدجان مِفْعال صيغة مبالغة، فكيف تأتي صيغةُ المبالغةِ من الرباعي، أي فعل (أدجن)؟

وهنا مَوْضِعُ ما سقطَ من المطبعة، وهو: مع وَضْعِهِم وزناً خاصاً للمبالغة: في هذه المادّةِ، وهو فعل ادْجَوجَنَ[1].

ولكنّ سقوطَ هذه العبارة جاءَ كما قلنا إعلاناً من القدر أنّه لا يرضى هذه الضربة، لأن ها هنا موضعَ ضربةٍ قاضيةٍ يجبُ أن يخرَّ بها الجبار لليدين والفم.

وبيانُ ذلك أننا أحسنّا الظنَّ بالعقاد، وكانتْ في اعتبارنا بقية أنه على شيءٍ من العربية، لأننا إذا وصفناه بالعاميِّ، فلا نعني أنّه من عامة السوقة، بل مِنْ عامة محرري الجرائد. فلما رأيناه يقول: (إنَّ القلبَ مدجانُ) لم يكن لنا سبيلٌ إلا أن نعدَّ (مدجان) صيغةَ مبالغةٍ، إذ أخبر بها عن مذكَّرٍ وهو القلب، وصِيَغُ المبالغة لا تأتي من الرباعيِّ إلا ألفاظاً مسموعةً، منها مِحْسَاسُ من أحسَّ، ومِعْطاءٌ من أعطى، ومِعْوَانٌ من أعان، ومِتلافٌ من أتلفَ، عند من يراها من أوزان الكثرة، وهي في الحقيقة زيادة في وزن مِتْلف، لأنّهم يقولون: فلانٌ مِخْلَفٌ مِتْلَفٌ، فلما أرادوا الزيادة في المعنى قالوا: مخلافٌ متلافٌ.

ولكنّ كلَّ هذا إنما هو سماعي في أفعال لم تأتِ منها أوزانٌ أخرى لتحقيق معنى المبالغة.

و(أدجن) وضعوا منه فعلاً خاصّاً للمبالغة، وهو قولهم (أدجَوْجَن) فلا ضرورةَ لارتكابِ الضرورة، وبذلك لا يجوزُ قطعاً لعربيٍّ ولا لأعجميٍّ، ولا لمولَّد ولا لعاميٍّ كالعقاد أن يجعلَ (مدجان) صيغة مبالغة: هذه **غلطةٌ**، فليعدَّ القرّاءُ.

* * *

إذن فمن أينَ جاء العقاد بالكلمة؟ إنّه لم يَصُغْها، وإنما نقلها، وهنا

(١) [أثبتَ هذا السقط في موضعه ص (٧٣) اهـ مصححه].

موضع جهله العجيب، فإنهم يقولون: ليلةٌ مِدْجانٌ، أي مظلمةٌ، ولا يوصَفُ بها إلا المؤنث، لأنّها من الكلمات التي جاءتْ في نعت المؤنث بغير هاء، وشُبِّهَتْ بالمصادر لزيادة الميم في أولها، ومنها امرأة مِفْتان، ومِبْهاج، ومعطار، ومِئْناث تلد إناثاً، ومِذْكار تلد ذكوراً الخ الخ.

فظن العقّاد أنّ الكلمةَ لمطلَقِ الوصفِ، فنعتَ بها المذكر، وهم لا يقولونها إلا في المؤنَّثِ خاصةً: وهذه **غلطةٌ ثانية**.

* * *

وقلنا: فسر (مدجان) في الشرح بقوله: «غائم!!!» وسكتنا عند هذه العلامات، ومعناها أنّ هذا التفسير العقّادي (بَزْرَميط) كما يقولون، لأنّه يشترط في استعمالِ هذه المادة أنْ يكونَ في الجو مطر، أو أَخفُّه أي الضباب، ولذلك يقولون: أدجَن المطرُ، فلم يُقْلِعْ أياماً، أي دامَ عليهم، ويومٌ دَجْنٌ إذا كان ذا مطر. فإذا كان الغيمُ وحدَه ولا ضبابَ ولا مطرَ ولا جوَّ ريَّان خففوا الكلمةَ، فقالوا: يوم دَغْنٌ (بالغين المعجمة) والغينُ أخفُّ من الجيم، **وهذا من مذاهبهم العجيبة التي تكادُ تكونُ فوقَ العلم وفوق العقل أيضاً، مما يدلُّ على أنّ هذه اللغة قد أرادَ بها اللهُ الذي أَلهمَها العربَ أن يهيّئها لمعجزةٍ حقيقيةٍ وهي القرآن**[1].

وأنت ترى أنّ الغينَ أخفُّ من الجيمِ، لتدلَّ على أنّ ظلمةَ هذهِ أقلُّ من تلك ـ وهي أيضاً أجفُّ منها، فكأنّهم يقولون بهذا التعبير: إنّ اليومَ غيمٌ جافٌّ لا مطرَ ولا ضبابَ ولا رطوبةَ: وهذه **غلطة ثالثة** للعقاد.

(١) انظر فلسفة ذلك في الجزء الأول من «تاريخ آداب العرب» وستصدرُ طبعتُه الثانيةُ قريباً من مطبعة «العصور» [قلت: صدرت طبعته الثانية بعد وفاة المؤلف رحمه الله تعالى بعناية الأستاذ محمد سعيد العريان عام ١٩٤٠ وطبع في مطبعة الاستقامة].

ثم إنّ كلمةَ (مدجان) ثقيلةٌ أثقلُ من ذوقِ هذا العقاد، ولا تكادُ تصيبُها بهذه الصيغة في نظمِ شاعرٍ يذوقُ البلاغةَ، ويعرفُ مواقعَ الحروف، وسِحْرَ تأليفها: ولما اضطر ابنُ الروميِّ إلى استعمال هذه المادة جاء بالمصدر منها، فقال يصف الجميلة الناعمة تحت بخور النَّدِ:

يَغِيْمُ كُلَّ نهارٍ مِنْ مَجَامِرِهَا — وَيُشمِسُ اللّيْلُ مِنْهَا فَهْوَ ضَحْيَانُ
كَأنَّهَا وَعَنَانُ النَّدِّ يَشْمَلُهَا — شَمْسٌ عَلَيْهَا ضَبَابَاتٌ وإِدْجَانُ

وكذلك فعل الشريفُ الرضيُّ فقال:

يَـزْتَمِـي وِجْهَـةَ الـرِّئَـالِ إذا آ — نَسَ لَـوْنَ الإِظْـلاَمِ والإِدْجَـانِ

فانظر كيف جاءتْ الكلمةُ ظريفةً خفيفةً، كأنّها من النورِ لا من الظلمةِ. ولكن أينَ مِنْ هذا العِلْمِ وهذه الصناعةِ وهذا الذوقِ صاحبُ:

يا ضوءَ قلبي فإنّ القلبَ مِدْجَانُ

وهذه **غلطة رابعة** للعقاد في كلمةٍ واحدةٍ!!!

* * *

ثم إذا كانت هذه المرأة التي ابتلاها اللهُ بثقلِ العقادِ أعني غَزَله ـ إذا كانت (ضوءَ قلبِه) وكان يعبِّرُ عنها بقوله: (يا ضوءَ قلبي) فكيفَ إذن يجوزُ له أنْ يقولَ: (إنّ القلبَ مِدْجَانُ)؟ وأينَ ذهبَ الضوءُ يا عقاد؟ مع أنَّ العبارتينِ في شطرٍ واحدٍ. هذِهِ **غلطةٌ خامسةٌ** في الكلمة نفسها.

* * *

وهذا المعنى ـ الذي جاء به الجبار في بيته المتهدِّم الخَرِبِ ـ كثيرٌ في الشعر، لأنّ الجمالَ في نفسِه ضوءٌ، ولكنَّ الشعراءَ يتفاوتون في رسمه وتصويره، والحيلة على إبرازه، ويتَفاضلون في ذلك بمقدار ما يختلفون في

القوة والملكة والبيان، كحالهم في كلِّ المعاني المشتركة، انظر مثلاً قولَ ابنِ نُباتة السعديِّ:

عجِبْتُ لـه يُخْفِي سُـرَاهُ وَوَجْهُـهُ — بـهِ تُشْـرِقُ الدُّنْيَـا وبِالشَّمْسِ بَعْـدَهُ

وتأمّلْ قولَه: (وبالشمس بعده) ودقِّقْ النَّظَرَ في هذا التقييد، لتعرفَ كيفَ يكونُ المعنى شعرياً؟ وكيف يُنْتَقلُ مما يستطيعه كل إنسانٍ إلى ما لا يستطيعه إلا أفرادٌ قلائِلُ؟ وانظرْ قولَ بعضِهِم:

الهَجْـرُ ظمـآنٌ فـي فُـؤَادِي — إسقُـوْهُ بـاللهِ مِـنْ سَـلاَمِـهْ
مـا كـانَ إلا نَهَـارَ حُـبٍ — لما مَضَـى صِـرْتُ فـي ظـلامِـهْ

واقرأ قول العقاد:

إني إلى الرَّعِي من عينيكَ!!! مفتقرٌ — يـا ضـوءَ قلبي فـإنَّ القَلْبَ مِـدْجَانُ

ألا تشعرُ أنكَ بعد الأبياتِ الأولى سقطتَ من علوِّ ألفِ مترٍ إلى بيتِ العقاد، فلا تتمُّهُ حتى تقولَ: آه آه!! الإسعافَ الإسعافَ!! فهذِهِ هي **الغلطة السادسة** في البيتِ تظهَرُ من مقابلتِهِ بالشعر الصحيح.

وقد بينا في السَّفُّودِ الأول (٧٣) خطأَ قوله: (الرعي) بمعنى النظر، مع أنّها بمعنى الحفظِ لا غير. تقول: رعاك الله، أي حفظك. فهذه هي **الغلطة السابعة**.

* * *

ثم هناك معنًى آخر تُوهِمُهُ الكلمةُ، فإذا فرضنا أنَّ قائلَ هذا البيت حيوانٌ فيكونُ معناه: إنّ هذا الحيوانَ مفتقِرٌ إلى (الرعي) من عيني الحبيب!! لأنّه وَجَدَ فيهما مرعًى!! وهكذا تكونُ الألفاظ الشعرية: فهذه هي **الغلطة الثامنة**.

* * *

نشدتكم اللهَ أيُّها القراء! أيستطيعُ أحدٌ أن يردَّ عليَّ غلطةً واحدةً من هذه الثمان، أو يكابِرَ فيها؟

وهل من يغلطُ ثماني غلطاتٍ في بيتٍ واحدٍ مع سخافته التي هي **الغلطة التاسعة!!** يمكِنُ أن يسمّى شاعراً أو أديباً إلا في رأى الحمقى، وفي رأي نفسِه إذا كان من الحمقى؟!!!

* * *

هذا البحث يجرُّنا إلى النظر في ألفاظِ العقاد، وصناعته البيانية، فإنّ الشاعرَ يجبُ أنْ يكونَ شاعراً في ألفاظه ومعانيه وخياله، فإنْ كان كهذا العقادِ، أعني الجبار، والجبار أعني العقاد!!! جاهلاً بطريقةِ سحر الألفاظ في اختيارها، ومَزْجِهَا، وتركيبها، والملاءمة بينها، وإخراج الألوان المعنوية من ذلك النظم والتركيب، فقل: إنَّه رجلٌ عاميٌّ، **بل العامةُ خيرٌ منه، لأنّ الملكةَ الشعريةَ فيهم تنصرِفُ دائماً إلى إبداعِ التركيب في أوضاعهم، فترى لهم الاستعارات والمجازات كما ترى لفحولِ أهلِ البيان، وهذا هو شعرُهم**. ولكنّ جبارَنا المضحكَ ساقطٌ في الجهتين، لا إلى العامة ولا إلى الفصحاء.

ومما يدل على بلاهتِهِ العجيبةِ، وعلى كذبِهِ ولؤمه، وأنه ابنُ الحقدِ ميراثاً، وأنْ ليس في طبعه أن يقرَّ لأحدٍ، أو يطيقَ إحسانَ كاتبٍ في كتابته، أو شاعرٍ في شعره ـ أنَّهُ كتبَ مقالاتٍ في «البلاغ الأسبوعي» بعد موتِ رجلِ الشرقِ المغفورِ له سعد باشا زغلول، اطمأنَّ فيها إلى موتِ الرَّجلِ العظيمِ اطمئناناً لئيماً، وذهبَ يرفعُ نفسَه بأوضاع يزوِّرُها على سعدٍ؛ فكانَ مما كتبه قوله[1]: إنّه جَرَىٰ يوماً في حضرةِ سَعْدٍ ذِكْرُ كتابٍ من الكتبِ الحديثة، فقال

(١) «ساعات بين الكتب» ص (١٨٨) طبع مطبعة المقتطف والمقطم (١٩٢٩).

سعد: إنَّ عَيْبَ صاحبِ هذا الكتاب كثرةُ استعاراتِهِ.

قال العقّاد: ألا ترى يا باشا أنَّ الاستعارةَ في الكلامِ كالاستعارةِ في المالِ دليلٌ على الفقرِ؟

قال سعد للعقاد: ولذلك أنتَ لا تستعيرُ.

هذا ما كتبه الجبّارُ المضحكُ، ومعناه أنَّ العقادَ في رأي سعدٍ باشا أغنى الكتّابِ في بلاغته، بل هو بليغٌ لا نظيرَ له في تاريخ البلاغة، إذ لا يحتاجُ إلى الاستعارات، لأنّه غنيٌّ عنها، وعن كلِّ الوسائل البيانية.

ومعناه أيضاً أنَّ سعدَ باشا رحمه الله وكانَ أبلغ خطيبٍ ومتحدِّثٍ في الشرقِ كلِّه هو ـ فيما يعلِنُ عنه العقادُ ـ أجهلُ النَّاسِ بالبلاغةِ في الشرقِ والغربِ، بل في تواريخ الأُمم كافةً، إذ يرى أنَّ البيانَ والبلاغةَ في تجريدِ اللغات من استعاراتها، والرجوع بها إلى أطوارها الأولى الساذجةِ من الأصوات والإشارات، التي يكفي فيها أنْ تدلَّ دلالةً ما على معنًى ما بوجهٍ ما.

فالاستعاراتُ فَقْرٌ، وعلى ذلك فكلُّ أدباءِ الدنيا حميرٌ؛ والإنسانُ الأدبيُّ وحدَه هو العقاد، الذي لا يستعير.

وإذا أنتَ رأيتَ استعارةً في كلام أمةٍ من الأُممِ فقل: إنَّ سعدَ باشا يراها أجهلَ الأُممِ وأفقرَها في البلاغة.

وإذا قرأتَ في «القرآن» مثلاً قولَه تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤] فقل: إنّ سعدَ باشا يرى هذا فقراً في القرآن فيما نقل عنه الأحمقُ الكذّابُ المغرورُ عباس العقاد.

وانظر أينَ معنى الاستعارة في المال من معنى الاستعارة في الكلام؟ ولكنْ هذه هي طريقةُ العقاد في جهله بالمعاني، ومجازفتِهِ بالألفاظ، وكذبه على الناس.

وهل ينزل سعدُ باشا إلى هذه المنزلة، التي لا يفرِّقُ فيها بين اقتراضك شيئاً من مال غيرك، لأنَّه ليسَ معك منه، وبينَ إبداعك بقريحتك في إخراج صورةٍ جديدةٍ من اللغةِ، ليستْ في اللغة، تزيدُ بها الثروةَ البيانية؟

وهل سعد باشا ـ وهو أعظم حَمَلةِ القانون ـ كان مِنَ الجهل بالفقه والاصطلاحاتِ القانونية بحيثُ يسمِّي الاقتراضَ من المال استعارةً، فيقول: استعارَ منه قِرْشاً في مكان اقترض، ويقول: عليه استعارة، أي قرضٌ ودَينٌ؟

وليعلمِ القرّاءُ أنَّ الكتابَ الحديثَ[1] الذي جرى ذكرُه في حضرةِ سعدٍ، واستتبعَ ذلك القولَ في روايةِ الكذّابِ الحقودِ هو نفسُه عينُه الكتابُ الذي أُهْدِيَ إلى سعدِ باشا لمّا كانَ بمسجدِ وَصِيْفٍ، وكانَ قد أعلنَ عن موعدِ سفرِهِ إلى القاهرة، فأخَّرَ هذا الموعدَ أربعةَ أيامٍ، قرأ فيها الكتاب حرفاً حرفاً، ثم كتبَ لصاحبِه[2] يصفُ بيانَهُ بالكلمةِ السائرةِ التي لم يقلْها سعدٌ في أحدٍ، ولم يظفرْ بها منه غير هذا المؤلِّفِ وحدَه، وهي قوله: كأنَّهُ تنزيلٌ من التَّنْزِيْلِ أو قَبَسٌ من نُورِ الذِّكْرِ الحَكِيْمِ[3].

هذه شهادةُ سعد باشا وقّع عليها بيده الكريمة، فيكون في روايةِ العقّاد معنى ثالث، وهو أنَّ سعداً ـ أستغفر الله ـ يخشى مؤلفاً من المؤلفين مع أنَّه لم يخش إنجلترة ـ فيتملَّقُه بهذا الوصف البالغِ أعلى طبقاتِ البيانِ الإنسانيِّ على الإطلاقِ، حتى كأنَّهُ من لسانِ النبوَّةِ.

رحم الله من قال: عدوٌّ عاقِلٌ خيرٌ من صديقٍ جاهلٍ. فالعقاد أرادَ أن

(١) العصور ـ هو كتاب «إعجاز القرآن» المشهور.
(٢) [مصطفى صادق الرافعي].
(٣) [انظر رسالة سعد بتمامها والتي كتبها بخط يده كما يؤكد ذلك سكرتير سعد محمد إبراهيم الجزيري ص (١٤)].

يمدحَ نفسَه بلسانِ سعد باشا فذمَّ سعد باشا، بل سبَّه بلسانِهِ هو.

ولقد اتفق أنْ اجتمع العقادُ وصاحبُ ذلك الكتاب في إدارة مجلةٍ شهيرةٍ[1]، فقال المؤلِّفُ للجبار العظيم الذي يخشاه كلُّ أديبٍ: أنتَ كتبتَ في «البلاغ الأسبوعي» كيتَ وكيتَ.

قال: نعم.

قال: والكتاب هو كتاب كذا.

قال: نعم.

قال: وأنتَ كذبتَ على سعدٍ، فإنّ الدكتور صروف كان حاضراً هذا المجلسَ، ونَقَلَ إليَّ كلَّ ما قاله سعدٌ. فامتقع الجبارُ، وخنسَ العقادُ، وبُهتَ الذي كفر[2].

أوردنا هذا كلَّه ليعلمَ القرّاءُ أنَّ جبارنا العقاد ليس في طبعه البلاغة ولا أسبابها بإقراره هو نفسه، فكيف يكونُ في طبعه الشعرُ إلا على الأسلوب الذي يجعلُ اللصَّ دائماً قادراً على الغنى متى أراد..؟

* * *

(١) [المقتطف، وكان هذا الاجتماع وما جرى فيه هو السبب في هذا الكتاب انظر قصة هذا الكتاب ص (٤٥)].
(٢) وبعد أن رجع الدمُ في وجه هذا الجبانِ قال لصاحبِ الكتاب: هل أخبرَك الدكتور صرّوف كتابةً أم بالكلام؟ وهذا سؤال طبيعي من مزوِّرٍ لا يخشى إلا الشهادَةَ المكتوبةَ كما هو ظاهر.
وفي هذا المجلس ادّعى المغرورُ العقاد أنّه أذكى من سعدٍ باشا، وأبلغُ من سعد باشا، وأشهدَ صاحِبُ الكتاب رئيسَ تحرير المجلة على ذلك. فالذي يبلُغ به الحمقُ أن يقولَ: إنّه أبلغُ من سعدٍ، وأذكى من سعدٍ، لا يسبُّ نفسَهُ بأفصحِ من هذا.

انظر ألفاظَ الشّاعرِ الجبّار وذوقَهُ العجيبُ، واذكر قول (فاكه) إنَّ جمالَ الأسلوبِ هو الذي يَخْلُدُ. قال في صفحة (١٢٧) من ديوانه «بين محمد وعزّوز»، وفي الشرح أنّ محمد بن صديقه المازني، وعزوز ابن أختِ صاحب الديوان:

مـرْحَـاضُـهُ أَفْخَـرُ أَثْـوَابِنَـا!!   وَنَحْـنُ لا نقصـر عـن عُـذْرِهِ
طُـرْطُـوْرُهُ ملقـىً علـى ظَهْـرِهِ   وحِجْـرُهُ المَـرْقُـوْعُ فـي خَصْـرِهِ[1]

إياك أن ترتابَ أيها القارِئُ، فهي مرحاضُهُ، مرحاضُهُ، وأفخرُ أثوابِ العقاد مرحاض!!!

والذين يرونَ أولادَ العامة في الأزقةِ حين تجلِسُ بهم أمهاتُهم على الطريق، وتريد إحداهنّ أن تخـ. . ابنها، يرونها ترفع حِجْرَهُ المرقوع، فتجعله في خصرِه، ثم تجلسه على ساقيها، وقد جعلتْ بينهما فرجةً هي مرحاض الطفل في الطريق العام، كما يصفُ العقاد في البيت الثاني تماماً.

هذه مسألةٌ بسيكولوجيةٌ يؤخَذُ منها بعضُ تاريخ العقاد وتربيته وأصله، وذوقه الشعري أيضاً، ومن أينَ تربّى له هذا الذوق إلخ إلخ إلخ، وهي نصٌّ صريحٌ في إثباتِ الرّجلِ من حثالةِ العامةِ، ويقول الفيلسوف فولتير: ذوقك أستاذك.

ونحن نظنُّ أنّ رجلاً مسلماً متزوِّجاً لو حلف بالطلاق أنّ لفظة (مرحاض) لا تخرجُ من فم شاعرٍ في نظمه إلا إذا كان غبياً، متشاعِراً، فاسد الذوق، لئيمَ الطبعِ، دنيءَ الحسِّ ـ لَبرّتْ يمينُه، ولم يقع عليه الطّلاق، وتكونُ هذه فتوى من الشرع في وصف العقاد وشعره، فحبذا لو رفعَ أحدُ الأدباءِ سؤالاً في ذلك إلى العلماءِ والمفتين.

(١) بين هذين البيتين اثنان آخرانِ، والأبياتُ في عزّوزِ بنِ أختِ العقادِ، فلا تنسَ هذا، وخالُه يقول فيه: عَزُّوْزٌ هذا ولدٌ فاجِرٌ.

ومن غفلة العقاد في هذه القصيدة قولُه في ابن أختِه أيضاً:

بيْنَـا يُـرَىٰ يَنْتُـشُ أثـوابَـهُ   غَيْظـاً كَمَـنْ أُخْـرِجَ عَـنْ طَـوْرِهِ
إذَا بِـهِ يَضْحَـكُ مُسْتَبْشِـراً   مُصَفِّقـاً كـالـدِّيْـكِ فـي طَفْـرِهِ

يريدُ من (ينتش أثوابه) أنّه يجذبُها، وقد يصحُّ هذا على تأويل. ولكنّك ترى «القاموس» يعرِّف النّتاش (جمع ناتش) فيقول: والنتاشُ السِّفَلُ (الجمع سَفَلة) والعيّارون (جمع عيّار) وهم الناشِطونَ في المعاصي كالسَّرقةِ والفُجور الخ الخ[1] فسبحانَ مَنْ أجرى على لسانِ الخالِ وصفَ ميراثِهِ في الطباع، والعامةُ يقولون: الولد لخاله، يريدون أنّه مثلُه، ينزِعُ إليه في الصفات الموروثة.

وفي هذه القصيدة يقول العقاد:

وأيُّمـا أحلَـىٰ وَكُـنْ عـادِلاً   فـأنْتَ مَـنْ يَقْضِـي علـى بكـره
دُرُّ الثَّنـايـا فـي عقيـقِ اللَّثـى   أم فَمُـهُ الفـارِغُ مِـنْ درِّهِ

اللثى جمع (لثة) في لغة العقاد وحدَهُ، يعني في جهله وعاميته، وإنما تُجمَعُ على (لثات) لا غير، وهي مغرزُ الأسنان، سمّيتْ كذلك لأنَّ لحمَ الأسنانِ لِيثَ بها، أي دارَ بها، ولو جمعت على (لثى) بالقصرِ لكان المفردُ (لثاةٌ) أو (لَثْوَةٌ) أو (لَثْيَةٌ) وهذا كله يصلُحُ في لغة العقاد وحدَها[2]، لأنَّ جبارَ الذهنِ جاهلٌ يتخبَّطُ بحجةِ أنّه جبار مثل دون كيشوت.

ومن ألفاظِ الرَّجلِ الغريبةِ التي تدلُّ على ذوقٍ أسخفَ من ذوقه في لفظة (مرحاض) قوله في صفحة (٢١٥) وقد سمّى الحُبَّ «الجحيم الجديدة»[3]

(١) مرَّ في الشرحِ أنّ العقاد يقول في ابنِ أخته: عزوزٌ هذا ولدٌ فاجِرٌ. .
(٢) [قال في «اللسان»: واللِّثة تجمع لثات ولثين ولِثى].
(٣) قلبَ هذا اللصُّ قولَ البحتريِّ:
وجَنَّـةُ حُسْـنٍ عَـذَّبَتْنَـا بِحُسْنِهَـا   وَمَـا خِلْتُ أَنّا بـالجِنَـانِ نُعَـذَّبُ =

وأخذَ يصِفُ هذه الجحيم التي يعذَّبُ فيها أهلُ الحُبِّ بمن يحبون، فقال ملَّح الله ذوقَه!!!:

وتــولّــى فيهــا عَــذَابَ المحبِّيْـــنَ بـلاغُ المنَـى مِـنَ الأحبـابِ
لَيْسَ غِسْلينُهُم سوَى الشَّهْدِ مَمْنُوعاً على قُرْبِ وِرْدِهِ في الرُّضَابِ

فسر هذا السخيفُ في الشرح فقال: الغِسْلِيْنُ شرابُ أهلِ النار، والله يقولُ في وصف عذاب الجحيم: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦] فما هو بشرابٍ كما ترى.

وجَعْلُ الغسلينِ طعاماً في وصفِ القرآن آيةٌ من آياتِ إعجازِه لا يفهمُها مثلُ هذا العاميِّ المتشاعرِ، لأنّ هذا الغِسْلينَ هو ما يسيل من جلودِ أهلِ النّارِ قيحاً وصديداً، فإذا كانَ هذا طعاماً فليسَ مِنْ شرابٍ هناك إلا شَوْباً (أي خلطاً) من حميمٍ، فالنّارُ تهضمهم، وهم يهضمونها، لا هي تفنى أبداً، ولا هم يهلِكونَ أبداً.

والآن تأمَّلْ أيها القارئُ، وقد عرفتَ أنّ الغسلينَ ما يسيلُ من جلودِ أهل النّارِ قيحاً وصديداً، تأمَّلْ ذوقَ المغفَّلِ الذي سمَّى رُضَابَ الحبيبةِ غِسْلِيْناً! إنْ كانتْ حبيبةُ العقادِ ممَّنْ تصحُّ معهنَّ هذه التسميةُ، فهي ولا ريبَ مصابةٌ.. على الأقل بتقيُّحِ اللّثةِ!!! فليهنئْه غسلينُها، ولكنْ لا يجوزُ له أن يقلِبَ نفوسَ القرّاءِ، يحملهم على القيءِ من قراءةِ شعرِه البارد، البارِدِ جداً، وإنْ كان في وصف الجحيم.

ثم نحنُ نقرُّ ونعترفُ أننا لم نفهمْ معنى البيت الأول، لأنّه إذا أرادَ مِنْ (بلاغ المنى) بلوغَها وانتهاءَها، وأنّه لا يُعذِّبُ المحبَّ شيءٌ كبلوغ مناه من

= وغريبٌ أن يكونَ العذابُ بالجنة، ولكن أيةُ غرابةٍ أو أيُّ معنًى شعريٍّ في أن يكونَ العذاب (بالجحيم الجديدة) أو القديمةِ أليستْ الجحيمُ للعذابِ خاصّةً؟

حبيبه، فهذا لا يعذِّبُ، بل يشفي العذاب، وإنْ عذَّبَ كان عذابُه أخفَّ من عدم (بلاغ المنى).

والظاهِرُ أنّ الرجلَ جاهِلٌ بالحبِّ أيضاً، وإنما يقلِّدُ أناتول فرانس في هذا المعنى، وقد بسطه في روايةِ «الزّنبقة الحمراء» وجعله مقصوراً على بعضِ النّساءِ مبالغةً منه في وصف سُعَارِ الحيوانية وجنونها بالشهوة، وكلُّ ذلك تلفيقٌ بعثتْ عليه طريقةُ فرانس في الكتابة.

هَبِ العقادَ أراد هذا المعنى، فيبقى أنه يكذِّبُهُ في البيت الثاني بجعلِهِ شَهْدَ الرضابِ (ممنوعاً) ووصفِه اللذّاتِ كلها (ممنوعة) في الأبيات الأخرى، فيقول بعد غسلينِ حبيبتِه!!! قَبّحَه الله وقَبّحَها معاً.

لا ولا جَمْرُهُمْ سِوَى الخَدِّ مَشْبُوْباً يُذِيْبُ الأحشاءَ قَبْلَ الإهَابِ
وَيَطُـوْفُ الحِسَـانُ فِيْهَـا بِخَمْـرٍ مِـنْ رَحِيْقِ الخلودِ لا الأعْنَـابِ[1]
فـإذا أَضْـرَمَ الجَـوَى قَلْـبَ صَـبٍّ وتهـاوَى شـوقـاً علـى الأكْـوَابِ

قيل: هذا للوصف! لا للتعاطي![2].. «تعاطي الدواء أظن!!»[3].

(١) لا تنسَ أنّ طوافَ الحسانِ بخمرةِ رحيقِ الخلودِ إنما هو في الجحيم!!

(٢) هذا كلُّه ثرثرةٌ من العقادِ في سرقته من قولِ ابن الرُّوميِّ:

وَمِـنَ البَلِيَّـةِ مَنْظَـرٌ ذُوْ فِتْنَـةٍ نَـائِي المنافِعِ شَاعِفُ الإيناقِ
مُزْنٌ يُمطِنَ الرّيَّ عَنْ أفواهِنَا وَيَجُـدْنَ لـلأبْصَـارِ بـالإبـراقِ
يَهْـزُزْنَ أغصـانـاً تبـاعـدُ بـالجنَـى وتَـرُوْقُ بـالإثْمَـارِ والإيْـرَاقِ

يريدُ وصفَ النّساءِ جاذباتٍ ممنوعاتٍ كالأمثلة التي شبَّه بها، فأخذَ العقادُ المعنى، وصاغه كصيغة خبر في جريدة!!! وهو يكثِرُ من ترديدِ هذا المعنى في شعره، فلا يزيدُه إلا مسخاً.

(٣) وللوصف لا للتعاطي.. عاميةٌ مبتذلةٌ مسروقةٌ من التّنيسيِّ المعروفِ بابن وكيع في وصفِ الربيع إذ يقول:

أَبْدَىٰ لنـا فَصْـلُ الـرَّبِيْعِ مَنْظَـراً بِمِثْلِـهِ تُفْتَـنُ أَلْبَـابُ البَشَـرْ
وَشْيـاً وَلَكِـنْ حَـاكَـهُ صَـانِعُـهُ لا لابْتِـذَالِ اللبسِ لكـنْ للنَّـظَـرْ=

إذن فما معنى (بلاغ المنى) وأنّه هو الذي يتولّى عذابَ المحبين؟

* * *

هذه معاني (البلاغ) في اللغة؛ لعل في القرّاء جبّار ذهنٍ غيرَ مضحكٍ يفسّر لنا معنى البيت: بلغ بلوغاً وبلاغاً وصل وانتهى.

البلاغُ: ما يُتَبَلَّغُ به ويُتَوَصَّلُ. **البلاغ**: ما بلَغك، **البلاغُ**: الكفايةُ، **البلاغ**: إبلاغُ الرسالة، بالغَ بلاغةً وبلاغاً: إذا اجتهد في الأمر.

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ [إبراهيم: : ٥٢] أي أنزلناه (القرآن) لينذَرَ به النّاسُ . البلاغ جريدة البلاغ اليومي والأسبوعي!!

* * *

ولم نر في كلّ ما وقفنا عليه من الشعر قديماً وحديثاً أبردَ غزلاً من نسيب هذا المتشاعر العقاد، الذي لو كان في الدولة العباسية أيام حِسَانها وأديباتها وقِيَانها الموصوفاتِ، وأمرائها الأدباء القادرين، لكتبوا شعرَه الغزلي على جلدٍ ثم صفعوه به في المجالسِ.

وهل يستحقّ أقلَّ من الصفعِ من يقول في صفحة (١٠٩):

«الحبيب الثالث»

نظمت هذه الأبيات ردّاً على قصيدةِ «الحبيبين» لصديقنا شكري[1]. وقد شبّه أحدهما بالجنةِ، والثاني بالجحيم، وهذا الحبيبُ الثالث جامعُ الجنة والجحيمِ!!

ولا شكَّ أنَّ العقادَ، أرادَ أن يقولَ: (للنظر لا للتعاطي) فلم يساعِدْهُ الوزنُ فقال: «للوصف» ولا معنى لها.

(١) [عبدالرحمن شكري (١٨٨٦-١٩٥٨) شاعر، من دعاة التجديد في الأدب].

قِلاكَ مِنْ دُفّاعِ نارِ الجَحِيمِ ... وَوَصْلُكَ الجَنّةُ دَارُ النَّعِيمِ
وَرِيقُكَ الكَوْثَرُ لكنّهُ ... كالمُهْلِ!! في صَدْرِ المُحِبِّ الكَظِيْم
وَخَدُّكَ الزَّقُّومُ!!! مُرٌّ لِمَنْ ... تَزْوِيهِ عَنْهُ، وَهُوَ حُلْوُ الشَّمِيْم

المُهْلُ دُرْدِيُّ (أي وساخة) الزيتِ. وفي القرآن الكريم ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ﴾ [الدخان: ٤٥].

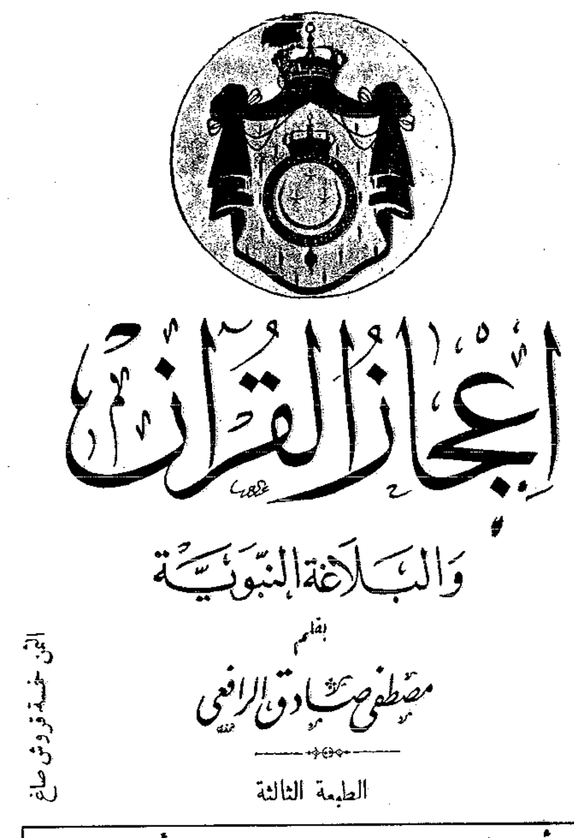
والزّقومُ عبارةٌ عن أطعمةٍ كريهةٍ في النار، ومنه استعاروا قولهم: تزقّمَ فلانٌ إذا ابتلعَ شيئاً كريهاً.

هل يعرفُ القرّاءُ في البُلْهِ أو الحمقى أو المغفلينَ من يجعلُ خَدَّ الحبيب طعاماً؛ ثم طعاماً كريهاً ومُرّاً؟ ولكنَّ العقادَ جعله كذلك، ثم يزيدُ على هذا السياق قوله: (وهو حلو الشميم) أي والحال أنّه حلو في الشم، فمن هنا لا يكونُ المعنى أبداً إلا هكذا: إنّ خدَّكَ طعامٌ من الأطعمةِ الكريهةِ لمن تزويهِ عَنْهُ، على حين أنّه طعامٌ حُلْوُ الشَّمِّ، طيِّبُ الرائحةِ، فهو على كلِّ حالٍ طعامٌ، لا يمكنُ أن يؤتي سياقُ الكلام غيرَ هذا.

لعمري لو كان هذا الغزلُ في امرأةٍ حقيقيةٍ لدبغت قفا هذا الأحمقَ، ولكنَّهُ في امرأةٍ يخلقُها وَهْمُ العقادِ من طباع العقادِ نفسِه لتصلُحَ لشعرِه.

ثم يا لطيف يا لطيف! أيُّ بليغ على وجهِ الأرضِ يستطيعُ أن ينطِقَ (قِلاكَ من دفّاع نارِ الجحيم) انطقوها أيها القراء، لتعرفوا أنّ فمَ العقادِ يصلُحُ أن يستخدمَ في (طره) لقلعِ الحجارةِ وتكسيرِ الزّلَطِ!!!

* * *



إعجاز القرآن

والبلاغة النبوية

بقلم

مصطفى صادق الرافعي

الطبعة الثالثة

أمر بهذه الطبعة على نفقته حضرة مولانا ملجأ الإسلام والمسلمين، وحمى العلم والفضيلة والدين صاحب الجلالة ملك مصر «أحمد فؤاد الأول» عزّ نصره

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

(طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر)

١٣٤٦ — ١٩٢٨

الصفحة الأولى من الطبعة الملكية لكتاب «إعجاز القرآن»

السفود الرابع

وللسفود نار لو تلقت
بجاحمها حديدًا ظلّ شحما

ويشوي الصخر يتركه رمادًا
فكيف وقد رميتك فيه لحما

نشر في عدد شهر أكتوبر سنة ١٩٢٩ م بمجلة العصور

مفتاح نفسه وقفل نفسه

يسرُّنا أنْ يكونَ الأدباءُ والكتّابُ قد أخذَ كلٌّ منهم يحاذِرُ جهدَه أن يكونَ هو المغفَّلَ الذي يشهَدُ للعقاد بأنّه أديبٌ أو شاعِرٌ أو كاتبٌ بعد أنْ مزّقنا الإعلاناتِ الكبيرةِ الملوَّنةِ التي كانت ملصقةً على هذا الحائط!!! وبعد أنْ أريناهم الحائطَ نفسَه طيناً وحجراً، لا أصباغاً ولا ألواناً وما هو إلا الحائطُ وما هو إلا العقاد.

ما مِنْ أديبٍ الآن يجسُرُ أن يظنَّ في هذا العقاد - إذا أبعدَ في حُسْنِ الظَّنِ - إلا أنّه كاتبُ جرائد يُحْسِنُ صناعتَهُ، ويستجمِعُ آلاتِها من الاطلاع المتنوع والترجمة ثم... ثم الصفاقةِ والمكابرةِ والكذِبِ السياسيِّ، ثم الدجلِ العالي الصحافي الشرقي!!! وانتهى.

أمّا العقّادُ الذي كان تحتَ الإعلانات!!! فهيهاتَ هيهاتَ، وقد كانَ أولُ نحسِهِ طردَه من جريدة «البلاغ» لأنّ هذه الجريدة الكبيرة كانت بمنزلتِها تصبُغُ شَيْبَه؛ وتخفِي عَيْبَه، وتجعلُه (نايبه).

ومن العجيب أنّ رجالاً من حكومةِ العراق، كانوا من المخدوعين به أو فيه أو منه، فأرادوا أخذَهُ إلى العراق مدرِّساً للآداب العربية، وكادوا يجنونها على الأدب اغتراراً بتزويقِ الحائط، ولكنَّهم تنبهوا أخيراً أنْ رأوا العقادَ على السَّفود، وتركوه لما به، ولولا ذلك لما عرفوه إلا.. إلا بعد خراب البصرة.

ما هو هذا العنصرُ الكيميائي العجيبُ الذي يحوِّلُ كاتبَ جرائدٍ في لحنِه

وعاميتِه ، وفسادِ ذوقه ، وسُقْمِ فهمِه ، وضعفِ اطلاعه ، وتهافتِ ناحيتيه في النظم والنثر ـ إلى مدرِّسٍ للآدابِ العربيةِ العاليةِ في حكومةِ العراق؟ أمَا إنّه إنْ لم يكنْ عندَ هذِهِ الحكومةِ حَجَرُ الفلاسفةِ لتجعلَ مِثْلَ العقادِ مدرّساً للآداب العربية بقوةِ الرَّجْمِ الكيميائي ـ إنْ لم يكنْ عندَها حجرُ السِّحر هذا، فقد واللهِ كادَتْ تخرّبُ البناءَ الذي تريدُ أن تقيمَه بغلطتِهَا في حجرِ الزاويةِ .

(مفتاح نفسه) كلمةٌ وضعها العقاد عنواناً لمقالٍ نشرَه في «المصور» الصادر لذكرى المغفورِ له سعدِ باشا، لأنّ العقاد لا يزالُ يُنفِقُ من نقودِ أكاذيبِه على سعدٍ، فهي تسدُّ ناحيةً من إفلاسِهِ إلى زمنٍ طويلٍ على ما نظنُّ. جعل عنوانَ المقالة هكذا: الزعيمُ الفقيدُ مفتاحُ نفسِه[1]. فأولاً ما معنى (الفقيد) وقد مضت سنتانِ كاملتانِ على موتِ سعدٍ رحمه الله؟ وثانياً ما معنى (مفتاحُ نفسِه) على قواعدِ التركيبِ العربيِّ؟

لا وجهَ للأولى إلا الركاكةُ والحشو وطريقة الجرائد، ولا معنى للثانية إلا اللصوصية المتمكِّنَةُ من نفسِ العقادِ، والغالبةُ على طبعِه، فيعجزُ حتى عن كتابةِ عنوانٍ، فيلجأُ إلى سرقةِ هذه الاستعارةِ الإنجليزية، ونصُّها عندهم (The key of his soul) يريدونَ أنَّكَ تفتَتِحُ أغلاقَ الرَّجلِ من جهاتِ نبوغه بدرسِه من جهات أعمالِه وأخلاقه فكانَ صوابُ الترجمةِ ـ إن كانَ لا بدَّ من السرقةِ حتّى في عنوانٍ!!! ـ الزعيمُ بنفسِه مفتاحُ نفسِه، أو هو نفسُه مفتاحُ نفسِه، لا بدَّ أن يتقدَّمَ العبارةَ الإنجليزيةَ توكيدٌ أو بيانٌ لتستقيمَ عربيَّةُ المعنى، فقل الآنَ في كاتبٍ يسرِقُ حتى العنوانَ، ويعجَزُ فيه أيضاً.

قلنا مراراً: إنّ هذا المغرور المتشاعِرَ سقيمُ الفهمِ في العربيةِ، وهذه هي عِلَّةُ تعلُّقِهِ بكلمة الجديد، وزعمِهِ أنّه مجدِّدٌ كما هي علة أمثاله من الأدباء الملفَّقينَ في عربيتهم وأوربيتهم على السواء. وهي أيضاً السببُ في تجنُّبِ

(1) عدد (٢٣) أغسطس سنة (١٩٢٩) من «المصور».

العقاد أن يفسِّرَ شيئاً من الأدب العربي، كما هي السبب في انحطاطِ شعرِه وكتابتِه.

* * *

وقد رأينا له في مجلة «الجديد»[1] كلمةً مِنْ تخليطاتِهِ عَنْ ابنِ الروميِّ كادَ يفسِّرُ.. فيها أبياتاً لهذا الشّاعرِ، فَخَبَطَ خَبْطَ العمياءِ لا العشواءِ، قال ستره الله بإسكاته:

هل ترى هذا الغائصَ الذي تعلّمَ السباحةَ ليغوصَ لا ليسبحَ! أو ترى هذا الخائفَ المراقِبَ الذي يمرُّ بالماءِ في الكوزِ مَرّ المجانِبِ؟ هو ابنُ الروميِّ حيثُ يقول عن نفسه: (أي في البحر)

وَكَيْفَ وَلَوْ أُلْقِيتُ فِيهِ وَصَخْرَةً ... لَوافيتُ مِنْهُ القَعرَ أَوّلَ راسِبِ
ولَمْ أَتَعَلَّمْ قَطُّ مِنْ ذِي سِبَاحَةٍ ... سوى الغوصِ والمضعوفُ غير مغالب
فَأَيْسَرُ إشْفَاقِي مِنَ الماءِ أَنَّنِي ... أمرُّ بِهِ فِي الكُوزِ مَرَّ المُجَانِبِ

انظر أيّها القارئ: ابنُ الروميِّ يقولُ: لم أتعلمْ قطُّ من ذي سباحةٍ الغَوْصَ، فيكونُ معنى هذا أنّه تعلم السباحة ، (وتعلّمها لِيَغُوصَ لا لِيَسْبَحَ) إنّ المعنى الذي يقصدُ إليه الشاعرُ هو هذا: أَرَى ذا السِّبَاحَةِ يَسْبَحُ ويَغُوصُ، ولمّا كانَ الغَوصُ أيْسَرَ العَمَلَيْنِ، لأنّه لا يحتاجُ لتعلُّم الخَبْطِ في الماءِ، وشَقِّهِ، والنّجاةِ منه، فأنا قد تعلمتُ هذا وحدَه ، دونَ السِّباحةِ، فلا أُلْقَى مع صخرةٍ في الماءِ حتى أسبقَها إلى قعرِ البَحْرِ.

هذا هو المعنى الشعري، فأما إنْ كان «تعلّمَ السباحةَ ؛ ولكنَّهُ لم يُتْقِنْها، فكأنّما «تعلّمها ليغوصَ لا لِيَسْبَحَ» فقد فسدَ بهذا الكلامِ الحسُّ الشعريُّ الدقيقُ البديعُ، وأصبحَ المعنى في سخافتِهِ وركاكتِهِ يُشْبِهُ شعرَ العقّاد لا شعرَ ابنِ الروميِّ.

(1) عدد (٢٩) يوليه سنة (١٩٢٩).

وقال سترَ اللهُ عليهِ: وهل ترى ذلك المنهومَ الذي يَسُرُّه أن يُدْعَى إلى الطّعامِ حتى في الأحلام، ويأسَفُ على أنْ يذادَ عنه وهو في المنام؟ هو ابنُ الروميّ بعينِه وهو القائلُ:

وَلَقَدْ مُنِعْتُ مِنَ المرافقِ كُلِّها ... حتّى مُنِعْتُ مَرَافِقَ الأحلامِ

مِنْ ذَاكَ أنّي ما أراني طاعِماً ... في النَّوْمِ أو مُتَعَرِّضاً لِطَعَامِ

إلا رأيتُ مِنَ الشّقاءِ كأنّني ... أُثْنَى وأُكْبَحُ دونَه بِلِجَامِ

تأمّلْ (قوي قوي) في تفسير المغفل، ثم في شعر ابنِ الروميّ، وقل لي: هل يصفُ ابنُ الرومي شراهتَه ونهمَه وأسفَه؟ أم هُوَ يبالغُ بهذا الأسلوبِ البديع في صفةِ فقرِه؟ وأنّه لهذا الفقرِ محرومٌ، حتّى مما هو غنًى طبيعي للفقراء، لأنّ الفقيرَ متى تعلقتْ نفسُه بشهوةٍ لا يجدُ السَّبيلَ إليها ـ جاءته هذه الشهوةُ في أحلامه من عمل نفسه، وكان لا بدَّ أنْ تمكنه، وأنْ ينالها، وذلك قانون طبيعي كما قرره العلم أخيراً في أسبابِ الأحلامِ وتأويلِها بالشهواتِ الممتنعة أو المنْقمِعَةِ، ويعبِّرونَ عنها (بالمكبوتة)، وهو خطأ وتسمُّحٌ.

فابنُ الرّوميّ يصفُ شقاءَ جدِّه[1] وصفاً دقيقاً، لا يحسُّ به غبيٌّ مثلُ العقاد، وفضلاً عن أنَّ سياقَ الشعرِ لا يؤتي المعنى الذي فهمه هذا الغبيُّ، فإنّ المعنى بَعْدُ لن يتأتّى إلا إذا ثبتَ أنّ ابنَ الرومي كان طُفيلياً بكلِّ الأوصاف المأثورة عن هذه الطائفة، وهذا لم يقلْ بهِ أحدٌ إلا طفيليُّ الأدبِ العقاد.

ومن العجيب أنّ لهذه الأبيات بقيةً تكادُ تنطِقُ بأنّ ابنَ الرومي لا يريدُ شراهةً ولا طعاماً، ولكنَّهُ يُقرِّرُ ابتلاءَه بعثارِ الجدِّ، وأنّ ما ينالُه الناسُ «مِنْ

(١) [حظه].

وصالِ الطّيف . . » بأهونِ سبيلٍ وأيسرِ حركةٍ للعاطفةِ يُحَرِّمُهُ هو، ويُبْتَلَى فيه مع ذلك «بالغرم والإغرام»، والعقاد مع هذا لا يفهم غرض الشاعر.

ألا يرى القرّاءُ أنّ هذِهِ وحدَها كافيةٌ في الدلالةِ على بلادتِه، وسُقْمِ فهمِهِ، كأنّ مادةَ مُخِّهِ في وعاءِ جمجمتِه قد كتَبَ عليها صيدليُّ القدرةِ: لا يفهم إلا من الظاهر.

* * *

وقال غطّاهُ اللهُ: أما سخره من غيره فله في أفانينه الكثيرة ومعانيه الغريبة ما يقومُ بديوان كامل، وبراعتُه فيه طبقة لا تعلوها طبقة في نوعها، ويندرُ أن يدانيها فحولُ الساخرين في المشرق والمغرب، فله في أحدب كان يضايقُه ويترصَّدُ له (كذا) أمامَ دارِه ليتطيَّرَ منه:

قصرتْ أخادِعُه، وطالَ قَذَالُه ... فكأنَّهُ مُتَرَبِّصٌ أَنْ يُصْفَعَا

وكأنّما صُفِعَتْ قفاهُ مَرَّةً ... وأَحَسَّ ثانيةً لها فَتَجَمَّعَا

تعالوا أيها القراء!! وهاتوا معكم (رجالاً من العراق) لنضحكَ مِنْ هذا العاميِّ المتشاعِرِ، الذي جعلَ ابنَ الروميِّ عامياً مثلَه، يجنحُ إلى لغةٍ ضعيفةٍ في تأنيث (القفا) ويعدِلُ عن الأعمِّ الشائع.

ولو كان هذا الشعرُ على هذه الرواية لكان ضعيفاً، إذ قوله (صُفِعَتْ قفاهُ مرّةً) يوهم أنّ هذِهِ (المرة) كانت في زمن مِنْ قبلُ، فَيَفْسُدُ الوصفُ، ويضعفُ التركيبُ، ويجبُ حينئذٍ أنْ تكونَ العبارةُ: وكأنّما صُفِعَتْ قفاه صفعةً، وأحسَّ ثانيةً لها إلخ.

وقوله (فكأنّه متربِّصٌ أن يُصْفَعَا) من العاميَةِ التي لا ينقلُها إلا عاميٌّ مثل العقاد، لأنّ التربُّصَ يا عقّاد الجرائدِ . . لا يكونُ إلا في الانتظارِ الطويلِ، الذي لا بدَّ فيه من مكث وتلبث، وبهذه الكلمة يفسُدُ الوصفُ، ويرجعُ هراءً؛ فإنّ من ينتظِرُ أن يُصْفَعَ غداً، أو بعد ساعةٍ، لا تكونُ تلكَ حالُه، ولا يتجمَّعُ.

ثم (وطال قذاله) ثالثة الأثافي، فإنّ القَذَالَ جِمَاعُ مؤخَّرِ الرأسِ، مما تحتَ قُصاصِ الشعر، أي القفا، فهل الأحدبُ طويلُ القفا؟

وهل إذا قصرتْ الأخادِعُ ـ وهي كنايةٌ عن قِصَرِ الرقبةِ ـ يطولُ القفا؟

أم ذاك الأحدبُ قد استعار قفا العقاد.. فانخسفتْ رقبتُه، ومع ذلك طال قذاله، معجزةٌ لجبار الذهن[1].. ما هذه البلادةُ في هذا الرجل؟

خلِّصينا يا حكومةَ العراق من عارِه على الأدب المصري، وخذيه، ولو مدرِّساً لتلاميذِ الشهادة الابتدائية، التي لا يحمِلُ غيرَها، وغيرَ شهادة الجميع له باللصوصية الأدبية العليا!!!

ثم البيتان بعد هذا كله ليسا لابن الرومي، بل هما مرويان للأمير مجير الدين ابن تميم، وتحريرُ الروايةِ هكذا:

قَصُرَتْ أخادِعهُ وَغَابَ قَذَالُهُ ... فَكأنَّهُ مُتَرَقِّبٌ أَنْ يُصْفَعا

وكأنَّه قَدْ ذَاقَ أولَ صفعةٍ ... وأَحَسَّ ثانيةً لها فتجمَّعَا

هذه هي صفة الأحدبِ مصوَّراً تصويراً، وهكذا يكونُ الشِّعْرُ، لا ذلك

(١) يصفُ الشّاعِرُ هذا الأحدبَ في صورته الجسمية برجلٍ صُفِعَ على قفاه صفعةً، وأحسَّ بيدِ صافعِهِ ترتفعُ لتهوي بالصفعةِ الثانية على قفاه، فتجمَّعَ، أي رفعَ كتفيه حتى التصقا برأسه، ليخفي قذالَهُ، فتقعُ الصفعةُ على الظهرِ دون القفا، فإذا تجمَّعَ ليُخْفِي قذالَهُ فكيف يقال في هذه الحالة (طالَ قذالُه)؟

ولكنّ العقادَ رجلٌ بليدٌ في الآدابِ العربيةِ، وإيرادُه البيتين على هذا الشكل دليلٌ قاطعٌ في أنّه ضعيفُ الفهم والتمييز، وأنّه لا يصلُحُ لشيءٍ في الأدبِ العربيِّ، لأنه لا هو مطلع، ولا هو يفهم، ولا يحقّق، وليس هو أكثر من لِصٍّ؛ عملُه النقلُ بسرعةٍ وهمَّةٍ على أوتومبيل، أو على عربة كارو، أو على حمار، أو على ظهره هو.. فإنْ أمِنَ واطمأنَّ على ما يسرق، كان من أربابِ الأملاك!!!

التخليطُ العاميُّ الثقيلُ المتناقِضُ، الذي لا نعجب أن لا يتنبه له أديب (فالصو) مثل عقاد الجرائد هذا.

أرأيتَ يا عقّاد أنكَ لستَ هناك، وأنك تدَّعِي الأدب العربيَّ سفاهاً، وأنَّكَ في تمييزِك غبيٌّ غبيٌّ غبيٌّ، لا تساوي شيئاً إلا عند غبيٍّ غبيٍّ مثلك.

* * *

والآن نقول: إننا تلقينا كتاباً يتحدّانا صاحبُه!!! أن ننقدَ قصيدةً للعقاد سماها «الخمرة الإلهية». ويستدلُّ صاحبُ الكتاب على فضلِ العقادِ بما لا شأنَ لنا به هنا، ولو شهد له رجلٌ وامرأتان.

نحن بعون الله لا نضربُ دائماً إلا ضرباتٍ قاضية، ولا نعرفُ هذا النقد المخنَّث الذي نراهُ في الجرائد، مما ليسَ فيه إلا الثرثرة، ولا تقديرَ له إلا بقولهم: أربعة أعمدة أو خمسة أعمدة.. ومن ذلك سررنا بهذا الكتاب الذي تلقيناه، وسنأتي بقصيدةِ العقّادِ هذه بيتاً بيتاً، ليرى بعينيّ رأسِهِ، وبكلِّ أعينُ النّاسِ أنه (فالصو) من أولِه إلى آخره، وأنّه لا يزيدُ عندنا عن حبةٍ من القمح رأتْ حجرَ الطاحون ساكناً هادئاً متواضعاً، فجاءت تُظهِرُ سَفَهَها وطيشَها، وتتهمه بالبرودة والجمود، وتقول له: إنّها من قمح أسترالية!!! ثم... ثم دار الحجر.

في صفحة (٧٤) من «يقظةِ الصّباح»!! «الخمر الإلهية على طريقة ابن الفارض».

ما هي طريقةُ ابنِ الفارضِ، وهل يعرفُها العقاد على حقيقتها، أم هو يقلِّدُ في هذا كما هو شأنه دائماً؟

الخمر في لغة السادة الصوفية «شرابُ المحبةِ الإلهيةِ الناشئةِ عن شهودِ